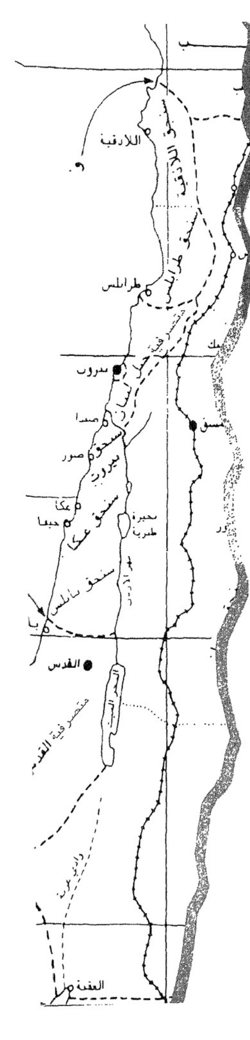


فلسطين في نهاية العصر العثماني
من خلال الرحلة التي قام بها
محمد رفيق التميمي و محمد بهجت الكاتب

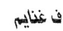
تحت عنوان

ولاية بيروت

الجزء الأول

لواء نابلس

دراسة وتحقيق


ف غنايم


ن القدس

د. محمد عبد الكريم محافظة
قسم العلوم الإنسانية والاجتماعية
الجامعة الهاشمية

٢٠٠٠م

فلسطين في نهاية العصر العثماني

من خلال الرحلة التي قام بها

محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الكاتب

تحت عنوان

ولاية بيروت

الجزء الأول
لواء نابلس

دراسة وتحقيق

الدكتور زهير عبد اللطيف غنايم — الدكتور محمد عبد الكريم محافظة

اللجنة الملكية لشؤون القدس — قسم العلوم الانسانية والاجتماعية

الجامعة الهاشمية

٢٠٠٠م

****

رقم التصنيف	: ٤ر٩٥٦
المؤلف ومن هو في حكمه	: زهير عبداللطيف غنايم، محمد عبدالكريم محافظة
عنوان المصنف	: فلسطين في نهاية العصر العثماني من خلال الرحلة التي قام بها محمد رفيق التميمي
الموضوع الرئيسي	١- فلسطين - تاريخ
رقم الإيداع	: ٢٠٠٠/٢/٥١٠
بيانات النشر	: عمان: الشركة الجديدة للطباعة والتجليد

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٢٠٠٠/٢/٢٥٣.

المقدمة:

يبحث كتاب ولاية بيروت في التاريخ العام للولاية التي تشمل الوية عكا ونابلس وبيروت وطرابلس واللاذقية، ويقسم الكتاب إلى قسمين، القسم الأول والذي يشمل مباحث عامة عن ولاية بيروت مثل الموقع والأهالي (السكان) والأديان والمذاهب والأحوال الطبيعية والمظاهر الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة إلى جانب نبذة تأريخية، أما القسم الثاني من الكتاب فقد صُنف على أساس الوصف الدقيق لكل ما اشتملت عليه الولاية من حيث السكان وعناصرهم الدينية والاجتماعية والمظاهر الطبيعية والتاريخ والآثار والأحوال العمومية والأخلاقية والاجتماعية والصحية والدين واللغات والتعليم والأداب والصنائع والمعارف والزراعة والتجارة والصناعة والطرق.

صدر كتاب ولاية بيروت سنة ١٩١٦م في حوالي ألف نسخة وأعادت دار لحد في بيروت نشره سنة ١٩٧٩م ولكنها اختصرت الأبحاث التي تتعلق بلوائي نابلس وعكا وابقت على المواضيع والأبحاث المتعلقة بألوية بيروت وطرابلس واللاذقية كاملة وعللت ذلك قائلة "وقد قصدنا عدم مس نص الكتاب بأي تغيير أو تحريف يخرجه عن وضعه الأصلي وينزع الصفة التاريخية فاكتفينا فقط باسقاط بعض المواضيع الهامشية المتعلقة بأقضية موجودة الآن خارج حدود الجمهورية اللبنانية ولا يشكل حذفها انقاصاً من قيمة الكتاب الوثائقية".

وقد اعادت دار لحد نشر القسم الجنوبي من الكتاب والذي يشمل الوية نابلس وعكا وبيروت عام ١٩٨٧م دون تعديل أو تغيير أو حذف أو اضافة كما صدر في طبعته الأولى عام ١٩١٦م.

ونظراً للعدد المحدود من النسخ التي تم اصدارها ولما للوائـي نـابلس وعكا من أهمية خاصة في نهاية العصر العثماني فقد وجدنا أنه من الضـروري اعادة نشر المباحث المتعلقة باللوائين في كتاب خاص لما لنشر هذا الجزء مـن أهمية خاصة في ابراز تاريخ جزء هام من بلادنا فلسطين مع تحقيـق علمـي شامل للمواقع والأسماء والأماكن والتعريف بها مع مقدمة تاريخيـة للأوضـاع العامة في اللوائين في نهاية العصر العثماني.

كانت الدوافع وراء اصدار الكتاب للمرة الأولـى تكمـن فـي توفـير المعلومات لاصحاب القرار والمسؤولين في ولاية بيروت بصورة أفضل مـن المعلومات الاحصائية والبيانية التي توفرها السالنامات العثمانية وهذا ما يظـهر من مقدمة الطبعة التي صدرت عام ١٩١٦م وفيها "ان من الحقائق التي لا تنكـر شدة احتياجنا لمؤلفات مفيدة تأتي بها التتبعات والتفحصات من وجـهتي العلـم والمدنية في أحوال بلادنا العمومية لنعرف منها ماهية وطننا المقدس ولا ريـب أن اهمال القيام بذلك ناشيء عن ضعف في العزيمة وفقدان الجرأة والعمل. واذا عطفنا نظرنا إلى تقاويم الولايات (السالنامة) التي كانت تنشر حتى الآن وعرفنـا أنها عبارة عن جداول رتب وأسماء مأمورين تحقق لدينا أن الدوائر الرسمية لـم تكن خالصة من وصمة الاهمال والتسامح في هذا الأمر.

ولقد نظر حضرة والي الولاية العالي عزمي بك أفندي إلى هذا الأمـر بعين الاهتمام وعرف شدة الحاجة إلى إملاء هذا الفراغ بوضـع دليـل علمـي ومدني يستفيد منه موظفوا الحكومة وطبقات الأهلين وينير مستقبل البلاد العلمي فانتخب لهذه الغاية رفيق التميمي مدير المكتب التجاري في بـيروت ومحمـد بهجت بك المدير الثاني في المكتب السلطاني وأرسلهما إلى القسم الجنوبي مـن الولاية".

يعتبر الكتاب وثيقة مهمة لدراسة الأوضاع السكانية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية في لوائي نابلس وعكا في أواخر العصر العثماني فهو يفيد في التعرف على اعداد السكان ولا سيما أن الكتاب يتضمن جداول بأعداد السكان في المدن والألوية والأقضية موزعين أحياناً حسب طوائفهم الدينية، ويبين العوامل المؤثرة على أعداد السكان ولا سيما تلك العوامل التي تؤدي إلى تناقصهم ومنها الأمراض والتجنيد العسكري والهجرة والمجاعات التي أصابت المنطقة بشكل خاص خلال الحرب العالمية الأولى.

كما يعتبر الكتاب مصدراً هاماً لدراسة الأوضاع الاجتماعية للسكان في المدن والقرى لأنه يتحدث عن الفئات الاجتماعية والأوضاع المعيشية لكل فئة والأعمال التي تقوم بها ومقدار ثروة كل فئة والعادات الاجتماعية الخاصة بكل منها وطبيعة العلاقة بين هذه الفئات.

ويسهب في الحديث عن العادات الاجتماعية في الزواج والمأتم والطهور وتقضية أوقات الفراغ واستقبال الضيوف وتناول الطعام، ويصف ملابس الرجال والنساء ويذكر أسمائها.

ولا يهمل المؤلفان الحديث عن الحركة العمرانية ويشيران إلى حارات المدن وأهم الأبينة فيها مثل المساجد والكنائس والمستشفيات ودور الحكومة ويسهبان في وصف البيوت وطبيعة تكوينها وعدد الغرف والأوض فيها والغرض من استخدام كل غرفة.

كما يساهم الكتاب في التعرف على الحركة الثقافية وأوضاع التعليم من خلال اشاراته العديدة إلى المدارس في المدن والقرى واعداد الطلاب فيها ووصفه للحالة التي وصلت إليها هذه المدراس.

ويتطرق الكتاب بشكل كبير للأوضاع الاقتصادية ولا سيما الصناعية وأهم الصناعات في المدن وحالة هذه الصناعات ووسائل تطويرها، وكذلك الزراعة وأهم المحاصيل الزراعية والعوامل المؤثرة فيها ولا سيما الالتزام والتخمين ودورهما في افقار الفلاحين، وأثر الديون على الزراعة والمزارعين، وكذلك أثر الجراد والتجنيد العسكري، وتضمن الكتاب جداول بكميات الانتاج الزراعي في المناطق المختلفة، ومن خلال ذلك يشير المؤلفان إلى العلاقة بين الريف والمدينة وعلاقة الأثرياء والملتزمين وجامعي الضرائب من سكان المدن بالفلاحين سكان القرى.

وتحدث الكتاب عن الطوائف الدينية التي يتكون منها السكان والمهن التي يمارسها أفرادها وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية فقد توسع الكاتبان في الحديث عن السامريين وديانتهم وعاداتهم الاجتماعية وظروف معيشتهم، كذلك عند الحديث عن اليهود في المستعمرات والمدن التي يقيمون فيها، فقد اسهبا بشكل واضح في وصف المستعمرات والمدن التي يقيمون فيها، كما أسهبا بشكل واضح في وصف مستعمرة ملبس وسكانها وطريقة معيشتهم وتنظيم مستعمرتهم لينتقلا للحديث عن اليهود السفارديم والاشكنازيم وأعدادهم في العالم، كذلك أسهبا بالحديث عن البهائيين وكيفية ظهورهم في إيران حتى انتقالهم إلى حيفا بالاضافة إلى ما دار من حوار مع زعيم البهائية في حيفا.

في الوقت الذي تحدث فيه الكاتبان عن بعض الاقليات إلا أنهما أهملا الحديث عن الدروز الذين يشكلون جزءاً مهما من السكان ولا سيما في لواء عكا كما أنهما لم يشيرا إلى عدد من القرى في اللوائين ولم يمرا بها في رحلتهما وكانا يكتفيان في أحيان كثيرة بذكر اسم القرى القريبة من المدن والطرق الرئيسية.

كان محمد رفيق التميمي متأثراً بشكل خاص بالافكار الغربية في دراسة التاريخ ولا سيما أنه أمضى فترة من الزمن في دراسة التاريخ في باريس، وظهر ذلك من خلال توسعه الواضح في الحديث عن تاريخ المنطقة في الفترة ما قبل الاسلام ولا سيما الاشارات العديدة للتاريخ اليهودي في عدد من المناطق التي يمر فيها.

ان المشاهدة الشخصية هي المصدر الرئيسي للمعلومات التي جمعها المؤلفان في كتابهما فقد صنفا كتابهما وفقاً لأسلوب الرحالة اللذين يعنون بتسجيل ما يرونه ويشاهدونه في المناطق التي يزورونها، ولكنهما كانا في أحيان كثيرة ينقلان بعض المعلومات عن الكتب المدونة لا سيما عند حديثهما عن تاريخ المناطق التي يمران بها وكذلك تاريخ الجماعات البشرية، فمثلاً عند حديثهما عن لغة السامريين قالا: "كتب جرجي زيدان الذي اشتهر بتدقيقاته العميقة فصلاً عن السامريين في الجزء التاسع من مجلة الهلال الصادرة عام ١٩٠٠-١٩٠١م فجاء في الصحيفة ٤١٥ منها ما يأتي"، ويقول مرة أخرى "وتكلم البستاني صاحب دائرة المعارف المعروف باتساع علمه ووقوفه عن السامريين في الصحيفة ٤٠٧ من المجلد التاسع من كتابه فنلخص ايضاحاته التي كتبها تنويراً للقارئ في بحثنا هذا فقال".

كما أن الوثائق والتقارير الرسمية الحكومية كانت مصدراً مهماً للمعلومات التي يدونها المؤلفان، فمثلاً كانا أثناء زيارتهما للمدن يراجعان وثائق البلديات وميزانيتها وينقلان ميزانية البلدية، كما كانا ينقلان عن الوثائق الرسمية الاحصاءات الخاصة باعداد السكان وكميات الانتاج الزراعي وعدد طلاب المدارس.

وقد احتوى الكتاب بطبعته الأصلية على الكثير من الأخطاء والاشكاليات التي أوجبت إعادة تصحيحها، فقد تضمن الكتاب أخطاءً واضحة في البيانات والأرقام الاحصائية المتناثرة في ثنايا الكتاب كما تضمن أخطاءً واضحة في

كتابة الأسماء، فمثلاً تكتب أوروبا مرة أوروبا ومرة أخرى أوربا، كما اختلفت كتابة الأسماء والمواقع نفسها في صفحات الكتاب، كما كتبت بعض الأسماء الأخرى بشكل خاطئ فقرية زرعين كتبت (زرين) وقرية بيت دجن (بيت جان)، واستخدم المؤلفان في الكتاب ثلاثة تواريخ، التاريخ الهجري والتاريخ المالي العثماني (السنة المالية العثمانية)، إلا أنهما كانا في أحيان أخرى يستخدمان التأريخ الميلادي.

المحققان

عمان في ١٩٩٩/١١/٢٥

ترجمة المؤلفين:

أ- محمد رفيق التميمي:

ولد محمد رفيق التميمي في مدينة نابلس عام ١٨٨٥م، وينتهي نسبة من جهة والده إلى الصحابي تميم الداري[١]، وأتم دراسته الإبتدائيـة و قسـماً مـن دراسته الإعدادية في نابلس، وفي عام ١٩٠٤م إنتقل إلى الأستانة ليتابع دراسـته في مكتب[٢] مرجان فيها، وعندما كان محمد رفيق التميمي في السنة الأخيرة في المكتب قررت نظارة (وزارة) المعارف العثمانية إرسال عدد من الطلبة لإكمـال دراستهم العليا في أوروبا وأجرت مسابقة لتحديد الطلاب الذيـن سـوف يتـم إرسالهم وكان من بينهم محمد رفيق الذي فاز في المسابقة وأُرسل إلى بـاريس حيث قضى ثلاث سنوات تعلم فيها اللغة الفرنسية ونال شهادة عام ١٩٠٩م مـن كلية الآداب في باريس، وأثناء وجوده فيها ساهم مع غيره من الطلاب العـرب في إنشاء الجمعية العربية الفتاة.

عاد محمد رفيق إلى العاصمة الأستانة بعد أن أنهى دراسته فعُين معلمـاً للتاريخ في مكتب سلطاني مناستر فسافر إلى مكان عمله ولكنه إضطـر إلـى العودة من مدينة سلانيك[٣] لأنه لم يستطع الوصول إلى مناستر بسبب الحـرب البلقانية التي كانت مشتعلة بين الدولة العثمانية وبين تحالف الـدول البلقانيـة، فأعادت نظارة المعارف تعينه معلماً للتاريخ في مكتب مدرسة سلطاني خربوت،

---

[١] تميم الداري: من الصحابة اقطعه الرسول صلى الله عليه وسلم الخليل (حبرون)، وتنسب إليه عشيرة التميمي في الخليل وغيرها من المناطق. محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص١٢٩-١٣٣.

[٢] مكتب: مدرسة.

[٣] سلانيك: مدينة يونانية كانت في القرن التاسع عشر خاضعة للدولة العثمانية.

وبعد سبعة أشهر من عمله في هذه المدينة عين معلماً للتاريخ والجغرافية في المكتب السلطاني في بيروت، وبعد سنتين من عمله في المكتب المذكور أُلغي المكتب، فأعادت نظارة المعارف تعينه معلماً للتاريخ والجغرافية في مكتب سلطاني أزمير ثم نقل إلى المكتب السلطاني الثاني في دمشق معلماً للأدبيات و الفلسفة ولكن قبل أن يباشر عمله الجديد عُين مديراً للمكتب التجاري الذي أفتتح في بيروت عام ١٩١٢م، وعندما أعلنت الثورة العربية عام ١٩١٦م بادر رفيق التميمي إلى الالتحاق بالجيش العربي الذي قاده الأمير فيصل ابن الحسين نحو دمشق، وبعد دخول الجيش العربي دمشق عُين مشاوراً للمعتمد العسكري في بيروت كما أنه مثل فلسطين في المؤتمر السوري العام الذي عقد في دمشق.

عاد محمد رفيق التميمي إلى فلسطين بعد انتهاء الحكم الفيصلي في دمشق، فاختاره الحاج أمين الحسيني مديراً للكلية الإسلامية التي أسست في القدس، ثم انتقل للعمل في إدارة المعارف مديراً للمدرسة الثانوية في الخليل ثم مديراً لمدرسة العامرية الثانوية في يافا إلى أن أُحيل على التقاعد حيث انضم إلى الحركة الوطنية ففي عام ١٩٤٤م كان أحد أعضاء المكتب المركزي للحزب العربي الفلسطيني، وفي عام ١٩٤٦م كان أحد أعضاء الهيئة العربية العليا التي أنشئت من قبل الجامعة العربية لتتولى قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية فاختير مديراً لمكتب الهيئة في القدس وبعد النكبة عام ١٩٤٨م انتقل إلى دمشق وتولى إدارة الهيئة العربية فيها إلى أن توفي في ١٩ تشرين الأول ١٩٥٦م[١].

---

[١] محمد رفيق التميمي، محمد بهجت الكاتب، ولاية بيروت، ص٢،٣؛ يعقوب العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين والأردن ص٧٩،٨٠؛ صحيفة مرأة الشرق، العدد ٥٠٨، ص٢؛ محمد عمر حمادة، أعلام فلسطين، ج٣، ص١٤٣-١٤٥؛ الزركلي، الاعلام، ج٣، ص٣٠؛ الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٥٥٨؛ عرفان أبو حمد، أعلام من أرض السلام، ص١٧٠، ١٧١.

يعتبر التميمي من المؤرخين المخضرمين الذين عاشوا في نهاية العصر العثماني وفترة الانتداب البريطاني وكانت المؤلفات التي دونها تمثل هاتين الفترتين التاريخيتين.

أ- الفترة العثمانية: وقد كتب التميمي في هذه الفترة ثلاثة كتب وهي:

١- ولاية مدحت باشا على الطونة، وقد كتبه باللغة الفرنسية للحصول على شهادة التخرج من جامعة السربون.

٢- التاريخ العمومي في ثمانية أجزاء.

٣- ولاية بيروت: وهي عبارة عن رحلة قام بها التميمي بالاشتراك من محمد بهجت الكاتب لمناطق ولاية بيروت الشمالية والجنوبية بناءً على طلب من عزمي بك والي بيروت، وقد طبع الكتاب أصلاً باللغة التركية، ثم ترجم إلى العربية، حيث يذكر محمد عمر حماده في كتاب (أعلام فلسطين) أن المؤلفين ترجماه إلى العربية، بينما يذكر الزركلي في كتابه (الأعلام) أن محمد الجسر ترجم الجزء الأول إلى العربية بينما ترجم الجزء الثاني مصطفى برمد من علماء القانون في سورية، والأرجح أن المؤلفين قاما بترجمة كتابهما إلى العربية ونشراه عام ١٩١٦م هذه الطبعة لم تشر إلى قيام أحد بترجمة الكتاب وقد تكون ترجمة كل من مصطفى برمد ومحمد الجسر لطبعة أخرى.

ب- فترة الانتداب البريطاني: الكتب التي ألفها في هذه الفترة هي:

١- الاقطاع وأول اقطاع في الإسلام.

٢- الحروب الصليبية طبع في القدس سنة ١٩٤٥م.

٣- تاريخ أوروبا الحديث وطبع في القدس سنة ١٩٤٦م.

٤- تاريه العصر الحديث وطبع في يافا سنة ١٩٤٦م.

٥- حوض البحر المتوسط، وكتبه بالاشتراك مع وصفي العنبتاوي وسعيد الصباغ وطبع في القدس سنة ١٩٤٩م.

وقد كان الغرض من تأليف هذه الكتب توفير الكتب التعليمية للمـــدارس الفلسطينية باستثناء كتاب (الاقطاع وأول أقطاع في الاسلام) الـــذي يظـهر أن المؤلف دونه للدفاع عن وقف عائلة التميمي التي ينتمي إليها.

ب- محمد بهجت بك:

ولد محمد بهجت في حلب عام ١٨٩٠م، ووالده محمـــد بشـــير أفنـــدي الحلبي الذي عمل عضواً في محكمة الإستئناف في بيروت، ووالدته كريمة رضا أفندي من ضاحية اسكدار في الاستانة.

تعلم محمد بهجت منذ صغره اللغتين العربيـــة والتركيـــة، ودرس فـــي المكتب الإعدادي في حلب وبعد أربع سنوات من دراسته في هذا المكتب نقـــل والده لتولي وظيفة باشكاتب محكمة الاستئناف في سلانيك فذهب محمد بـــهجت إلى هناك مع والده، و في سلانيك أتم دراسته الإعدادية وتخـــرج مـــن مكتـــب المدينة عام ١٩٠٣م ثم انتقل إلى الاستانة لإتمام دراسته فيها فـــالتحق بمكتـــب الحقوق و في أثناء إقامته في الاستانة إهتم بدراســـة الآداب التركيـــة القديمـــة والحديثة وأخذ ينظم الشعر و يكتب النثر باللغة التركية.

و بعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م بدأ الكتابة في مجلة رسملي كتاب وفي جريدة ثروت فنون وفي أمثالها من المجلات الأدبية، كما اتصل مـــع محرري جريدتي طنين وتصوير أفكار ثم عمل محرراً في صحيفة جريدة عدلية التي كانت تصدرها نظارة العدلية في الأستانة، وفي عام ١٩٠٨م حصل علـــى شهادة من مكتب الحقوق في العاصمة فعين معلماً للأدبيات العثمانية في مكتـــب سلطاني بيروت فانتقل إلى المدينة عام ١٩١٠م.

و في أثناء عمله في بيروت اهتم بدراسة الأدبيات العربية وعلم اللغـــة التركية و في عام ١٩١١م عين معلماً للفلسفة في مكتب سلطاني في بـــيروت، ولما انتقل المكتب إلى دمشق عقب إعلان الحرب العالمية الأولى انتقـــل إلـــى

دمشق، وفي عام ١٩١٣م عين مديراً للمكتب السلطاني في بيروت وعهد إليـــه تدريس الأدبيات و الفلسفة.

و للمؤلف كتاب مطبوع يسمى أرغنون جمع فيه أثاره المنظومـــة ولـــه أثار مدرسية ومنظومات إلى جانب كتاب ولايةبيروت بالإشتراك مـــع محمـد رفيق التميمي[١].

[١] محمد رفيق التميمي، محمد بهجت الكاتب، ولاية بيروت، ص ٢، ٣.

الدراسة:

بدأت الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي سلسلة من الاصلاحات العسكرية والادارية والاقتصادية لتحسين أوضاع الدولة المتدهورة، وبدأت هذه الاصلاحات عندما أقدم السلطان العثماني سليم الثالث عام ١٧٨٩م على إلغاء فرق الجنود الانكشارية وانشأ فرق عسكرية جديدة على الانظمة الأوروبية عرفت بالنظام الجديد، ولكن الجنود الانكشارية عارضوا هذه الاصلاحات وثاروا على السلطان سليم الثالث وقتلوه، وعندما تولى السلطان محمود الثاني الحكم أدرك أن اصلاح الجيش لايتم إلاّ بالتخلص من الجنود الانكشارية، فحاصر ثكناتهم وقضى عليهم فيما عرف بالواقعة الخيرية عام ١٨٢٦م[١].

انتقلت الاصلاحات العثمانية إلى مرحلة جديدة عندما بدأ السلاطين العثمانيين باصدار مجموعة من القوانين عرفت بالتنظيمات، وأولها خط شريف كلخانه الذي أُعلن عام ١٨٣٩م، والذي تضمن منح الرعية (السكان) الأمان على أرواحهم واعراضهم واموالهم، ووعد باصلاح نظام القضاء وتنظيم جباية الأموال والغاء نظام الإلتزام ، وتنظيم عملية الخدمة العسكرية والتنجيد الاجباري والقضاء على الرشوة[٢].

---

[١] الدستور، ج١، ص٤٠٨؛ عوض، الإدارة، ص١٥.

[٢] الدستور، ج١، ص٤٠٨؛ عوض، الإدارة، ص١٥.

وفي عام ١٨٥٦م أصدر السلطان عبد المجيد ما يعـــرف بالتنظيمـــات العثمانية، والتي قررت معاملة جميع سكان الدولة معاملة متساوية بغض النظـــر عن ديانتهم ووعدت بتنظيم ميزانية الدولة واجراء اصلاحات في المواصـــلات والتعليم والتجارة[١].

وفي عام ١٨٦٤م صدر قانون الولايات العثماني الجديد الذي تم بموجبه تقسيم الدولة العثمانية إلى ٢٧ ولاية وتم تقسيم كـــل ولايـــة إلـــى عـــدد مـــن المتصرفيات (الألوية) وتم تقسيم كل لواء إلى عدد من الأقضية وكل قضاء إلـــى عدد من النواحي والناحية إلى عدد من القرى[٢].

وقد اتصف نظام الادارة العثماني الجديد بالمركزيـــة الشـــديدة، اذ قيـــد الأجهزة الادارية في الولايات وربطها مع العاصمة مباشرة، مما يظهر حـــرص الدولة العثمانية على بسط الحكم المركزي على الولايات، كما حدد نظـــام الادارة الجديد صلاحيات الموظفين فحددت اختصاصات الوالي ومدير الناحية، وفصلت الشوؤن المالية والعسكرية والادارية عن بعضها البعض وعين موظفون لـــهذه الشوؤن لا يتبعون للوالي أو المتصرف وانما يتبعون لـــوزارات عديـــدة فـــي العاصمة الاستانة فمثلاً يتبع الوالي والمتصرف لوزارة الداخليـــة والمحاســـب لوزارة المالية.

كما قررت التنظيمات الادارية انشاء مجالس للادارة في كل من مركـــز الولاية واللواء والقضاء وكانت مهمة هذه المجالس معاونة المسوؤلين مـــن ولاة ومتصرفين في ادارة مناطقهم، والأمرالمهم في هذه المجالس أن نصف اعضائها كان يتم تعيينهم من قبل الدولة والنصف الأخر بالانتخاب من قبل السكان، كمـــا

---

(١) الدستور، ج١، ص٣٨٧-٣٨٨؛ عوض، الإدارة، ص٣٤-٣٨.

(٢) الدستور، ج١، ص٣٨٧-٣٨٨؛ عوض، الإدارة، ص٣٤-٣٨.

شارك في عضويتها كل من المسلمين والمسيحيين واليهود وغيرهم من الطوائف.

واختتمت الاصلاحات والتنظيمات العثمانية باصدار الدستور العثماني عام ١٨٧٦م والذي نص على انشاء المجلس العمومي (البرلمان) الذي يتكون من مجلسي الأعيان الذي يعين السلطان اعضائه ومجلس المبعوثان الذي يتم اختيار اعضائه بالانتخاب.

وعلى الرغم من أن التجربة الدستورية لم تستمر طويلاً اذ قام السلطان عبد الحميد في عام ١٨٧٨م بحل البرلمان واستمر في ذلك حتى عام ١٩٠٨م عندما اعادت جمعية الاتحاد والترقي العمل بالدستور، حيث سمح العمل بالدستور لسكان الدولة العثمانية لأول مرة بممارسة الانتخاب واختيار نواب يمثلونهم في مجلس المبعوثان(١).

وقد شارك لوائي نابلس وعكا في هذه الانتخابات، ومثّل اللوائين في انتخابات عام ١٩٠٨ كل من أسعد الشقيري عن لواء عكا واحمد الخماش عن لواء نابلس(٢).

أدت التنظيمات العثمانية إلى تغييرات هامة في تركيبة المجتمع العثماني والفئات الاجتماعية فيه، فقد اقتصرت فئات المجتمع قبل التنظيمات على وجود فئتين سكانتين هما فئة الحاكمين والمحكومين، وتكونت الفئة الأولى من الولاة وكبار الموظفين والملتزمين إلى جانب العساكر من الجنود الانكشارية والمرتزقة، اما فئة المحكومين فتكونت من اصحاب الطوائف والحرف من صناع وحرفيين وتجار إلى جانب الفلاحين سكان القرى، بالاضافة إلى العلماء

---

(١) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص١٧٥-١٧٦؛ دروزه، الحركة العربية، ص١٧٨-١٧٩؛ يوسف الحكيم، بيروت ولبنان،ص٣٥-٣٦.

(٢) دروزه، نشأة الحركة العربية،ص٢٩٩-٣٠٠؛ بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات، ص٨٤٦؛ احسان حلاق، الدولة العثمانية ص١٧٠.

ورجال الدين من قضاة ومفتين واشراف وائمة، وقد تمتعت الفئة الأولى وفئة العلماء بالنفوذ والمكانة المرموقة في المجتمع على حساب الفئة الثانية من الرعية.

لكن تركيبة المجتمع تغيرت بتأثير التنظيمات فظهرت فئات اجتماعية جديدة بتأثير سماح الدولة العثمانية بحرية التجارة واتساعها مع الدول الاوروبية واصدار قانون تملك الأراضي الميري عام ١٨٥٨م، فظهرت فئة التجار وكبار الملاك، وقد ازداد نفوذ وتأثير هاتين الفئتين في المجتمع في نفس الوقت الذي تقلص فيه نفوذ فئات اخرى اهمها الولاة والملتزمين وكبار الموظفين بعد أن قلصت التنظيمات من صلاحياتهم.

كما أقرت التنظيمات العثمانية دور الدولة في تقديم الخدمات المختلفة من مدارس ومستشفيات ووسائل مواصلات للسكان، ولم تعتبر الدولة العثمانية قبل التنظيمات تقديم هذه الخدمات من مهامها، ولذلك بدأت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر بانشاء طرق العربات والسكك الحديدية والمدارس والمستشفيات في جميع المناطق التابعة لها.

كما ازداد اهتمام الدولة بانشاء المدارس في المدن والقرى وتوفير فرص التعليم للسكان، ولم يعد التعليم مقصوراً على التعليم الديني في الكتاتيب لاعداد الائمة والوعاظ والقضاة والمفتين، بل أصبح نظاماً تعليمياً يقوم على الانماط الغربية ويهدف لتوفير الكوادر المتعلمة التي تحتاجها الدولة.

السكان:

شهدت فلسطين عامة تغيرات سكانية كبيرة تمثلت في زيادة السكان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في المدن والقرى، وتعود هذه الزيادة إلى الهجرة التي شهدتها المنطقة من المناطق المجاورة مثل لبنان وشرقي الأردن

والجزيرة العربية ومصر والبلقان والقوقـــاز والجزائــر، وتحســن المســتوى الاجتماعي للسكان والقضاء على الأمراض والأوبئة التي كانت تفتــك بالنــاس وتؤدي إلى وفاة الآلاف منهم ولا سيما الطاعون والكوليرا، بالاضافة إلى الزيادة الطبيعية المرتفعة، فمثلاً كان عدد السكان في لواء نـــابلس فـــي أول احصـــاء عثماني عام ١٨٩٣م حوالي ١١٥,٢٤٧ نسمة موزعين على أقضية اللواء علـــى النحو التالي(١):

قضاء نابلس	٣٢,٠٣٠
قضاء بني صعب	٣١,٢٨٣
قضاء جماعين	٢١,٢٨٣
قضاء جنين	٣٠,٦٧٨
المجموع	١١٥,٢٧٤

وقد ارتفع عدد السكان في اللواء عام ١٩٠٤م إلـــى ١٣٧,٥١٨ نســمة موزعين على أقضية اللواء على النحو التالي:

قضاء نابلس	٥٦,٥٧٥
قضاء جنين	٤١,٩١٥
بني صعب	٣٩,٠٢٨

(١) رافق، الموسوعة، فلسطين في العهد العثماني، ص٩١٤.

أما سكان لواء عكا فقد بلغوا حوالي ٧٥٨٨٢ وفقا للاحصاء العثمـــاني الأول عام ١٨٩٣م موزعين على النحو التالي[١]:

قضاء عكا	٢٦,٦١٠
قضاء حيفا	١٦,٣٩٤
قضاء الناصرة	١٢,٢٩٢
قضاء صفد	١٤,٤٠٧
قضاء طبريا	٦,١٧٩

وقد ارتفع هذا العدد إلى ١٣٨,٨٧٣ نسمة عام ١٩١٤م موزعين علـــى النحو التالي[٢]:

قضاء عكا	٤١,٢٩٠
قضاء حيفا	٣٠,٧٣٧
قضاء الناصرة	٢٠,٧٩٢
قضاء صفد	٣٢,٢٣٧
قضاء طبريا	١٣,٧١٧
المجموع	١٣٨,٧٧٣

---

(١) زهير غنايم، لواء عكا، ص٩٠.

(٢) زهير غنايم، لواء عكا، ص٩٠.

ويظهر الجدول التالي سكان لواء نابلس موزعين على الطوائف الدينيـــة عام ١٩٠٩م[١]:

المسلمون	١٣٥,٩٣٤
الارثوذوكس	١٤٦٤
الكاثوليك	٤
الموارنة	٧
البروتستانت	٤٨٦
اللاتين	٤٩٦
السامريون	١٧٨
اليهود	٣٥
المجموع	١٣٨,٦٠٤

بينما يظهر الجدول التالي سكان لواء عكا موزعين على طوائفهم عـــام ١٩١١-١٩١٢ وفقاً لاحصاء النفوس العثماني[٢]:

المسلمون	٦٣٤٣٣
الارثوذوكس	٣٠٩١
الكاثوليك	٦٧٦٧
البروتستانت	٣٩٣
اللاتين	١٤٦٦
الموارنة	١١٨٥

(١) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص١٩.

(٢) زهير غنايم، لواء عكا، ص٨٩-٩٧.

مجموع المسيحيين	١٢٩٠٢
اليهود	٦٣٠٣
المجموع	٨٢,٦٦٨ (٨٢,٦٣٨)*

وشكل المسلمون أغلبية السكان في لوائي نابلس وعكا، وكانوا يقيمون في المدن، وقد انتقلت إلى اللوائين قسراً مجوعات إسلامية قادمة من الجزائر والقوقاز والبوسنة والهرسك[١] بعد احتلال الدول الأوروبية لهذه البلاد كما هاجر إلى المنطقة بشكل فردي المسلمون من المناطق المجاورة ولا سيما مصر وشرقي الأردن والجزيرة العربية[٢] وشكل المسيحيون المجموعة السكانية الثانية بعد المسلمين، وكانوا يقيمون في المدن والقرى وقد انتقلت إلى المنطقة ومنذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي عائلات مسيحية قادمة بشكل خاص من لبنان ولا سيما بعد أحداث عام ١٨٦٠م بين الدروز والموارنة كما أن انتعاش الحركة التجارية في شمال فلسطين وبخاصة في حيفا شجع عدد من تجار بيروت المسيحيين على الانتقال إلى المنطقة والاقامة فيها بشكل دائم[٣].

أما اليهود فقد هاجروا إلى فلسطين وأقاموا في المدن الكبرى بين سكانها المسلمين والمسيحيين متمتعين بالتسامح الديني الذي أبداه العثمانيون نحو

* المجموع النهائي للسكان وفقاً للاحصاء العثماني لعام ١٩١١-١٩١٢م هو ٨٢,٦٣٨ نسمة لا ٨٢,٦٦٨ نسمة.

(١) Conder, Kitchener, Survey, Vol. 1, Galilee, P.199. Schumacher, Population, P. 169-179.

(٢) منصور، الناصرة، ص٨٨؛ عبد الصمد، طيرة الكرمل، ص٣٠٠-٣٠٨؛ زهير غنايم، لواء عكا، ص١٤١-١٧٩.

(٣) منصور، الناصرة، ص٢٠٢-٢٠٤؛ شولش، تحولات، ص٢٣٩-٢٤٢، زهير غنايم، لواء عكا، ص١٤١-١٧٩.

الطوائف الدينية غير الإسلامية، وقد ازدادت الهجرة اليهودية إلى فلسطين نتيجة للاضطهاد الذي تعرض له اليهود في دول أوروبا الشرقية، وقد تأثر هؤلاء بأفكار الحركة الصهيونية وأنشئوا المستعمرات في فلسطين وأقاموا فيها منعزلين عن بقية السكان تمهيداً لأقامة وطن خاص لليهود في فلسطين، وقد نجح اليهود في إقامة عدد من المستعمرات منها مستعمرة ملبس وروش بينا (الجاعونة) وزخرون يعقوب (زمارين)[1].

وارتبطت الهجرة الألمانية إلى فلسطين بظهور طائفة المعبد (الهيكل) التي انبثقت عن المذهب الانجيلي وظهرت في ولاية فورتمبرج الالمانية ويعتقد أتباعها أن الأخلاق تزداد انحلالاً في العالم وأنهم اختيروا لبناء نظام جديد للعالم عن طريق إقامة مستعمرات في فلسطين يرسلون منها المبشرين إلى جميع المناطق تمهيداً لايجاد أمة جديدة تجلب الخلاص للعالم.

وقد نجح الالمان في إقامة مستعمرة لهم في غرب حيفا عام ١٨٧٠م ومستعمرتين في كل من يافا والقدس، ومستعمرتين في قريتي بيت لحم وأم العمد قضاء الناصرة[2] كذلك أقامت في لواء عكا جماعة من البهائيين الفرس الذين أخرجوا من إيران إلى بغداد ثم نقلتهم الدولة العثمانية إلى عكا ومنعتهم من مغادرتها، وبعد إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م سُمح لهم بمغادرة عكا فانتقلوا إلى حيفا وأقاموا فيها واتخذوا منها مركزاً لهم[3]. كذلك ضم لواء عكا أقلية من الدروز الذين أقاموا في عدد من القرى في أقضية صفد وعكا وحيفا،

---

(1) روحي، المختصر، ص٤٨؛ Oliphant, Haifa, P.71, Beadeker, Palestine, Pp.236-236؛ الاتحاد العثماني، العدد ٣٨١، ٦ ذي الحجة ١٣٢٧هـ / ١٨ كانون الأول ١٩٠٩م، ص١.

(2) شولش، تحولات، ص١٨٤-١٨٥؛ Schumacher, Population, PEF, 1887, P.184-185

(3) Oliphant, Haifa, Pp. 105-107; Baedeker, Palestine, P. 235؛ البحري، حيفا، ص٢٠-٢١؛ حبيب مخول، عكا وقراها، ص٨٠-٨٩.

وأقاموا في هذه القرى بشكل منفرد أو بشكل مشترك مع المسيحيين أو بشكل مشترك مع المسيحيين والمسلمين كما هو الحال في شفا عمرو، وقد بلغ عدد الدروز في لواء عكا وفقاً للاحصاء الذي وضعه شوماخر عام ١٨٨٦م حوالي ١١,٠٥٠ نسمة بينما بلغوا وفقاً للاحصاء الذي وضعه البريطانيون عام ١٩٢٢م حوالي ١٢٠٠٠نسمة(١).

وأقامت في اللوائين القبائل والعشائر البدوية التي انتشرت بشكل خاص في منطقتي طبريا وبيسان وفي سهل مرج بن عامر، بالاضافة إلى مجموعات من العشائر الصغيرة التي أقامت في الأراضي غير المزروعة بالقرب من القرى.

ومن هذه القبائل عشائر الهيب والشمالنة والدلايكة والسياد والمواسي والسمكية والحسانية والغوارنة في سهل الحولة والهنادي والهوارة والصبيح في سهل طبريا، والصقور والغزاوية في قضاء بيسان، ووفقاً للاحصاء البريطاني عام ١٩٢٢م بلغ عدد البدو في لواء عكا حوالي ١٣,٤٠٨ نسمة(٢).

التنظيمات الادارية:

أصدرت الدولة العثمانية عام ١٨٦٤م قانون الولايات الجديد، وتم بموجبه تقسيم بلاد الشام إلى ولايتي حلب وسورية وسنجق لبنان، وكان لوائي نابلس وعكا يتبعان لولاية سورية. وفي عام ١٨٨٧م قررت الدولة العثمانية إنشاء ولاية بيروت إلى جانب الولايتين السابقتين، وقد ضمت الولاية الجديدة ألوية فصلت عن ولاية سورية وهي لواء بيروت بأقضيته الثلاثة صيدا وصور

---

(١) Conder, Tent Work, Vol. 2, P.168-268, Schumacher, PEF, 1887, Pp. 161-191؛ زهير غنايم، لواء عكا ص١٤٤-١٥٠.

(٢) Conder, Kitchener, Survey, Vol. 1, Galilee, P. 354؛ وصفي، عشائر الشام، ص٣٤٨-٣٩٩؛ رستم، المحفوظات، ج١، ص٢٢٥؛ زهير غنايم، لواء عكا ص١٥١-١٦٣.

ومرجعيون، بالاضافة إلى ألوية اللاذقية وطرابلس ونابلس، وقد بقـــي لوائـــي نابلس وعكا تابعين لولاية بيروت حتى نهاية العصر العثماني عام ١٩١٨م[١].

ويموجب قانون الولايات الجديد اصبحت كل ولاية تتكون من عدد مـــن الالوية، وكل لواء يتكون من عدد من الأقضية، فمثلاً كان لواء عكا يتكون مـــن خمسة اقضية هي عكا وحيفا وطبريا وصفد والناصرة، وكان كل قضاء يتكـــون من عدد من النواحي عددها يختلف من فترة إلى اخرى ومن قضاء إلـــى اخـــر تبعاً للتغيرات الادارية، فمثلاً كان لواء عكا يتكون في عام ١٨٧١-١٨٧٢ مـــن خمسة اقضية واحدى عشرة ناحيةتضم ١٥٨ قرية موزعة على النحو التالي:[٢]

---

[١] سالنامة ولاية سورية لعام ١٣٠٢هـ/١٨٨٤، ص١١٠-١٨٠، سالنامة ولاية بيروت لعـلم ١٣١٠هـ/١٨٩٣م، ص١٥٠-٢٤٠؛ الصوفي الطرابلسي، سمير الليـلي، ص٦٨-١١٢؛ الأنسي، دليل بيروت، ص٧٢.

[٢] شولش، تحولات جذرية، ص٣٣-٣٤.

قضاء عكا	عدد القرى	قضاء حيفا	عدد القرى
ناحية الساحل	١٩	ناحية روحه	١٩
ناحية الشاغور	١٥	ناحية الساحل	١٥
		ناحية الجبل	٧
مجموع القرى	٣٤	مجموع القرى	٤١
قضاء الناصرة	عدد القرى	قضاء طبريا	عدد القرى
ناحية الناصرة	٢١	مدينة طبريا	–
ناحية شفا عمرو	١٧	ناحية الشفا والغور	٧
مجموع القرى	٣٨	مجموع القرى	٧
قضاء صفد	عدد القرى		
ناحية الجبل	١٣		
ناحية جيره	٢٥		
مجموع القرى	٣٨	المجموع العام	١٥٨

عادت الدولة العثمانية فالغت النواحي في جميع الأقضية، ما عدا قضاء عكا الذي الحقت به ناحية شفا عمرو[١]، فوفقاً لسالنامة ولاية سورياً لعام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م كان قضاء عكا يضم خمسة اقضية وناحية شفا عمرو قضاء عكا، وتشمل جميعها ٢٤٧ قرية[٢]، ثم أخذت الدولة باستحداث النواحي

(١) سجلات المحكمة الشرعية في حيفا، شريط ١٤١، سجل٣، ٥ رمضان ١٣٠٩هـ/٥ نيسان/ابريل ١٨٩١م؛ سالنامة ولاية سورية لعام ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م، ص١٤٦.

(٢) سالنامة ولاية سورية لعام ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م، ص١٩٨.

من جديد وبشكل تدريجي في اللواء فاستحدث ناحية قيسارية في قضـــــاء حيفــا وناحيتي الشاغور والساحل في قضاء عكا، ولم تستحدث نواحٍ جديدة في أقضيــة صفد والناصرة وطبريا[1]. ولم تطرأ تغييرات على التقسيمات الادارية في لــواء عكا حتى عام ١٩١٤م عندما اتخذ مجلس ادارة لواء عكا قراراً باستحداث نواحٍ جديدة في اللواء بهدف تطويره ادارياً واقتصادياً واجتماعياً خاصة بعــد زيــادة عدد القرى نتيجة لزيادة اعداد السكان وتعمير عدد من القرى الخربــة باســكان المهاجرين المسلمين من الجزائر والبوسنة والقوقاز فيها، فاستحدث ناحية اجــزم إلى جانب ناحية قيسارية في قضاء حيفا، وناحيتي ترشيحا وجسر بنات يعقــوب في قضاء صفد، وناحيتي الشفا والغور في قضاء طبريا، وناحية صفورية فــي قضاء الناصرة[2].

(1) سالنامة الدولة العلية لعام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، ص٣٨٩.

(2) الكرمل، العدد ٤٠١، ٢٧ صفر ١٣٣٣هـ/ ١٣ كانون الثاني ١٩١٤م؛ محمــد شــراب، معجم بلدان فلسطين، ص٦٢-٧٥.

أما لواء نابلس فكان يتكون عام ١٨٧١-١٨٧٢م من قضائي نابلس وجنين و ١١ ناحية على النحو التالي[1]:

قضاء نابلس		قضاء جنين	
مدينة نابلس		مدينة جنين	
ناحية مشارق نابلس	٢٠ قرية	ناحية شفا قبلي	١٢ قرية
ناحية مشارق الجرار	٢٨ قرية	ناحية شفا شمالي	١٣ قرية
ناحية جماعين أول	٢٣ قرية	ناحية شفا غربي	١٤ قرية
ناحية جماعين ثاني	٢٥ قرية		
ناحية وادي الشعير	٢٠ قرية		
ناحية الشعراوية الشرقية	٢٤ قرية		
ناحية الشعراوية الغربية	٨ قرى		
ناحية بني صعب	٢٨ قرية		

(١) شولش، تحولات جذرية، ص٣٢.

أما في عام ١٩٠٤م فأصبح يتكون من ثلاثة اقضية و١٠ نواحي علـــى النحــو التالي:

قضاء نابلس	عدد القرى
ناجية مشاريق الجرار	٢٧ قرية
ناحية مشاريق البيتاوي	٢٥ قرية
ناحية جماعين الأولى	٢٣ قرية
ناحية جماعين الثانية	٢١ قرية
قضاء جنين	عدد القرى
ناحيةالشعراوية	١٥ قرية
ناحية بني حارثة	٢٣ قرية
مزرعة بيسان السلطانية	٩ قرى، بيسان
مشاريق الجرار	٢٤ قرية
قضاء طولكرم	عدد القرى
ناحية الحرم	٩قرى
ناحية بني صعب	٣٤ قرية

الأنشطة الاقتصادية:

الأراضي:

كانت الأراضي هي عماد الحياة الاقتصادية في الدولة وكانت ملكية الأراضـــــي تقسم إلى الأشكال التالية:

أراضي الميري:

تعود ملكية أراضي الميري للدولة المالك الحقيقي للأرض، ولكن الدولــة اعطت الفلاحين حق زراعتها فقط، على أن يدفعوا لها ضريبة العشر الســـنوية

مقابل زراعتهم لها، وكان الانتفاع بهذه الأراضي مقروناً بشروط يجب على المزارعين التقيد بها فلا يجوز لهم تحويلها إلى ملك خاص أو زراعتها بالأشجار المثمرة وزراعتها بالحبوب فقط، ولذلك كانت تسمى أراضي مفتلح، كما لا يجوز للمزارع المنتفع بهذه الأرض بيعها أو نقل حق الانتفاع بها إلى شخص أخر فهو يملك حق زراعتها فقط.

واعتبرت الدولة العثمانية الأراضي الميرية التي ترك المزارعون فلاحتها أراضي محلولة أو معطلة يحق لها التصرف بها ونقل حق الانتفاع بها إلى أي جهة تريد[1].

أراضي الجفتلك:

وهي الأراضي العائدة ملكيتها للسلطان عبد الحميد الثاني والتي انتشرت بشكل واسع في منطقة الأغوار ولا سيما في بيسان وطبريا إلى جانب بعض القرى القليلة الأخرى. وقد عرفت هذه الأراضي باسم الأراضي المدورة بعد انقلاب عام ١٩٠٨م، وانتقلت ملكيتها للدولة[2].

أراضي الملك الخاص:

وهي الأراضي التي يُعطى صاحبها حق تملكها بالكامل وباستطاعته استعمالها في أي وجه يريد وكان حق التملك مقصوراً على أراضي السكن

---

(١) الدستور، ج١ ص١٥-٣٥. Samuel Bergheim,Land Tenure in Palestine, PEE, 1894. الدر، شفا عمرو، ص١٦٣.

(٢) جريدة ولاية سورية، العدد ٩٣٢، ٢١ رمضان ١٣٠٣هـ/ ٢٢ أيار ١٨٨٥ Stein, Land Question, P.14,15. ؛ المقتبس، العدد ٥٠٢، ١٥ شوال ١٣٢٨هـ، ١٩ تشرين الأول/ اكتوبر ١٩١٠م ص١

والحدائق والبساتين والكروم في المدن والقرى والمناطق المحيطة بهما ويمكن بيع أراضي الملك الخاص وتحويلها إلى اراضي وقف(١).

أراضي الأوقاف:

تنوعت أراضي الأوقاف تبعاً لتنوع أغراضها وأولها الأوقاف الخيرية التي تخصص للإنفاق على الأماكن الدينية والأوقاف الذرية التي تخصص للإنفاق على عائلة معينة أو على أفراد معينيين منها يحددهم صاحب الوقف بينما تجمع أوقاف أخرى بين الأوقاف الخيرية والعائلية(٢).

ومن الأوقاف العائلية في لواء عكا وقف الشيخ عبد الرحمن السهلي التميمي في قرية بلد الشيخ القريبة من حيفا والتي كانت تشمل كروم وبساتين وأراضي معدة للفلاحة وأخرى للرعي والاحتطاب(٣)، ووقف فاطمة بنت أحمد زوجة علي بن جركس في قيسارية التي خصصته للإنفاق على عائلتها وفي حالة انقطاع ذرية العائلة يوزع الوقف على فقراء المسلمين والجامع الشريف في قيسارية(٤)

اصدرت الدولة العثمانية عام ١٨٥٨م قانون الأراضي الذي نص على تملك الأراضي الميري وتسجيلها باسماء القائمين بزراعتها، وكان تمليك هذه الأراضي مشروطاً بأن يثبت المزارعون انهم يفلحون الأرض التي يمتلكونها من

---

(١) زهير غنايم، لواء عكا، ص٣١٣-٣١٨. Bergheim, Land Tenure, PEF, 1894, P.99.

(٢) الدستور، ج١، ص١٥-١٦؛ زهير غنايم، لواء عكا، ص٣١٨-٣٢٥.

(٣) سجلات المحكمة الشرعية في حيفا، شريط ١٤١، سجل ٢،ص٢٠٩-٢١٠، نمره، ٥٨، ٢ ربيع الثاني ١٣٠٨هـ/١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٩٠م.

(٤) سجلات المحكمة الشرعية في حيفا، شريط ١٤١، س٥، ص٢٣٥-٢٤٠، نمره٧٥، ٨جمادي الاولى ١٣٢١هـ/٨أب/اغسطس ١٩٠٣م.

مدة لا تقل عن عشر سنوات ويدفعون الضرائب المقررة عليها للدولة خلال هذه الفترة اضافة إلى دفع رسوم تسجيل الأراضي.(١)

وأدى قانون الأراضي إلى ظهور فئة كبار الملاك لأن الفلاحين الذين كانوا يعانون من اوضاع اقتصادية سيئة بسبب ثقل الضرائب المفروضة عليهم قد اضطروا إلى بيع اراضيهم إلى اثرياء المدن من التجار والعائلات المتنفذة واستطاع هؤلاء الملاك شراء مساحات واسعة من الأراضي في لواء عكا، فمثلاً أصبح مرج التركمان الذي يشكل القسم الغربي الشمالي من مرج بن عامر موزعاً بين عدد من تجار عكا وحيفا(٢).

كما سمح القانون للأجانب التملك في الدولة العثمانية فاستطاع عدد من الأجانب بشكل فردي أو جماعي تملك مساحات واسعة من الأراضي في لوائي نابلس وعكا، فقد اشترى الالمان الأراضي في حيفا وانشئوا عليها المستعمرة الالمانية كما اشتروا مساحات واسعة من الأراضي في قرية الطيرة القريبة من حيفا(٣).

واشترى اليهود الأراضي في لوائي نابلس وعكا وانشئوا عليها المستعمرات اليهودية ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية منعت اليهود من التملك وشراء الأراضي في فلسطين على اساس انهم يهود ولكنهم اشتروا الاراضي على اساس تبعيتهم للدول الأوروبية والدولة العثمانية نفسها(٤).

---

(١) الدستور ج١ص١٤-٨٠؛ الدر، شفا عمرو، ص١٦٣، زهير غنايم، لواء عكا ص ٣٢٥-٣٣٥.

(٢) دفتر اراضي عشيرة التركمان، سجل ٢٦، ص١-٤٤.

(٣) سجلات المحكمة الشرعية في حيفا، شريط١٤١، سجل٦، ص١٣٨، نمره١٨٦، ١٤ ذي الحجة ١٣٢٣هـ/٨شباط/ فبراير ١٩٠٦م.

(٤) كرد علي، خطط الشام، ج٤، ص١٢٩-١٣٠؛ المقتبس، العدد ٧٠٩، ٢٤ جمادي الثاني ١٣٢٩هـ/ ٢١حزيران/ يونيو ١٩١١م/ ص١.

وقد ظهر تأثير قانون الأراضي في أن عدداً من كبار الملاك استطاع امتلاك قرى باكملها فمثلاً امتلك سليم الخوري من تجار حيفا معظم أراضي قرية بريكة وامتلك عبد اللطيف الصلاح من حيفا جميع أراضي قرية جعاره[١]، بينما امتلك سرسق وتويني وفرح من تجار بيروت أراضي عشرين قرية في مرج بن عامر[٢].

ب- الزراعة:

كانت الحبوب كالقمح والشعير والعدس والفول والحمص والكرسنة والسمسم والذرة هي المحاصيل الرئيسية التي تزرع في المنطقة، كما انتشرت زراعة الخضروات والأشجار المثمرة ولا سيما الزيتون الذي انتشرت زراعته بشكل واسع، والفواكه ولا سيما الحمضيات والكروم والخروب والمشمش واللوز والتين والخوخ والاجاص والتوت والدراق والصبر، وانتشرت زراعة الفواكه في الحواكير والكروم والبساتين في القرى والمدن وحواليها، وتتميز زراعة الزيتون بأن شجرة الزيتون الواحدة قد تكون موزعة بين عدد من الملاك كما ان اشجار الزيتون قد تكون ملكاً لشخص والأرض التي عليها لشخص آخر[٣].

لم تكن الزراعة في اللواء احادية المحصول مقصورة على زراعة محصول معين بل زرع الفلاحون محاصيل متنوعة في وقت واحد، كما امتازت الزراعة بالقدرة على التأقلم والتكيف مع الظروف المستجدة وظروف الأسواق الخارجية والمحلية فانخفاض الطلب على محصول معين يدفع المزارعين إلى

---

[١] سجلات المحكمة الشرعية في حيفا، شريط ١٤١، سجل ٢، نمره٣٤٠، ص١٤٦-١٤٨، ١٧صفر ١٣٠٧هـ/ ١٣ تشرين الأول /اكتوبر١٨٨٩م.

[٢] الاتحاد العثماني،العدد ١٣٩، ١٧صفر ١٣٢٧هـ/ ٩أذار ١٩٠٩م، ص٢؛ منصور، الناصرة، ص٩٨-٩٩، Granott, Land System, P.80,81.

[٣] زهير غنايم، لواء عكا، ص٧٥-٣٧٩.

التحول إلى زراعة محصول أخر، فعندما قل الطلب الأوروبي على القطن تحول السكان إلى زراعة السمسم الذي ازداد الطلب عليه، كما جمع المزارعون بين العمل بالزراعة وتربية الحيوانات للإستفادة من منتوجاتها المختلفة ولإستخدامها في الزراعة والنقل.

وقد مارست الدولة تأثيراً محدوداً على الزراعة اقتصر على اجبار الفلاحين على زراعة الأراضي الميرية بالحبوب وخاصة قبل التنظيمات، ولم تقم باية جهود لتحسين الزراعة وزيادة الانتاج سواء استصلاح الأراضي وزيادة صلاحيتها للزراعة بحفر القنوات وانشاء شبكات الري وتركت ذلك للفلاحين انفسهم الذين قل اهتمامهم بذلك لأن نظام الأراضي المشاعية حد من اهتمامهم بالعناية بالأرض.

لقد اقتصر العمل بالزراعة حتى منتصف القرن التاسع عشر على المزارعين من سكان القرى والمدن ولكن صدور قانون تمليك الأراضي الميري أدى إلى ظهور فئة من الملاك الذين اتجهوا إلى امتلاك الأراضي والاستثمار في الزراعة، ولكن الملاك الجدد لم يمارسوا الزراعة بانفسهم بل تركوا للفلاحين زراعتها مقابل حصص معينة.

وقد شجع أثرياء المدن على امتلاك الأراضي والاستثمار في الزراعة انخفاض اسعار الأراضي وزيادة الجدوى الاقتصادية من الاستثمار بالزراعة لارتفاع اسعار المحاصيل الزراعية وزيادة الطلب الخارجي عليها من الدول الأوروبية[1].

بل ان هؤلاء الاثرياء تطلعوا لاستصلاح الأراضي الجديدة، ففي عام ١٩١١م قدم اثنان من أهالي حيفا طلباً لتجفيف أراضي المستنقعات في زور

---

[1] زهير غنايم، لواء عكا، ص٣٨٤-٣٩٠.

الزرقا، وفي نفس العام التزم جورج عيد المالي والاقتصادي البيروتي قرى جدور وكفرتا والمجدل من سرسق وبسترس لمدة تسع سنوات[١].

تأثرت الزراعة بمجموعة من العوامل أهمها الظروف المناخية ولا سيما سقوط الأمطار واختلافها من سنة إلى اخرى ومن بداية الموسم إلى نهايته وارتفاع درجة الحرارة وانخفاضها وارتفاع الأسعار وانخفاضها[٢]، وارتفاع الضرائب على الزراعة واهمها العشر والذي كان يزيد عن المقرر تبعاً لتقديرات المخمنيين والزيادة التي كان يفرضها الملتزمون عند جمعهم العشر وهذا ادى إلى سوء أوضاع المزارعين ودفعهم للاستدانة وبالتالي بيع أراضيهم لكبار الاثرياء لسداد ديونهم[٣].

انتشرت الصناعة في منطقتي نابلس وعكا وكانت في معظمها معتمدة على الانتاج الزراعي وأهمها معاصر الزيتون التي انتشرت في معظم القرى والمدن ومطاحن الحبوب، وصناعة المنسوجات والحصر والسلال ومواد البناء والفخار والمواد النحاسية والصابون التي اشتهرت به مدينة نابلس، إلى جانب الصناعات اليدوية مثل الحدادة والصياغة والسمكرة والخياطة والصباغة والدباغة[٤].

---

[١] فلسطين، العدد ٦٤، ٦رمضان ١٣٢٩هـ/٣٠آب/اغسطس ١٩١١م، ص٢، فلسطين، العدد ٦٥، ٩ رمضان ١٣٢٩هـ /٢أيلول /سبتمبر ١٩١١م، ص ٣.

[٢] البشير، العدد ٩٤٥، ١٧ربيع الأول ١٣٠٦هـ/٢١تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٨٨م/ص٣، العدد ١٦٤٢، ١٢ محرم ١٣٢٢هـ/٢٦ آذار/ مارس ١٩٠٤م ص٣.

[٣] منصور، الناصرة، ص٩٨-٩٩.

[٤] سجلات المحكمة الشرعية في حيفا، شريط ١٤١، سجل ٩، نمره ٦٩٦، ٧جمادي الاول ١٣٣٢، ٢نيسان/ابريل ١٩١٤م.

وقد تأثرت الصناعة المحلية سلباً بالغزو التجاري والصناعي الذي تعرضت له المنطقة من قبل الصناعة الأوروبية المتطورة والمنخفضة التكلفة والاسعار مما أدى إلى اختفاء العديد من الصناعات اليدوية المحلية، ولكن التأثير الأوروبي ساهم من ناحية اخرى في تحسن بعض الصناعات التي اخذت بالاعتماد على الآلات والمعدات الحديثة والمتطورة المستوردة من الدول الأوروبية ولا سيما مطاحن الحبوب ومعاصر الزيتون(١).

الموارد المالية:

تنوعت الضرائب والرسوم التي فرضتها الدولة على السكان واهمها العشر والويركو.

العشر:

فرضت الدولة على المزارعين دفع ضريبة العشر على الانتاج الزراعي، ولكن هذه النسبة كانت تزيد عن ذلك بكثير، حيث كانت قيمة العشر تحدد بعد تقدير قيمة المحصول قبل الحصاد، كما كان العشر يجبى من المزارعين عن طريق الالتزام وغالباً ما كان المخمنون يبالغون في تقدير قيمة المحصول فترتفع نسبة العشر بسبب ذلك، كما كان الملتزمون يجبون أكثر من النسبة المقررة.

ولذلك ساهمت ضريبة العشر في الحد من انتشار الزراعة وساهمت بتدهور حالة الفلاحين الاقتصادية وجعلت عملية الزراعة غير مجدية اقتصادياً فغالباً ما كان المزارعون يدفعون معظم انتاجهم للدولة وللملتزمين ولا يبقى لديهم إلاّ القليل مما يدفعهم للاستدانة من المرابين وبالتالي لرهن أراضيهم

---

(١) روحي، المختصر، ص٤٦؛ Hand book, P.547 ، شولش، تحولات، ص١٤٤، منصور، الناصرة، ص٢٨٥-٢٨٦. Schumacher, Nazareth, ZDPV, 1890,P.243-245.

لأثرياء المدن، وغالباً ما كان هؤلاء المزارعون يعجزون عن سداد ديونهم فيضطرون للتنازل عن أراضيهم لهؤلاء الأثرياء[1].

وقد بلغت واردات الدولة من العشر في لواء عكا عام ١٨٨٩م حوالي ٣,٢٣٩,٦٣٧ قرش موزعة على أقضية اللواء الخمسة على النحو التالي[2]:

قضاء عكا	١٠٠٢,٧١٢
قضاء حيفا	٧٤٩,٤٠٤
قضاء الناصرة	٦٤٨,٦٠٨
قضاء صفد	٥٠٣,٨٥٨
قضاء طبريا	٣٣٥,٦٣٧
المجموع	٣,٢٣٩,٦٣٧

الويركو:

فرضت الدولة العثمانية هذه الضريبة بموجب خط شريف كولخانة الذي صدر في عام ١٨٣٩م بحيث تعين على كل فرد أن يدفع ويركو مناسب، وقد قسمت هذه الضريبة إلى نوعين ويركو الأملاك من أراضٍ ودور ودكاكين، وويركو التمتع الذي فرضته الدولة على التجار بنسبة ٣٠ في الألف من الريع السنوي ثم رفعت إلى أربعين في الألف وتشمل هذه الضريبة ضريبة الويركو

(1) منصور، الناصرة، ص٢٨٥، زهير غنايم، لواء عكا، ص ٤١١-٤١٧.

(2) البشير، العدد ١٠٠٦، ٤ شعبان ١٣٠٧هـ/٢٦ آذار / مارس ١٨٨٩م، ص٣؛ زهير غنايم، لواء عكا، ص ٤٩٢.

المقطوعة الذي فرضته الدولة على كل من لم يتخذ محلاً لمهنتـــه كالمتعـــهدين والأطباء والمهندسين[١].

وقد بلغت واردات الدولة من ضريبة ويركو الأملاك في لواء عكا عـــام ١٨٨٥م حوالي ١,٦٩٢,٣٩٨ قرش وارتفع هذا المبلغ إلى ١,٨٤١,٣٣٤ قـــرش عام ١٨٣٩م، بينما بلغ مقدار ضريبة التمتع المجموعة من لـــواء عكـــا عـــام ١٨٨٥م حوالي ٨٩,٣٩٩ قرش، وارتفع هذا المبلغ إلى ١٢٨,٢٠٤ قرش عـــام ١٨٩٣م[٢].

كذلك فرضت الدولة الضرائب على الحيوانات حسب أنواعها، فاستوفت أربعة قروش عن كل رأس من الغنم والماعز وأربعة قروش عـــن الجـــاموس وعشرة قروش عن الأبل، وكانت تزيد هذه الرسوم من فترة إلى أخرى، ففـــي عام ١٩٠٨م أضافت إليها ٢٥ باره باسم التجهيزات العســـكرية، وفـــي عـــام ١٩١٢م أضافت إليها عشرة بارات باسم الأسطول[٣]. كذلك فرضت الدولة على السكان الذكور العمل دون أجر لعدة أيام في السنة ولا سيما في شق الطرق، كما فرضت البدل العسكري على الذين لا يؤدون الخدمة العسكرية، كما احتكـــرت

---

[١] الدستور، ج٢، ص١٩-٣١؛ كرد على، خطط الشام، ج٥، ص٩٧-٩٨؛ الاتحاد العثماني، العدد ٣٨١، ٦ ذي الحجة ١٣٢٧هـ/ ١٨ كانون الاول/ديسمبر ١٩٠٩م، ص١.

[٢] سالنامة ولاية سورية لعام ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م، ص٢٠٠، سالنامة ولايـــة بـــيروت لعـــام ١٣١٠هـ/١٨٩٣م، ص٤٧٤-٤٧٤.

[٣] صلاح، فلسطين، ص٤٨؛ كرد علي، خطط، ج٥،ص٨١، العارف، المفصـــل، ص٣٣١؛ جريدة ولاية سوريا، العدد ١٩٠٤، ٢٦ ربيع الثاني ١٣٠٤هـ/ ٢٣ كانون الثاني/ ينـــاير ١٨٨٦م، ص١.

بعض الثروات ومنعت الناس من استغلالها إلاّ بعد دفع الرسوم والضرائب المقررة[١].

وقد استخدم السكان في معاملاتهم المالية وحدات نقدية مختلفة منها الليرة العثمانية ووحداتها كالريال المجيدي والقرش وكذلك الليرتين الفرنسية والانجليزية، وكانت أسعار هذه العملات تختلف من مدينة إلى أخرى ومن فترة إلى أخرى تبعاً للأوضاع الاقتصادية في الدولة، كما كانت العملة العثمانية على نوعين العملة الصحيحة والعملة المغشوشة (الشرك) ولكل منهما سعر مختلف[٢].

التعليم:

اقتصر التعليم في الدولة العثمانية حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر على التعليم الديني في المساجد والكتاتيب بهدف اعداد الأئمة والوعاظ في المساجد، ولم تتدخل الدولة بالتعليم سواء بإنشاء المدارس أو في وضع المواد الدراسية.

ولكن في اعقاب التنظيمات العثمانية ومنذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر تغيرت نظرة الدولة للتعليم فأصدرت عام ١٨٩٦م نظام المدارس العمومية أو الرسمية والمدارس الخاصة وتولت الدولة إدارة المدارس الرسمية

---

(١) البشير، العدد ١٥٣٨، ٢٠ محرم ١٣١٩هـ/ ٢٨ نيسان/ ابريل ١٩٠٢م، ص٢؛ الدستور، ج٢، ص٢٦١-٢٩٧؛ دروزه، الحركة العربية، ص٢٠٥.

(٢) الأنسي، دليل بيروت، ص٦٦، دروزه، الحركة العربية، ص٦٦، منصور، الناصرة، ص٢٨٣-٢٨٤؛ العارف، المفصل، ص٣٣٩-٣٤٠.

وتركت أمر تأسيس المدارس الخاصة وإدارتها إلى الأفراد والجمعيات الطائفية[1].

وبموجب هذه التعليمات الجديدة اهتمت الدولة بانشاء المدارس، فمثلاً أشارت سالنامة بيروت إلى وجود ٨٥ مدرسة في مدن وقرى لواء عكا، إلى جانب عدد آخر من المدارس الخاصة التابعة للطوائف الدينية سواء المسيحية أو اليهودية[2].

وقد ساهمت المدارس ولا سيما المدارس الخاصة والطائفية بدور فعال في الحركة الفكرية والثقافية في فلسطين عامة حيث ساهمت في تخريج عدد من المتعلمين منهم المدرسين والصحفيين والمترجمين والأدباء والشعراء مثل نجيب نصار صاحب جريدة الكرمل التي صدرت في حيفا عام ١٩٠٨م، وخليل بيدس الذي تخرج من مدرسة المعلمين الروسية في الناصرة والذي أهتم بالترجمة عن الروسية وأصدر مجلة النفائس العصرية، وكذلك سليم قبعين الذي ترجم عدداً من المؤلفات عن الروسية[3].

---

(1) الدستور، ج٢، ص١٥٩-١٦٤؛ منصور، الناصرة، ص١٩٣، المقتبس، العدد ٤٤٢، ٣ شعبان ١٣٢٨هـ/ ٩آب/ أغسطس ١٩١٠م، ص٣.

(2) سالنامة ولاية بيروت لعام ١٣١٠هـ/١٨٩٣م، ص٢٤٧-٢٤٨.

(3) طرزي، الصحافة العربية، ج٣، ص٧١-٧٢؛ يوسف الخوري، الصحافة العربية، ص٩؛ عادل مناع، أعلام فلسطين، ص٣٢١-٣٢٢ و ص٣٦٢؛ زهير غنايم، لواء عكا، ص٣٠٠-٣٠٥.

التدقيقات والتتبعات المحلية

-١-

نحو سلْفيت(١)

حينما كنا نبارح(٢) نابلس كانت بارقة غريبة من التردد تبدو لنا أيضاً حتى في نظرنا. فكنا نرى أن تقييد أزمنة التدقيق والتتبع بخطّة معينة للسفر والسياحة تارة يكون ممكناً وتارة يكون مستحيلاً وهو ما يدعو إلى الإفتكار والإمعان. وفي أول خطوة من السياحة أضاعت علينا صعوبة تدارك الوسائط النقلية يومين ثمينين من زماننا. وفي الوقت ذاته دعتنا لعمل صعب جداً وهو تسطير كلمة اضطرار في أول سطر من الجدول الذي بدأنا بوضعه. فتركت لنا هذه الحقيقة أثراً ممقوتاً في أدمغتنا المفتونة بالانتظام وبالقطع بالأمور. ولقد كنا نشعر من أنفسنا بصورة واضحة أننا في وادٍ عميقٍ من المجاهلِ.

لم يكن لمنطقتنا مصور(٣) أو بيان. ولم يكن في أيدينا دليل ثمين فكانت سياحتنا على الوجه الذي يراد أمراً عسراً.

لم نكن نتعرف على الطرق والقرى والقصبات إلاّ من الأهلين فتترآى لنا المعلومات التي نأخذها متناقضة وغير تامة وكانت طريق نابلس – سَلْفِيت مثلاً تظهر لنا صعبة المرور أحياناً وسهلة الاقتحام طوراً وكانت تتراوح طولاً وقصراً من أربع ساعات أو خمسة إلى ست ساعات أو سبعة. فما هي المسافة

---

(١) سلْفيت: قرية تقع في الجنوب الشرقي من نابلس على بعد ٢٦ كم منها وكانت في أواخر العهد العثماني ناحية تابعة لنابلس ثم أضحت مركزاً لقضاء جماعين. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٥٠٥ – ٥٠٦.

(٢) نغادر.

(٣) بمعنى خارطة.

الحقيقية لهذه الطريق؟ بل كيف ممرنا ومن أين؟ وما هو موقع المحل الذي نذهب إليه؟ وكيف يكون؟

أسئلة كانت تتوارد على ذهننا فكنا نسير مستسلمين للطالع والحظ، مررنا أمام الثكنة القائمة في الشرق الجنوبي من نابلس. فكانت خيولنا تسير على طريق عرفته هي نفسها ونحن مستسلمون لها الاستسلام المعتاد. أما أنظارنا فكانت متجهة نحو دليلنا. ولقد كانت هذه السلسلة من الاستطلاعات يتمزع[1] شملها وتنتهي بالأجوبة المتقطعة والناقصة التي ترد على أسماعنا من أفواه الذين رأوا هذه المحال مراراً عديدة.

كان ممرنا طريقاً معبدة منتظمة فلم نكن منزعجين من هذه الجهة. ولكن أشعة الشمس التي اشتدت دفعة واحدة بعد ساعات من الظهر أحدثت واحات حامية في الأراضي والطرق. وكانت سهامها منعكسة على سائر الأنحاء تأخذ شكلاً لا يطاق. واصلنا السير على طريقنا وكان جبل غاريزيم[2] يسمو بعلوه على الجهة اليمنى من الطريق، وقصبتا بَلاَطه[3] وعَسْكَر،[4] تستلفتان نظرنا عن

---

[1] تتفرق وتبتعد عن بعضها البعض.

[2] جبل غاريزيم: (جِرْزِيم): جبل جنوب نابلس. ويقول السامريون بأن جرزيم كلمة عبرانية معناها الفرائض أي جبل الفرائض الذي يقيمون فرائضهم عليه. ولعل اسمه يعود إلى الجَرَزِيّين القبيلة العربية الكنعانية التي نزلت أواسط فلسطين. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص: ٢٣ – ٢٤؛ معجم بلدان فلسطين، ص: ٢٥٣؛ موسوعة فلسطين الجغرافية، ص٨٠.

[3] بَلاَطه: قرية تقع شرقي نابلس وعلى مسيرة نحو ميل منها. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٢٧٥ – ٢٧٧؛ معجم بلدان فلسطين، ص ١٦٦؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٧٥.

[4] عَسْكَرْ: قرية تقع إلى الشرق من نابلس وعلى مسافة ٣ كم منها. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٢٨٢؛ معجم بلدان فلسطين، ص ٥٣٤؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٨٥.

بعد بأبنيتهما البيضاء الضاحكة تارة وبآجرهما الأحمر طوراً. كما أن موقع بير يعقوب[1] قد استجلب نظرنا عن قرب.

وبعد خمس عشر دقيقة لم يبق من حائل[2] أمامنا فأخذت الطريق المعبدة تمتد بين أراضٍ وسيعة قد زرع بعضها بالذرة البيضاء والصفراء والسمسم وأهمل القسم الآخر منها.

وبعد ساعة ونصف أو أكثر عدنا إلى الطريق السابق.ولم يكن من حوائل سوى تلال صغيرة متفرقة أمامنا وعن يميننا وشمالنا وهي سلسلة جبال جَمّاعِين[3]. ثم تركنا الطريق المؤدية إلى القدس الشريف واتجهنا نحو الجنوب الغربي من أمام قرية حواره[4].

---

(1) بير يعقوب: بئر ذات ماء عذبة يقع في الجنوب الشرقي من نابلس عند سفح جبل جرزيم – الطور – على تخم سهل بورين وعلى اليسار الطريق السالك إلى بيت المقدس. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٢٧٩.

(2) العقبات والحواجز (موانع).

(3) جَمّاعِين: قرية تقع في الجنوب الغربي من نابلس على بعد ١٦ كم. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص٤٦٥؛ معجم بلدان فلسطين، ص٢٦٨؛ معجم البلدان الأردنية والفلسطينية، ص٦٦؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٧٨.

(4) حُوّارَه: قرية تقع على بعد ٩كم جنوبي نابلس. وحواره كلمة سريانية تعني البياض وهي تسمية تصدق على تراب المكان الذي تقوم عليه القرية. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٣٥٧ – ٣٥٨؛ معجم بلدان فلسطين، ص ٣٠٣؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٧٩.

أخذنا من هنا بالصعود في طريق ضيقة وواقفة[١]. وبدأنا نتسلق جبال جماعين فكان ممرنا في شعاب ومزارع زيتون. وكنا ننحط[٢] تارة إلى وديان صغيرة ومنخفضات جزئية.

انقضت علينا ساعتان ونحن على هذه الصورة غير أن الخطر كان يزداد حين مرورنا في الوديان ولكننا بقينا محافظين على الحيطة ولم نهتم بالتأخر. وحينما أخذت الشمس بالغروب توقفنا مدة بالقرب من قصبة ياسوف[٣] المرتفعة والمخبأة بين المزارع الخضراء. فكانت عجائز القرية متجمعات حول منبع ياسوف القائم على الطريق وعلى رؤوسهن جرار الماء يستقين. وكان أحياناً أحد الرعاة الصغار يسوق بقراته إلى الماء فيفسح له المجتمعون طريقاً. مررنا من أمام الأحجار المتراكمة فوق بعضها. وحينما كنا نرى صغار القرويين يرمقوننا شذراً بنظراتهم الوحشية كنا نتنفس الصعداء باسم كافة الموجودات الكونية التي لم يمكنها أن تظهر وتتجلى تماماً. وكان الظلام يرخي سدوله فيمحو من آماقنا[٤] ما يحيط بنا. ثم أصبح بعد هذا ضوء القمر الضئيل دليلاً لنا فأضاء طريقنا فقط. أما المحلات البعيدة فكانت مخفية عنا تتبدل من أشجار متراكمة إلى بقعات مظلمة.

وبعد ساعتين سمعنا صوت الدليل مشيراً بأصابعه إلى محل أمامنا وهو يقول قد وصلنا إلى سلْفيت فاتجهت أنظارنا للاستضاءة بنور القصبة[٥] فلم نجد

---

[١] مرتفعة.

[٢] نهبط.

[٣] ياسوف: قرية تقع في الجهة الجنوبية من نابلس وعلى مسافة ١٦ كم منها. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٥١١؛ معجم بلدان فلسطين، ص ٧٢٥؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص ٩١.

[٤] عيوننا

[٥] المركز.

لها أثراً. وبعد قليل أراد دليلنا أن يسرع إلى داخلـــها فيســتدعي المختـــارين[١] والاختيارية وإشراف البلدة تبعاً للعادة المتبعة منذ سنين فمنعناه عن ذلك وقصدنا دار الحكومة بلا ضوضاء ففتح لنا محافظان من الجاندرمـــه[٢] بمفتـــاح كـــبير الـــبـــاب العـــظيم لـــدار الحـــكـــومة الـــتي لـــم تـــر وجه مأمور[٣] منذ زمن مديد. فدخلنا غرفة خالية وحاولنا أن نستسلم فيها لنوم متعب تحت شعاع مخنق.

---

[١] المختار: الشخص الذي يمثل سلطة الدولة في القرى. ويتم اختيار المخاتير بالانتخابات من كل قروي تجاوز الثامنة عشر من العمر ودفع ضريبة للدولة لا تقل عن خمسين قرشـــاً. وكانت مهمة المخاتير تبليغ القوانين والأنظمة والأوامر الحكومية لأهـــل القـــرى وجمـــع الأموال المفروضة عليهم. الدستور، ج١، ص ٣٩٢ – ٤٠٩؛ زهير غنايم، لواء عكا، ص ٧٣.

[٢] الجاندرمه: قوات الدرك التي تتولى الإشراف على حفـــظ الأمـــن ومطـــاردة الأشـــقياء واللصوص ومنع التهريب عن الحدود. وكانت هذه القوة تشكل عادة من خيالـــة ومشـــاة ومهمتها تبليغ أوامر الحكومة وتنفيذ قرارات المحاكم الجزائية والحكومية والمساعدة فـــي جمع الضرائب. دروزه، الحركة العربية، ص١٥٩؛ عوض، الإدارة، ص ١٥٩؛ زهـــير غنايم، لواء عكا، ص ٥٩.

[٣] المأمور: هو الشخص المكلف من قبل الدولة بتنفيذ مهمة في منطقة معينة.

-٢-

سَلْفِيت

١- منظر سَلْفِيت وحالتها الخارجية

تقوم سَلْفِيت بشكل قرية كبيرة ذات أبنية باسمه وسط أشجار الزيتون في الطرف الممتد نحو الغرب من جبل سَلْفِيت الممتد من الشمال الشرقي إلى الجنوبي الغربي.وتمكن الاحاطة بالقصبة بنظرة واحدة اذ لا يمتد طول واديها الممتد من الشمال إلى الجنوب أكثر من مئات من الأقدام. ولا يزيد امتداد الأبنية حتى ذروة الجبل على هذا القدر فإذا صعد المتطلع إلى الجهات العالية من القصبة تترآى له مناظر البيوت السمراء المستولية عليها طبقة من النبات كأنها كتلة أحجار قد سترت بالتراب والأحجار الصغيرة. ويحيط بالبيوت جدران خربة وغير منتظمة قد بنيت من الأحجار القذرة وهي تعلو قامة الإنسان. ويستدل أحياناً على وجود بناء داخل الجدران بظهور شجرٍ باسقة من داخل الدار. ويمكن تقدير أبنية هذه القصبة التي يقطنها ألفان وخمسمائة شخص من خمسمائة إلى ستمائة. وتتعرج الأزقة الضيقة على طول أبنية القصبة المتفرقة وهي عبارة عن ركام من الأحجار الصغيرة. ومن المحال أن يعثر على فكرة حية في هذه القصبة. فلا يوجد في القصبة سوى فقدان الانتظام والاهمال وعدم الاعتناء بطرز[١] البناء الذي استولى عليها منذ سنين. ورغماً عن حرمان هذه القصبة من يد الصناعة النفيسة فإن يد الطبيعة منحتها محاسن جميلة في مناظرها. فترتفع سَلْفِيت عن سطح البحر ٦٧٠ متراً وهي مطلة من الغرب على

---

[١] أساليب وفنون.

قريتي حارس[١] وكفر حارس[٢] ومن الشمال على قريتي زيتا[٣] وجماعين ومن الجنوب على سلسلة جبال.ولقد غرست سائر أنحائها بشجر الزيتون. منحتها المزارع والجنائن الملاصقة لها بهاء آخر.

٢- داخل سَلْفِيت

١- أبنية القصبة ولوازمها البيتية:

ليس لأبنية القصبة طرز بناء خاص ولكن الدور تشبه بعضها حسب ما هو مألوف ومرآى. والغالب أن الدار تكون ذات غرفتين وإذا زادت على ذلك تكون ذات أربع أو خمس غرف. وهي ذات طابق واحدة قائم حول حوض مبني من التراب أما سطح الحوض فمكشوف. ومن المتعسر أن يوجد في الدار مطبخ أو غيره من المنتفعات. ويطبخون طعامهم أمام غرفهم أو في باحة الدار التي يجمعون فيها أكداس الحطب.

وهناك يغسلون ثيابهم ويربطون حيواناتهم. ويغلب أن يكون هواء الغرف عفناً لقلة النوافذ فيها. أما موجودات الغرف فهي عبارة عن حصير رفيعة مبسوطة وفرش متراكمة فوق سرير. وصندوق أو صندوقين مبعثرين في

---

(١) حارس: قرية صغيرة تبعد عن نابلس ٢٤كم.الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ٢، ق٢، ص ٥٣٤؛ معجم بلدان فلسطين، ص٢٨٧؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٧٨.

(٢) كفر حارس: (كفل حارس): قرية تقع في الجنوب الغربي من نابلس على بعد ٢٣ كم منها. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٥٢٩؛ معجم بلدان فلسطين، ص ٦٣٢؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص ٨٩.

(٣) زيتا: قرية تقع في الجنوب الغربي من نابلس على بعد ١٨ كم منها ولا يفصلها عن جماعين سوى كيلو متر واحد وهي غير زيتا الواقعة في قضاء طولكرم. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٢، ق٢، ص ٥٢٣؛ معجم بلدان فلسطين، ص ٤٣٦؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص ٨٢.

أطراف الغرفة ومرآة صغيرة. ولقد كانوا يعلقون قديماً في جدار الغرفة ضـــوأ من الكاز ينير أكنافها[1]. وأما موجودات المطبخ فمحدودة وقليلة جداً وهي عبارة عن عدة صحون من الفخار. وقدرة وجرة ويسمونها عسلية وجرن ويســتعملون المصنوعات الترابية البيضاء التي تخرج من محل يدعى محفره[2] فـــي موقـــع كفرلد ويرجحونها[3] على الأواني النحاسية لرخصها. وإذا أضفت إلى موجودات الدور هناك المخضات[4] التي يستخرجون بها السمنة من الحليب ويسمونها سقا. وعدة أقداح كاسات وسرير وأرجوحة للأولاد ومطحنة يد من الحجر – تلم حينئذ بكافة موجودات الدور في سَلْفِيت.

هذه هي موجودات الدور في قصبة سَلْفِيت جميعها.ما عدا دور عدة أسر معروفة فيها فان الدور التي بنتها هي ذات طابقين ونوافذها كثيرة وقد ســـقفت بالأجرة "القرميد". ومما يلفت النظر اكثر من هذه البيوت في سَلْفِيت أبنيـــه "دار الحكومة" و"المكتب الابتدائي" و"الجامع الشريف".

أُهملت هذه الأبنية الثلاثة تماماً. وقد بقى بناء دار الحكومة مـــن أيـــام كانت سَلْفِيت مركزاً للقائمقامية[5]. كانت دار الحكومة بناءً جميلاً مستطيل الشكل

---

[1] أنحائها.

[2] المحفرة: مكان يستخرج منه التراب الذي يمثل المادة الرئيسية لصناعة الأدوات الفخارية.

[3] يفضلونها.

[4] المخضات: وهي عبارة عن جلد أحد الحيوانات الذي يصنع بطريقة خاصة ويوضع فيـــه اللبن والرايب والمخيض.

[5] القائمقامية: وهي مديرية القضاء ويرأسها القائمقام وهو قمة الهرم الإداري فـــي القضـــاء ويتولى الإشراف على الأمور الإدارية. ويرأس مجلس إدارة القضاء وهيئة التحصيلات وهيئة وسائط النقل العسكرية وكانت كلمة القائمقام تطلق على حاكم اللواء (الشخص) الإداري قبـــل صدور قانون الولايات العثماني عام ١٨٦٤م بينما كان حاكم القضاء الإداري يعرف بمديـــر القضاء. عوض، الإدارة العثمانية، ص٩٣؛ عليان، قضاء عجلون، ص١٥٨.

مفروشاً بالبلاط ذات خمس عشرة غرفة تقوم حول باحة لطيفة. أما اليوم فقد أصبحت بشكل غريب جداً نبتت في باحتها أشجار التين وامتلأت بالأحجار والتراب. تكسر زجاج نوافذها.ونسج العنكبوت شباكه في غرفها القذرة.حتى أنهم ربطوا في غرفة منها الخيول.واتخذت غرفتان منها محلاً لمنام الجاندرمه وأضحت عشر غرف أخرى منها محطباً مملوءاً بالخوانات المتكسرة. ويقيم مدير الناحية[1] في غرفة واحدة من البناء.

أما المكتب الابتدائي فحسن البناء ولكنه مهمل أيضاً. ومن الغريب أن الجامع ليس فيه حصير ولم ينظف منذ مدة. وربما أن بابه لم يفتحه أحد منذ زمن طويل ...!

وفي داخل سلْفيت أربع أو خمس حوانيت لم تكلس وهي مهملة الشأن أيضاً.

٢- أزقة القصبة:

في قصبة سلْفيت جادة[2] معروفة فقط تبدأ من أمام دار الحكومة في منتهى الجنوب الغربي من القصبة وتمر من أمام المكتب والجامع والحوانيت وهي ترابية غير منتظمة. ولكنها أحسن طرق القصبة باعتبار أن اتساعها أربعة أو خمسة أمتار.وعدا عن هذا ففي القصبة عدة طرق قائمة على جادتها الكبيرة ولكنها ضيقة كطرق الماعز فلا فائدة من تعدادها على الانفراد. وحينما تهب الارياح في أيام الصيف تقذف بأتربة هذه الأزقة وبغبارها إلى بيوت القصبة.

---

(1) الناحية: أحد التقسيمات الإدارية العثمانية. ويشرف على إدارة الناحية شخص يسمى مدير الناحية ويساعده مجلس إدارة الناحية. وتكون مهمة المدير تنظيم القوانين العثمانية في ناحيته وتسلم تقارير المخاتير عن الوفيات والمواليد وصغار الورثة والإشراف على انتخابات المخاتير ومجالس الإختيارية في القرى. الدستور، ج١، ص٤٠٨- ٤٠٩.

(2) الطريق الرئيسي النافذ.

وإذا سقط شئ قليل من المطر في أيام الشتاء تصبح هذه الأزقة بحاراً من الأوحال.وحاصل القول أن طرق القصبة بلاءٌ عليها. وعلى كل فان سلْفِيت فقيرة من حيث الطرق.

٣- ماء القصبة:

يستقي السلْفِيتيون من منبع يخرج في وادٍ في الشمال الغربي منها ويبعد عن قصبتهم مقدار خمس دقائق فتجئ النسوة صباحاً و مساءً إلى النبع وعلى رؤوسهنّ الجرار فيستقين منه. ويجئ صغارهم بالأبقار فيسقونها منها فتتعكر مياه النبع. وإذا نظرنا إلى ما يغمس في النبع من أواني السقاية التي تترك هنا و هناك. وما يعود إليه من مياه الغسيل وما ينضم فوقه من الأوحال التي تحصل وما يتكوّن هناك من الأوساخ و الدنس و ما يحوم في تلك الناحية من الذبلب لا يصعب علينا حينئذٍ معرفة حالة النبع المستكرهة. ومع هذا فإن ماء النبع باعتبار أصله براق ونظيف فيتعجب الإنسان من عدم سترهِ و حفظه. وبسبب صعوبة نقليات الماء يقتصد الأهلون جدّاً بصرفياته.

٣-الأحوال العمومية

تقوم قصبة سلْفيت وهي مركز ناحية على ذروة مغروسة بشجر الزيتون و ترتفع عن سطح البحر ٦٧٠ متراً وتبعد من جهة الجنوب الشرقي عن نابلس مركز اللواء[١] ١٣ كيلو متراً. ولقد عبّدت ثمانية كيلومترات من الطريق ما بين نابلس و سلْفيت وهي قسم من طريق القدس المعبدة. و أما القسم الباقي منه فلا يزال جبالاً وأودية صعبة المرور كثيرة الأخطار مما يقل أن يرى مثلها. وفي هذه الطريق البالغ طولها ١٣ كيلو متر والتي تشبه طريق الماعز عوارض وحوائل كثيرة. حتى أن الحيوانات لتقطعها بصعوبة زائده. وسكان سَلْفيت ١٧٠٠ شخص هذا إذا لم نضف عليهم الخمسمائة شخص الذين ماتوا بالتيفوس والثلاثمائة شخص الذين جندوا. وجميع أهل القصبه مسلمون ماعدا عائلتين منهم فإنهما مسيحيتان. وعلى بعد ست ساعات في جنوبي سلْفيت توجد قلعة تعرف باسم رأس العين في جوار قرية مجدل[٢]. وعلى بعد ساعة ونصف من الشمال

---

[١] اللواء: أحد التقسيمات الإدارية العثمانية ويأتي بعد الولاية في سلم التنظيمات الادارية العثمانية حيث يتم تقسيم الولاية إلى عدة ألوية ويتولى إدارة اللواء متصرف يعينه الباب العالي بإرادة سنية وتكون مهمته تنفيذ التعليمات التي ترد إليه من رئيسه المباشر والي الولاية ويشرف المتصرف على أعمال موظفي اللواء ويخبر الوالي عن كل تصرف يعتبره مخالفاً للنظام وهو مسؤول عن قوة الأمن في اللواء. زهير غنايم، لواء عكا، ص٥١.

[٢] مجدل: قرية تقع في الجنوب الشرقي من نابلس على مسافة ٢٣كم وتسمى مجدل بني فاضل معجم بلدان فلسطين، ص٦٤٨؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٩٠.

الشرقي لسلْفيت توجد في قرية ياموق[1] عدة مغارات ودوائر ذات خمس أو ست حجرات منحوتة في الصخور ولكنها متهدمة نوعاً ما.

وفي مركز الناحية مكتبان ابتدائيان أحدهما للإناث والثاني للذكور وفي الأول منهما عشر طالبات ويداوم على الثاني مائة تلميذ تقريباً وهذا مدة النفير العام[2]. وبسبب تأخر الرواتب على المعلم منذ ثمانية أشهر فقد صرف نظره عن فتح المكتب والتجأ إلى تأمين معيشته بالبيع والاتجار.

والسبب بإهمال أمر التعليم هو الجوع. ولقد بات الأهلون بحالة شديدة من السفاله[3] بسبب تسلط الجراد عليهم في السنة الماضية فهم كما قال عنهم مختار القرية بحالة النزع والاحتضار. ولقد كان المختار يكرر قوله: إننا سنموت في شهر شوال من هذا العام. وبسبب اشتداد الحرارة هذه السنة لم يثمر شجر الزيتون الذي يستر[4] القسم المهم من الناحية ويمتد من سَلْفيت حتى حدود القدس وأما محصول الزيتون في القسم الشمالي فهو معتدل.

كانت حاصلات زيت الزيتون في مركز الناحية تقدر قبل الحرب بعشرة آلاف جرة. أما شجر التين فهو أكثر الأشجار تعمماً وانتشاراً بعد شجر الزيتون.

---

(1) ياموق: قرية تقع في الجنوب الشرقي من نابلس على بعد ١٥كم وتقوم على بقعة بلدة يانوح الكنعانية معجم بلدان فلسطين، ص٧٢٩؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٩١.

(2) النفير العام: وهي حالة الطوارئ العامة التي أعلنتها الدولة العلية العثمانية في جميع ولاياتها لتنظيم أكبر عدد من أبنائها في صفوف الجيش وتوجيه كل مقدرات البلاد العثمانية للمجهود الحربي استعداداً لدخول الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا.

(3) المقصود بها التأخر والتخلف.

(4) يغطي مساحات واسعة من الأراضي.

وأكثر المواقع محصولاً من الزيتون في كافة لوائي القدس ونابلس قرية اللد في الدرجة الأولى وقرية سلْفيت في الدرجة الثانية وقرية قباتية[1] في الدرجة الثالثة.

ومن العبث البحث عن شيء في سلْفيت باسم الآثار العمرانية فطرق القصبة ضيقة وقذرة ولا تزال الأبنية التي بقيت منذ إلغاء القائمقامية عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م معطلة وغير مأهولة على أن الدور التي في القصبة هي من بقايا ذلك الدور.

٤- الأحوال الاجتماعية

١-طبقات الأهالي:

طراز لباسهم ومعيشتهم:

لا يمكن أن يوجد بين أهالي هذه القصبة وجميعهم من المسلمين طبقات مختلفة للأهلين أو طرق متنوعة في المعيشة.ورغماً عن وجود أسر معروفة في القصبة منذ مائتين أو ثلاثمائة من السنين. فليس لها أيضاً خطة ارستقراطية في المعيشة. ولكنها تعيش مرفهة أكثر من سواها. يلبس الذكور من الأهلين ثياباً غنابيز معمولة من القماش السوري مفتوحة من أمامها مقطوعة قليلاً من جانبيها مغطاة من رقبتها ويلبسون فوقها أعبية تسمى بشت وقد اعتادوا التمنطق فوق الغنباز بزنار. أما رؤوسهم فيسترونها أما بعقال وكفيه[2] أو بطربوش وبعمامة صغيرة وضيقة ويلبسون في أقدامهم أحذية وطنية مداسات بدون قلاشين.

---

[1] قباتيه: قباطية: بلدة تقع على بعد ١٠ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة جنين بلغ سكانها حوالي ١٨٠٣ نسمة عام ١٩٢٢. معجم بلدان فلسطين، ص٥٩٢، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص١٤٦-١٥٠.

[2] كوفيه.

أما نساءهم فيلبسن ثياباً تشبه أقمصة النوم وهي مصنوعة من القماش الشامي المسمى ديما ولونها أما أن يكون أزرق أو بالأحمر وبالأصفر ويسترن روؤسهن بأغطية بيضاء طويلة وعريضة وبالمناديل المعتادة وأرجلهن تكون على الغالب مكشوفة. ويستعملن من الأحذية المداس.

يشتغل أهالي سلْفيت عموماً بالزراعة فلكل أسرة ولكل بيت مزرعة كبيرة كانت أو صغيرة فمشغلتهم الوحيدة حرث مزارعهم وجمع محاصيلهم منها. ومن لم يكن له ملك من الأراضي فإنه يعمل عند صاحب الأراضي أما مقابل أجرة أو على طريقة شركة المضاربة فيجمع هؤلاء أيضاً محاصيلهم في نهاية السنة. وبناءً على هذا فإن عموم السلْفيتيين من صنف القرويين (الفلاحين) وتتجلى حياة الفلاحين ببساطتها تماماً في سلْفيت. فتجتمع كافة الذكور من أبناء سلْفيت في شهري كانون الأول وكانون الثاني ويخرجون إلى مزارعهم المتصلة بالقصبة فيحرثونها بكل صعوبة بواسطة آلاتهم وأدواتهم العتيقة المعلومة ويبذرون القمح والشعير وأمثاله وتكون النساء حينئذ جميعاً في البيوت يهيئن الطعام لرجالهن وينظرن في شؤون أطفالهن ولا تخرج النساء إلى المزارع إلا بعد أن يعود الرجال منها وتأخذ المزروعات بالظهور فتخرج حينئذٍ كافة النساء مع أولادهن إلى المزارع فيشتغلن بجمع الأعشاب الطفيلية من الأراضي. وفي ذلك الوقت لا يقعد الرجال خلواً من العمل بل هم يشتغلون بكشف التراب عن أشجار التين والزيتون القائمة في أطراف القصبة. ويظل الأهلون رجالاً ونساءً على هذه الخطة حتى شهر مايس[1] فيخرج حينئذ الرجال والنساء سواءً إلى الحصاد فيشتغل الرجال بحصاد المزروعات ويعمل[2] النساء بجعلها حزمات ويعاونهن في ذلك الأولاد: وبعد أن ينتهي الموسم يأخذ الأهلون لأنفسهم راحة.

---

(١) آيار.

(٢) تعمل.

غير أنهم يشتغلون في ذلك الحين أي في شهري تموز واغستوس[١] بجمع التين وتيبيسه[٢] ومن بعد هذا بجمع الزيتون وعصره فينقضي عامهم جميعه بالسعي والعمل المتواصل. ولما كان السّلفيتيون يعملون لتأمين معيشتهم ومأكلهم فقط فإن مساعيهم في هذا السبيل تكون محدودة ومعينة فلا تتجاوز الدرجة المعتادة وعلى النساء الاستقاء وخدمة الأولاد وطبخ الطعام وغسل الثياب ولهذا فإنهن يعملن أكثر من الرجال. وعلاوة على ذلك فإنهن يملن إلى إملاء الفراغ من أزمنتهن[٣] بصنع نوع من أغطية الرؤوس العراقي.

يأكل السّلفيتيون باكراً وينامون باكراً ويستيقظون كذلك فحياتهم جميعها عبارة عن تكرر[٤] مطرد. ويجتمع أحياناً في بعض الليالي عدة من الرجال أو عدة من النساء في محل واحد فتدور بين الرجال أقاصيص الأبطال. أما حديث النساء فيدور حول أخبار ضرائرهن ورجالهن.

أخذت الحياة البيتية في سلْفيت أشكالاً مؤلمة لكثرة تعدد الزوجات فيكون للرجل على الأكثر زوجتان أو ثلاثة أو أربعة ورغماً عن أن بعض أرباب السعة يفرقون بين زوجاتهم بالسكنى فإن أكثرهم يجمعون بينهن في دار واحدة فتلد كل واحدة منهن عدة أولاد وهناك التشويش في المعيشة والاضطراب في الحياة فالأولاد يتضاربون والضرائر يتشاتمن ويتضاربن أو يضرب الرجل زوجته فيرتفع الصراخ وتعلو الضوضاء. ولكن لا تلبث الزوجة أن تذهب ثاني يوم إلى عملها صابرة متوكلة وكأنه لم يجر شيء بالأمس. ورغماً عن جميع

---

(١) آب.

(٢) تسمى هذه العملية تقطينة.

(٣) أوقاتهن.

(٤) تكرار.

هذه الاختلافات والمنازعات فإن الرجال لا يطلقـن[١] زوجاتـهن[٢] حتى أن الطلاق في سَلْفيت من المعيبات. ويمكن القول بأن الحاجة للعمل في المزارع والميل إلى تشكيل أسرة بسرعة هما السببان اللذان عودا الرجال على تعدد الزوجات وهما اللذان ربطا الرجال بالنساء.

يخرج رجال سَلْفيت في أزمنة معينة إلى الصيد: ولكل رجل بارودة صيد وسترة صيد مستطيلة الشكل مصنوعة من القماش الأسود بطول متر. ويجعل في وسط السترة شبه عينين وفي أسفل منها شكل عامودي مخصوص لإخراج البارودة فينصب الصياد هذه السترة ويقف وراءها ويخرج بارودته ويظل منتظراً بلا حراك ورود الطير حتى إذا تمكن من اصطياد عدة طيور أمن معيشته في ذلك اليوم.

٢- العادات الاجتماعية:

يتزوج شبان سَلْفيت باكراً في مقتبل الحياة وبسبب الاشتراك بالعمل نساءً ورجالاً ولاشتغال الطرفين في محل واحد حسب ما تقتضي به معيشة البلاد فإن أهالي القصبة جميعاً يعرفون بعضهم بعضاً ولهذا فإن الراغب بالزواج من الرجال لا يحتاج لإرسال من يفتش له على ابنة كما أنه لا يتزوج على العمياء[٣] فإذا أعجبته ابنة أرسل واحداً أو اثنين من عائلته إلى أسرة البنت فيطلبها حتى إذا تم الاتفاق قرروا الصداق ويتراوح مقدار المهر في سَلْفيت من

---

[١] يطلقون.

[٢] زوجاتهم.

[٣] يقصد أنه لا يتزوج دون رؤية زوجته.

ألفي قرش[1] إلى عشرة آلاف قرش. ويعقد النكاح بعد تعيين المهر وعلى الأكثر بعد تأديته. وعلى عقب ذلك فإن الرجل يذهب إلى نابلس فيشترى الأقمشة ويرسلها إلى خطيبته وبعد خياطة الثياب تبدأ النساء بالاجتماع في دار البنت فيتسامرن ويقمن فيما بينهن المراقص.

وبعد عدة أيام يعين يوم الزفاف فيرسل الزوج من قبله نسوة يزين العروس وأما أن يركبنها على فرس أو يحضرنها بذاتهن إلى دار الزوج ويكون الزوج مدعواً عند أصدقائه وحينما تدخل العروس دار زوجها يدفعون إليها إبريقاً وخميرة فتصب الماء فوق الخميرة وتلصقها فوق باب الدار وبعد مدة يحضر الزوج وحده إلى الدار حيث تستقبله النساء على الباب ويرقصن رقصة الدبكه ثم يبدأُ النقوط فيضع الزوج على وجه العروس شيئاً من العملة وحينئذٍ تأخذ الضيوف من النساء بالعودة إلى دورهن وهناك تنتهي حفلة الزفاف. ومن العادة أن يكرم الزائرون لدار الزوج في اليوم التالي بتقديم الطعام لهم وحينما يلد للأسرة ولد يذبحون القرابين ويقيمون المراقص ولكن هذه العادة أهملت في الأيام الأخيرة بسبب ضيق المعيشة ويخوفون أولاد سلْفيت بمجنون يطوف عارياً في سلْفيت. ومن المعتاد أن يخوف الأولاد بالضبع أو بحيوان موهوم يدعى همامه.

ومن العوائد المتبعة حتى اليوم ذبح القرابين في أيام الأعياد أو حين عودة الغائب ويدعون بعضهم إليها.

يختتن الصبيان في سلْفيت قبل أن يتجاوز عمرهم السنتين أو ثلاثة فيجيء في العام عدة من الختانين فيختنون صبية القصبة سواءً وهناك تبدأ

---

[1] القرش: عملة عثمانية فضية ضربت في الأصل بوزن مائة درهم وزنت في عهد السلطان أحمد الثالث بـ ١٨ درهم بعيار ٦٠ ثم طرأ عليه تطور مستمر ففي عهد السلطان مصطفى الثالث وزنت بـ ٦,٢٥ درهم: تاريخ العراق في العهد العثماني، ص٩٦.

الحفلات والمسرات العمومية فيلبسون الصبية ألبسة حمراء ويزينونهم بـــالحلى القصبية ويذبحون القرابين وتجتمع النسوة فيغنين ويصفقــن وتقــام المراقــص الدبكات.

وإذا توفى أحد في سلْفيت تسود النسوة وجوهـــهن ويمزقــن ألبســتهن ويصرخن وتجتمع النساء حول الميت ويرمين بأنفسهن عليه حتى أن الرجـــال ليصعب عليهم تخليص الميت من أيدي النساء حين يأخذونه للغســيل. وتســير النسوة وراء التابوت بالعويل والندب وإذا كان المتوفى من المنتســبين لإحــدى الطرق[١] يقرعون الطبول أمام الجنازة وبعد أن تدفن الجثــة خــارج القصبــة يقرأون على القبر القرآن الكريم ثلاث ليال.

٣- المنتزهات والسباق:

يعود رجال سلْفيت مساء إلى بيوتهم منهوكي القوى بســبب اشــتغالهم طول النهار بحرث مزارعهم أو بحصادها أو بتفريق الــتراب وجمعــه حــول أشجار الزيتون والتين في قصبتهم. فلا يكاد الرجل منهم يتناول عشــائه حتــى يستلقي ويستغرق في نومه. ولهذا فإن منتزهات القصبة هي محـــلات الشــغل والعمل. وحينما تذهب النساء إلى النبع للاستقاء يقوم ذهابــهنّ وإيابــهنّ مقــام النزهة لهنّ. ويصبح الوقت جميلاً في سلْفيت خلال شهري تموز واغســتوس[٢] فإن السلْفيتيين يذهبون إلى مزارع التين. ولا شيء ألذ وأهنــأ عندهــم مــن أن يقطف الرجل أو المرأة منهم حبة التين من الشجرة ويلقيها فــي فمــه. ويتخــذ كثيرون منهم أكواخاً من أغصان الأشجار وأوراقها يبيتون فيها ولا يعودون إلى القصبة.

---

[١] والمقصود الطرق الصوفية الدينية.

[٢] آب.

ويوجد قسم منهم يمضون طول النهار في المزرعة ويعودون مساء إلى دورهم. أما الأولاد من أبناء سلْفيت وهم الذين لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة فإنهم ينقلبون إلى الطريق ما بين القصبة والنبع فيلعبون ألعاباً مختلفة ولكل منها اسم معين وزمنَ مخصوص. فيلعبون أيام الشتاء لعبة تسمى مسحال وهي عبارة عن المسابقة بالقوى فيجتمع عدة أولاد ويأخذون بأيديهم عصياً بحجم واحد فيمسك واحد منهم العصا من طرفها ويقذف بها على أن يصيب الطرف الآخر منها الأرض. ثم يرمي آخر عصى أخرى على هذه الطريقة بشرط أن تسبق مسافة الأولى. فإن أتم الثاني عمله فاز على رفيقه وربح. ولهم العاب أخرى بالأحجار على هذه الطريقة أيضاً.

وعلاوة على ذلك فلصبية سلْفيت العاب أخرى مثل العاب الكرة الطابة والكورة والصوملّح و القال وهو الرمي بالأحجار. ولقد كان ركب الخيل والمطاردة عليها من الأعمال التي يشتغل بهم كبارهم. ثم أخذت تتدنى[1]. أما المصارعات فلا توجد في القصبة بل هي من المعيبات.

ظهر من هذا أن الأعمال البدنية في سلْفيت لا تتعدى سن الخامسة عشرة. ثم يبدأ دور الانحطاط والسكون بعد هذا العمر وتصبح كل رياضة عندهم من المعيبات.

٥- الأحوال الروحية

١- الأخلاق والطباع:

ليس أهالي سلْفيت بهيئتهم العمومية حديدي[2] المزاج. فهم ميالون لطباع المسالمة والتسليم. ينسون الأسأة بسرعة. ولا يحقدون كثيراً. محبون للضيف

---

[1] تقل وتندر.

[2] عصبي المزاج.

مثل باقي سائر القرويين. يخدمون ضيوفهم بأيديهم. ولا يجلسون أمامهم حرمة لهم. ويمكن أن يقال أن عموم أهالي سلْفيت متمسكون بدينهم. ويعملون ليكونوا متدينين. غير أن تمسكهم بالدين ظاهري لأنهم لا يعرفون الدين بحقيقته. فهم لا يعلمون كثيراً من لوازم الدين لأنهم لا يدركون لزومها. فلا يوجد اليوم مثلاً في قصبة سلْفيت أكثر من خمسة عشر أو عشرين شخصاً يصلون. ويقال أن هؤلاء الذين يذهبون للجامع آخذون بالتناقص يوماً بعد يوم. كما أن الثبات على الأقوال بين القسم الأعظم من أهالي سلْفيت غير معتنى به. فهؤلاء لا يثبتون على أقوالهم ويقسمون كاذباً. حتى يمكن أن يقال أن خصلة الكذب أصبحت مرضاً موروثاً بين هؤلاء. ولقد قال لنا أحد الوجهاء في سلْفيت: أننا كذابون نحلف كذباً. فلا تصدقونا ولو أقسمنا بالله والنبي. حتى ولو حلفنا بالطلاق ومع هذا فإنه رغماً عن لواء نابلس مهد الكذب فإن مواقعه متفاوتة الدرجات. فبني صعب[١] بالدرجة الأولى ثم يأتي بعدها نابلس فناحية جماعين فقصبة سلْفيت. أما جنين[٢] فإنها ممتازة على سواها. ومع هذا فإن السلْفيتيين يعتقدون بأن عدم الثبات على القول وعدم المبالاة بالكذب منتقلة إليهم من نابلس. ويقول فريق منهم: إن أهالي سلْفيت لم يكونوا كذلك قبل عشرين أو ثلاثين سنة. ولكن لما تحول مركز القضاء إلى ناحية وارتبطت القصبة مباشرة من الوجهة الإدارية بنابلس تبدلت أحوالنا تماماً. فقد بذر النابلسيون بيننا بذار الشقاق وفساد الأخلاق تأميناً لمنافعهم الشخصية. فأصبح السلْفيتيون لا يحبون بعضهم بعد أن كانوا يعيشون كالأخوة.

---

[١] بني صعب: في سنة ١٨٩٢م أحدث العثمانيون قضاءً جديداً دعوه باسم قضاء بني صعب وجعلوا طول كرم مركزاً له. وذلك نسبة إلى آل صعب الذين نزلوا جبل عامل في لبنان وما جاوره من فلسطين. معجم بلدان فلسطين، ص١٧٠، رافق، فلسطين، ص٩٠٠-٩٠١.

[٢] جنين: مدينة فلسطينية ترتفع عن سطح البحر من ١٢٥- ٢٥٠م وهي تقوم على البقعة التي عليها مدينة عين جنيم الكنعانية. تمثل مدينة جنين الرأس الجنوبي للمثلث المتكون من سهل مرج بن عامر. معجم بلدان فلسطين، ص ٢٧٥- ٢٧٦؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٩٣.

ثم بدأ السّلْفيتيون بأضرار غيرهم لمنافعهم الشخصية. علمنا ذلك النابلسيون. فأخذنا نتضارب ونتجارح ويقتل بعضنا بعضاً بالرصاص والبارود وأخذنا نكمن لبعضنا وراء الأحجار والدور فنقتل أنفسنا. ولقد وجدت الرقابة أولاً بين أبناء العم والخال وسرت إلى ما بين الأخوة. ثم انتقلت إلى النفار[1] وانتهت بإهراق الدماء. أما النابلسيون فقد استفادوا من هذه المنازعات. فسلبوا ما عندنا بداعي أنهم ينقذوننا مما نقع فيه من المهالك حتى أصبحنا أذلاء فقراء أسرى بين أيدي النابلسيين.

وفي الحقيقة أن الفقر في سلْفيت أمر يستلفت النظر. ولكن وقوعات الجرح والقتل وسرقة الحيوانات والذخيرة بسبب الفقر أصبحت مفقودة تقريباً منذ إعلان النفير العام. ويمكن أن يقال أن سلْفيت تقضي دوراً من السكون منتظراً وقوعه حتى الآن.

إن مسائل السرقة كثيرة جداً في سلْفيت لدرجة أنه يقال في وجه السارق أن فلاناً سرق الشيء الفلاني. فيجب حينئذ على السارق أن يذهب إلى مقام الشيخ جلال الدين في سلْفيت ويقسم هناك. ويروى أن كافة أهالي ناحية جماعين وفريقاً من القدسيين يحضرون إلى هذا المقام ويبرأون أنفسهم مما ينسب إليهم. ويعتقد السلْفيتيون أن الذي يحلف كذباً في هذا المقام يصاب حالاً فتخرب داره أو يموت أحد أقربائه.

يتألم السلْفيتيون من أهالي نابلس ويشكون منهم. وبعد أن كانوا يهتمون للنابلسيين ويراعون شأنهم أصبحوا بعد أن افتقروا لا يبالون بهم وقد أمسكوا أيديهم عنهم ولا يخفون تأثرهم منهم. ورغماً عن معرفتهم هذه الحقيقة فلا يزالون منقادين إليه يرجعون إلى النابلسيين في أمورهم ويستقرضون منهم

[1] الخصومة والعداوة فيما بينهم.

بالفائض[١]. وإذا حدث فيما بينهم اختلاف على أراض يرجعون في حلها إلى النابلسيين.

إن بنية السلْفيتيين باعتبار الأكثرية ضعيفة وقليلة الدم. ويمكن أن يقال أن رجال سلْفيت الذين يعملون لتأمين معيشتهم ويقنعون بالقليل ولا يفتكرون بشيء آخر هم كسالى بالنسبة إلى نسائهم. وأن ميل السلْفيتيين إلى تكثير الأولاد هو أكثر من اللزوم. وأن اضطرارهم إلى تعدد الزوجات وإفراطهم بالمناسبات قد ساقهم إلى حالة مؤلمة فزاد في كسلهم وخوّر قوامهم.

يبدأ الوهن والانحطاط باكراً بصاحب الأسرة الذي تتراوح أولاده من خمسة إلى خمسة عشر. ولكن يمكننا أن نقول أن الانهماك والميل الكثير إلى الازدواج قد أبعد عن القصبة حصول العلائق والمناسبات غير المشروعة. فلا يمكن أن يكون بين امرأة ورجل مناسبات غير مشروعه على أنهم يمتنعون عن ذلك خشية ظهور الأمر بسرعة بالنظر لصغر القصبة. ويروى أن كل امرأة ترتكب مثل هذا العار تهدر حياتها بطريقة من الطرق. ولا يجد الانهماك على القمار والمشروبات الكحولية محلاً في سلْفيت.

لم يفقد السلْفيتيون خصال الجسارة والشجاعة الخاصة بسكان القصبات المتفرقة مساكنها يتهالك الأهالي هنا على قتل الحيوانات المفترسة التي ترى في الجبال القريبة. ويتراكضون إلى الحيوان المفترس فيقتلونه. ومن يفز في عمله يشتهر ذكره وتتداول الألسنة مدحه مدة من الزمن.

---

[١] المقصود الفائدة والربا.

٢- الحالة الفكرية:

إذا أمعنا النظر في أبنية سلْفيت. وفي طراز المعيشة فيها وفي أخـــلاق الأهالي وطبائعهم – تتجلى لنا الدرجة الابتدائية[1] التي لا تزال عليـــها الحالـــة الفكرية في سلْفيت. ويقال أن امرأتين أو ثلاثة يقرأن القرآن الكريم في القصبـــة. أما الرجال منهم فالربع يقرأون ويكتبون بصورة بسيطة جداً. وأما الطلبة الذيـــن أخرجهم المكتب الابتدائي الوحيد باسم المعارف في هذه القصبة فأكثرهم نجاحـــاً هو الذي يحسن قرآة القرآن الكريم. ولكنه يعجز عن إتمام عمل جمع بسيط مـــن فن الحساب... ولهذا فإن مكتب سلْفيت لا يمزق عن عيون السَـــلْفيتيين أغشـــية الجهل. ولا يبعث فيهم شعور الانتباه واليقظة. وبسبب صعوبة الطرق الموصلـــة إلى سلْفيت وبعدها. وعدم قيام القصبة على ممر تاريخي فإنه لا يذهب إليها أحد في العام إذا لم يكن سلْفيتياً ولذلك فإن سلْفيت محرومة من الاختلاط... فتتقلـــب القصبة دائماً من دوائر معينة ومحصورة إلى مثلها. ولهذا فإن القوة الفكرية فـــي السلْفيتيين ضيقة جداً فينتهي علمهم وسائر ما يفتكرون به عند مزارعهم غـــير المرتبة وآلاتهم الزراعية الناقصة ودورهم غير الموافقـــة للصحـــة ومآكلـــهم وعاداتهم الموروثة منذ سنين. ولم يمر على أذهانهم أن يســـتفيدوا كثـــيراً مـــن مزارعهم أو أن يعيشوا عيشة إنسانية في حياتهم.

وتضعف نسوة سلْفيت يوماً بعد يوم بسبب عدم الرفاهيـــة والرعايـــة. ورغماً عن أن هواء قصبة سلْفيت جيد جداً فإن أعظم الذين يعمـــرون فيـــها لا تتجاوز سني حياتهم الخامسة والخمسين. إذ هم لا يعرفـــون معنـــى للنظافـــة. وتضطر الأم لإهمال ولدها وعدم الاعتناء به. وماذا ينتظر من الخير والخدمـــة من والدة تضع كل سنة ولداً؟ وخصوصـاً إذا كان الجهل ســـائداً فـــي الأســـرة. وأضف إلى ذلك سوء الغذاء. فما أشد آلام هذه الحياة وأكـــثر عذابـــها! ولـــهذه

---

[1] المتواضعة والبسيطة.

الأسباب أصبح من المحال أن نجد في سلْفيت قوة مدركة صحيحة أو فكرة ثاقبة ناضجة.

يجهل السلْفيتيون طبعاً معنى المقدسات القومية كالعلم والوطن والمفاداة. والحكومة في نظرهم عبارة عن مدير الناحية وعدة أنفار من الجاندرمة. ولـهذا فإن خبث نفر من الجاندرمة وظلمه الشخصي ينتهي بتلويث الشخصية المعنوية للحكومة في نظر الأهالي عموماً. وبناء على ذلك فالأهلون يعتقدون أن الحكومة باب لا يسمع شكايات الشعب. والمأمور فمٌ لا يشبعه شيء.

٣- الذوق في القصبة:

لم يترق ذوق السلْفيتيون العائشين في الحالة الابتدائية. بل ظلوا على خشونتهم. ولم يجل في ذهنهم أن يستفيدوا من اللطائف التي منحتها يد الطبيعة لوطنهم فهم يرون أن غروب الشمس هو وقت الأكل. وليست السحابة الوردية وأدمع السماء المتقطرة. ومروج الزرع المائسة سوى واسطة لتأمين معيشتهم بزرعها وثمرها. أما حاسة الشم عندهم فليس لها علاقة مع الروائح اللطيفة. ويتجلى الذوق على الأكثر في النساء. ولكن ما أغرب الحلى على نساء سلْفيت؟

إن نساء سلْفيت اللواتي لا يتركن المجرفة[١] والمنجل[٢] من أيديهنّ. ولا ينزلن الجرار عن رؤوسهن – يسمن وجوههن بنقوش زرقاء. ويزين معاصمهن بأساور ثقيلة ومنقوشة قد صنعت من الفضة ولكنها قد اسودت لمرور الزمان عليها بشكل النحاس. ويوجد أحياناً على الأساور نتوات بقدر البندقة. ويسمون هذه الأساور سنارات كما هي العادة في بقية المحلات. ويعلقن في أعناقهن ورقابهن التي لم يمسها الماء منذ سنين وقد اسودت من أشعة الشمس المحرقه

---

(١) المجرفة: وهي الأداة الحديدية المستخدمة في عمليات الفلاحة وهي أداة يدوية.

(٢) المنجل: قطعة حديدية ذات أسنان متراصة وحادة يستعمل في عمليات الحصاد وقطف المحصول كالقمح والشعير.

حلياً تراكم بعضها فوق بعضها ويبلغ طولها متراً وتسمى القلادة وهذه القــلادات عبارة عن خيط ربطت به ثلاث حبات من تقليد الكهرباء وقد علق بواحدة منـــها خرز أزرق مع قطع من العملة النحاسية القديمه ولا يسمع صوت القلادات تـون في أعناق النساء حتى يسمع أيضاً أصوات مثلها للحلق المعلق في آذانهن وهـــي عبارة عن حلقات معدنية قد علق بها شيء من العملة النحاسي أو فضي.

ويعلق[١] السلفيات[٢] على ضفائرهن التي يسمينها قرمه ل شـــيئاً مـــن الحلى يدعى برابخ وهو عبارة عن قوس من الفضة يعلق فيه بخيـــوط طويلـــة شيء من الحلقات المعدنية والدراهم. ويخرج لتلك الحلى صوت مـــن أطـــراف شعورهن.

ويضعن على أصداغهنّ شيئاً من الحلى تسمى مطاويح وتعلق المطاويح على الصدغين بخيط متدل من فوق. وهي عبارة عن دراهم مربوطة بحلقـــات على شكل زنجير فوق صفائح فضية بشكل مدور ومبسوط وتختلـــط بـــالقلادة الأقسام التي تسقط من المطاويح فوق الخدين والكتفين ويضاف علـــى الـــبرابخ تفاحات مصنوعة من الفضة على شكل فوانيس صغيرة وتربط بالشعر.

وإذا أضفنا إلى هذه الحلى حلياً أخرى تسمى زيبقـــة – تلبـــس بـــالعنق وتدخل تحت الإبط وهي عبارة عن شيء من الحلق والدراهم مع أسطوانة مـــن الفضة تعرف أن النساء ينقلن حملاً ثقيلاً من الزينه.

غير أن هذا الجنس اللطيف الذي لا يستصعب نقل جرار الماء الثقيلـــة فوق رأسه يحسب هذا الحمل من الحلى خفيفاً جداً عليه. وحينما تمر هذه النسوة بثيابهن الوسخة ووجوههن المحترقة ورناتهن المعدنية يفتتن الرجال بـــهن. وإذا

---

(١) تعلق.

(٢) السلفيتيات.

اجتمعت عدة من النساء أيام الأعراس أو في أوقات المسرات وضربن بأيديهن ورفسن الأرض بأرجلهن ورقصن رقصتهن المعهودة سمع لذلك صوت عظيم ورنين كبير فتتمثل حينئذٍ أصوات أجراس قافلة عظيمة. ومع هذا فإن الخشونة التي تبدر على النساء تظهر أضعافها في الرجال فإن الرجل يدوس أحياناً على نسوته بأرجله السوداء الملطخة بالترابة التي تشبه النعل ويضربهن بأيديه الجافية القاسية. ومع هذا فإن الرجل والمرأة يعيشان حياة مملوءة بالاستسلام والجهل الذي يذكرنا بالقرون الأولى. ويعملان لتسكين احتياجاتهما الذوقية المنبعثة عن العضوية الانسانية بعلاجات ثقيلة.

٦- الأحوال الصحية

إن موقع سَلْفِيت مرتفع وحسن حسب طبيعته ولكن عدم اعتناء السَلْفِيتيين قطعاً بالنظافة وعدم اعتمادهم على العلاج حين سراية الأمراض وفقدان التشكيلات الصحية – أحدثت بينهم في هذه الأيام الأخيرة تأثيراً كبيراً بسبب تفشي الأمراض. ولا تزال الأمراض السارية العامة. والأمراض الموقعية الخاصة تفتك بالسَلْفِيتيين. لم يألف أهالي سَلْفِيت رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً النظافة والطهارة. وليس من رأيهم الاعتناء بها. ولم يعتادوا جميعهم على غسل أيديهم بعد الأكل. وليس في القصبة حمام. على أن السَلْفِيتيين لا يفهمون معنى الاستحمام. حتى أن الإنسان يضطر للصبر وتحمل المشقة إذا أراد الوقوف في جانب رجل أو امرأة ليحادث واحداً منهما.

يعتبرون مراعاة قواعد الصحة كلفة لا لزوم لها. وإذا سألت أي فرد منهم عن السبب كرر على مسمعك باعتقاد تام هذه الألفاظ:

"إن جميع الأمراض التي تصيبنا هي من الله. وما كتب في القضاء والقدر واقع لا محالة. فأي فائدة بعد هذا من معالجة المرض. فالذي يمرضنا يشفينا. وأن المحيي والمميت هو الله. ويكفي الإنسان أن يتكل على الحق تعالى". ولكن الغريب في ذلك أنهم يتظاهرون بهذه العقيدة ويلتجأون إلى التوكل أمام الأمراض التي يجهلون أمرها. فإذا حصل مع أحدهم مغص أو وجع في البطن يسارعون لأكل النعنع ويطعمون أطفالهم بذر الخوخ معتقدين أن ذلك أحسن علاج شافٍ. وهم يعتقدون أن هذه الآلام تأتيهم من البرد. أما إذا جهلوا مرضاً ولم يعرفوا أسبابه رجعوا إلى عقيدتهم الأولى.

ولم يخف على أحد منهم أسباب ظهور مرض التيفوس الذي فتك فيهم في الأيام الأخيرة فأودى بحياة ألفين وخمسمائة شخص أو ثلاثة آلاف. فإذا سئلت أي واحد من أبناء القرية عن أسباب ذلك صرح لك بما يأتي: إن السنة الأخيرة هي سنة بلاء فإنه لم يبق من ألفين وخمسمائة شخص سوى ألف وسبعمائة وقد ذهب خمسمائة منهم إلى الجندية وضربت الحرارة رؤوس ثلاثمائة منهم فماتوا. والسبب في ذلك فقدانهم شيئاً يأكلونه. فسكان القصبة فقراء وعاجزون. ولا تحسبوا أن المرض هو الذي أماتنا. بل الذي أماتنا هو الجوع.

نعم إن سوء الغذاء يجعل في الأجسام استعداداً للأمراض. ولكن ماذا نقول عن الرجل الذي يتزوج من أربعة وعن المرأة التي تلد ثمانية أو عشرة من الأولاد؟ بل ماذا نقول عن توكل الذين يرمون بأنفسهم على جثث الأموات بأي داء كان ويبكونها. وعن التوكل الأعمى في الذين يعيشون في غرف عفنة ومظلمة بين الحيوانات؟

لا يمكننا أن نعرف مقدار الذين يموتون من الرجال والنساء بهذه الأسباب.كما أننا نجهل مقدار الذين يموتون من الأطفال حين ولادتهم. أو الذين تنطفي زهرة حياتهم قبل أن يشبوا وتنمو أجسادهم. أو الذين يقضي عليهم بسبب الأمراض الإرثية التي يهديها إليهم أبواهم. بل لا يعرف ذلك سوى الله.

لو لم تكن التولدات[١] كثيرة في سلْفيت لكان يقضي على هـذه الكتلة البشرية المتروكة في زوايا الإهمال بالمحو والاندراث[٢]. ومع هذا فإنه لا يمكننا أن نلوم هؤلاء الجهال على أعمالهم إذا لم يتسن لهم من يفهمهم معنى الصحة ويوقفهم على التدابير الصحية. ولا عجب إذا مات هؤلاء المساكين أو عاشوا بعد أن نعرف أنهم لا يرون وجه الطبيب عدة أشهر ولا ينالون حبة من الكينـاء في سنين.

٧- اللسان والأدبيات

يتكلم السلْفيتيون اللسان العربي الخاص بالعوام. ورغماً عن وجود مكتب ابتدائي في قصبة سلْفيت منذ سنين فإنه لا يوجد بينهم أحد يفهم اللغة التركية أو يتكلم بها. ويظهر على مختاري القرية أنهم يفهمون عدة كلمات من التركية بسبب اختلاطهم مع مأموري الحكومة. ولا يعثر في هذه الجهات على شخص ذهب إلى محلات أخرى فتعلم التركية وعاد إليها. وبسبب صعوبة الطرقات في هذه الأنحاء وكثرة الموانع وصعوبة السير والسياحة فيها فإن أصابع الأجانب لم تدخل إليها. ولهذا لا يوجد فيها من يعرف لغة أجنبية. وللغة العربية هنا لهجة خاصة تشبه لهجة النابلسيين فيضيفون على الأفعال حرف الشين ولكنهم لا يمدون اللفظ ويظهرون القاف. ويوجد بينهم شخص أو شخصان واقفان على اللغة الفصحى في العربية. ويقال أن في القدس شيخاً سلْفيتياً. وله عدة مدائح وغزليات منظومة ولكنها غير مطبوعة.

لا يوجد في سلْفيت مؤلفات تتجلى فيها روح القصبة وأن تكن محررة باللغة العامية ولكن يعثر على بعض مقطعات تتناولها الأفواه منذ سنين. ورغماً

---

(١) الولادات.

(٢) الانقراض.

عن بطلان استعمالها في غير جهات فإنهم لا يزالون محافظين عليها لملائمتــها لروح السكان. فالأمهات مثلاً ينشدن هذه المصاريع حينما ينمن أولادهــن فــي السرائر وفي الأرجوحات تحت الأشجار في المزارع أو بين الحقــول أو فــي داخل البيوت.

تهليل

هللي لو يا حمامة وانفشي ريشك عليه

يا حمامة الوادي هاتي النوم لولادي

يا حمامة البستان هاتي النوم للصبيان ... الخ

وربما يشارك حينئذ الحمام والقمري أو الطير الطائر فــوق الأشــجار بتغريده نغمات الأمهات. وتنشد النسوة أحياناً التهليلة الآتية بعاطفة دينية:

الله معك الله معك

الله والنبي يحفظك

أما الأغاني والمدائح التي تنشد في الأعراس وفي غيرها من الأفــراح فهي ذات اشارات خاصة وتدل جميع هذه المقطعات التي تنشدها النساء علــى ضعف المرأة أمام الرجل. ومنها:

هو هو يا مرحبا بك تمان ميه من الترحيب

يا عز الأصحاب ما يعلى عليك صحيب

إن غبت عنا العيش ما يطيب ... الخ

وبعد أن تنشد عدة مقطعات مثل هذه بأصوات عالية ترتفــع أصــوات النسوة دفعة واحدة بقولهم (لو.لو.لو.لو) ويسمون ذلك زراغيت.

وقد حافظ السلْفيتيون منذ أربعين أو خمسين سنة على أغــان معروفــة وهم- لا يزالون ينشدونها بشوق ورغبة.

ويمكن لأي أغنية تخرج من إحدى جهات سررية ويمر عليها العــهد أن تدخل إلى سلْفيت ومن ذلك:

منديلــي يــا يمــا منديلــي	منديلــي يــا يمــا منديلــي
منديلــي طلــب الفســــتق	منديلــي طلــب الفســــتق
يا من هو في الديوان يصــدق	أبو فلان في الديوان يصــدق
منديلــي يــا يمــا منديلــي	منديلــي يــا يمــا منديلــي

تلك الأغنية التي لا تزال تدور على الالسن منذ عشرين أو ثلاثين سنة.

وحاصل القول أنه لا يوجد في سلْفيت غير هذا من الآثار. وليس في السلْفيتيين أساساً قابلية للشعر الغرامي. ولا يقرأ شيء من آثار الأقدمين في سلْفيت سوى سلسلة حكايات قصص بني هلال[١] الحماسية فيجتمع الرجال مساء في محل واحد ويأخذ واحد منهم يقرأ ويسمع له الآخرون فإذا سمعوا أنه لم يلد للأمير رزق من زوجاته العشرة سوى بنتين وولدا المقطوع الأيدي يأسفون. وحينما يسمعون في الليلة الثانية أن الأمير رزق تزوج بابنة شريف مكة[٢] الخضراء وجعلها زوجته الحادية عشرة ومع هذا فقد جاء طير أسود وأخبره بأنه سيلد له ولد أسود – يحتدون ويأخذون بتفريك أيديهم. ويتحرك في أنفسهم شعور الانتقام حين يسمعون أن الخضراء التجأت إلى قبيلة زحلان واحتمت بها حين عودتها إلى دار أبيها.

وتنشرح صدورهم حينما يقرأون قصص الفروسية التي أظهرها الولد بركات المسمى أبو زيد.

---

[١] قصص بني هلال: وتسمى أيضاً تغريبة بني هلال. وهي عبارات عن مجموعة حكايات وقصص شعبية وهذا الإتجاه يمثل نوع من التراث الشعبي الذي ساهم بشكل أو بأخر في التكوين الثقافي للأمة العربية.

[٢] مكة المكرمة.

ويتعقبون بهياج وتأثر كبير أخبار الحروب التي وقعت بين الأمير رزق وأبو زيد ... ولا يقرأ أهالي سَلْفيت سوى قصص بني هلال. والسبب في ذلك أنه جيء بهذه القصة إلى سَلْفيت فقرأها الأهلون فأعجبتهم لأنها جاءت موافقة لأذواقهم. ومن الغريب أنهم لا يُسمعون هذه القصة للنساء فهم يقرأونها على الانفراد. حتى أن الرجال لا يسمحون للقارئات من النسوة أن يقرأن شيئاً سوى القرآن الكريم. فأصبحت قصص بني هلال ممنوعة عنهنّ.

وعلاوة على ذلك فإن للسَلْفيتيين قصصاً وحكايات ليلية تسمى حُديته وهي لا تتعدى وقائع العشق والخوف والشجاعة. ومأخذ هذه الحكايات الأساطير القديمة. ولكنهم أضافوا عليها بمرور الزمان قسماً من المواضيع الشخصية وحوادث سَلْفيت الخصوصية. وترى السَلْفيتيين يلقون بأسماعهم إلى هذه الحكايات باهتمام كبير. ويمكننا أن نعتبر كتاب ألف ليلة وليلة[1] من جملة المآخذ الخرافية التي يعتمد عليها في الحُديته. ويجهل أهالي سَلْفيت أن منبع حكاياتهم هو هذا الكتاب. ويحق لهم ذلك لأن انتقال هذه الأقاصيص من لسان أكسبها شيئاً من الحقيقة. حتى أصبح كل فرد منهم يسمع هذه الأقاصيص باعتقاد تام وهو واثق بوقوعها وحدوثها ويعتقدون اليوم أن هذه الأقاصيص حوادث جارية وحقائق واقعة أكثر من أنها خرافات مصنعة. أو حكايات موضوعة. ويقال أن شيوخ القصبة يستفيدون من هذه الحكايات لتربية أخلاق الشبان فيها.

أما الصنائع النفيسة في القصبة فمعدومة. ولا يعثر طبعاً على هيلكل أو رسوم. ولقد حكم بالموت على الموسيقى في سَلْفيت فلم يدخل إلى سَلْفيت لا عود ولا كمنجة ولا قانون ولا طنبور.

---

[1] وفي هذا الكتاب تمجيد للعروبة وبيان لمزايا العرب وسجاياهم وتنوية بفتوحاتهم. الدوري، التكوين التاريخي، ص١١٢؛ أحمد الشحاذ، الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، ص ٨٣ ، ٢٤٣.

حتى أن الطبل والدربكة لم يدخلا إليها بل يحسبها الأهلون من المعائب. ولا ريب أن كل صوت لا يصحبه شيء من الآلات الموسيقية ينطفئ ويذبـــل. ورغماً عن رقص النساء في بيوتهن وطربهن ونشيدهن بعض الأغاني فإنهن لا يتبعن في ذلك قاعدة مرعية أو أصولاً مرتبة. وبسبب ذلك حرمت القصبة مـــن وسائط النزهة وراحة النفس. يتدهور سكان سلْفيت القـــاطنين وســط الجبـــال والاحراج والذين لا يرون على التمادي وجه أحد في هـــوة مـــن الاضمحـــلال فجيعة. وتجف دماءهم. وتتلاشى أجسامهم. بل أن القصبة بأجمعها تقطـــع دوراً أليماً من الخراب.

٣- ناحية جَمّاعِين

١- قرى جَمّاعِين

قبل أن نغادر سلْفيت أوردنا هذا السؤال باخلاص: هل تشبه بقية القـــرى في جماعين قصبة سلْفيت؟ ويظهر أن سؤالنا أثر على أحـــد مختـــاري القريـــة المتقدم بالسن فأجابنا بلا اختيار بقوله: "هي أكثر شؤماً من بعضها". فكان جوابه المختصر الواضح مهماً جداً في تعديل خطتنا الاستقرائيه. ومع هذا فقـــد كنـــا مصرين على المرور في قرى هذه الناحية إفرادياً ومشاهدتها بأعيننا فما أنفـــع وأحلى الطواف في كافة القرى التي تقع على طريقنا في خطتنا التـــي نجـــري عليها حيث بدأنا من الجهة الغربية متجهين نحو الجنوب.

هُيئت لنا الخيول بعد الظهر بساعتين فركبنا من أمام دار الحكومة وقـــد شيعنا[1] المختار بنظرات حزينة ومبهمة. وكانت سلْفيت تلتـــهب تحـــت أشـــعة الشمس المحرقة. وكانت شرارات غير مرئية تخرج مـــن الأحجـــار والـــتراب

---

[1] ودعنا.

الملتهب فتحرق أعيننا. وبعد أن ابتعدنا عدة دقائق عن القرية نظرنا إليها فوجدنا دار الحكومة وبناء المكتب والجامع قائمة وسط لهيب أبيض. وأبنيـــة القصبــة أجمعها وسط دخان قاتم! وجميعها تندب يتمها.

وبعد قليل غابت القصبة عن أعيننا. وقد بدأنا من هنا بـــالمرور وســط حفرات الجبال المتشكلة من صخور صعبة وكنا نقطع أحياناً منحدرات معوجـة. وهي عبارة عن ركام من الأحجار. ومضى علينا زمن انحصرت فيه أنظارنـــا بين الجبال. وليس من أحد سوانا في تلك المحلات.

فما أكثر الخفايا في هذه الجبال غير القابلة للزرع والتي تعمل بــها يـد الإنسان! كانت الطيور الصغيرة تطير تعبة منهوكـــة القــوى فــوق النباتـــات والحشائش التي أخرجتها يد الطبيعة. وكانت العصافير الجبلية والحمام البري لم ير[١] وجه الإنسان منذ سنين يفر[٢] إلى ظل شجرة ويختفي[٣] تحتها وتظهر مـن جهة أخرى رتيلات سوداء رؤسها من أخاديد الصخور ثم ترجعـــها. ولا نعلــم مقدار الأفاعي التي كانت تدلع لسانها فتمتص حرارة الشمس المحرقة. وكلما كنا نتقدم بين الجبال كانت الحرارة تشتد. وبعد مسيرتنا ساعتين متماديتين أشار لنـــا دليلنا بيده اليسرى وقال لنا: "إن هذه الأبنية البعيدة هي قرية حارس. ولقد أهلكت الأمراض هذه القصبة وأفنتها" ولما كانت خطتنا الجهة الغربية فلــم نرغــب أن نذهب إلى قرية حارس التي ظلت في الجهة الجنوبية. فواصلنـــا الســير علـــى الطريق حتى وصلنا إلى قرية كفر حارس بعد أن اجتزنا مزارع الزيتون قابلنـــا المختارون حالاً وتألبت[٤] حولنا الأهالي. فقلنا ما أعظم الشـــبه بيــن هــؤلاء والسلْفيتيين في ملابسهم ومشيتهم رجالاً كانوا أو نساء؟ نزلنا عن الخيول وطفنـا

---

(١) تر.

(٢) تفر.

(٣) وتختفي.

(٤) وتجمعت.

أنحاء القصبة. وسألنا ووقفنا على ما نريد. ولقد وجدنا أن المرض محقها والجهل المطبق أفناها. وما أكثر النساء القائمات أمام البيوت بهيكلهن العظمي؟ والأطفال الذين استولى عليهم الدنس والوحل فسدت عيونهم وسترت وجوههم وأيديهم وأرجلهم وغطتهم طبقة من الذباب؟ وكذلك الرجال الذين خارت قواهم فسقطوا لا حراك بهم؟ أثوابهم وسخه. بيوتهم دنسه. غرفهم مملوءة بالدخان والعفونة. فما أكثر المحلات القذرة؟ يأخذون الدلو الملقى في جانب افرازات الأبقار فيغمسونه في بئر القصبة ثم يخرجونه منها. فلا يرى أحد بأساً من أن يدخل فيه أنفه بمخاطه. وفمه ببصاقه. ولحيته وشاربه بوسخهما. وأن يدس فيه يده بقذارتها. وكانت تظهر آثار النظافة والذكاء على العجول أو صغائر الماعز أكثر من أطفال القرية الذين يطوفون عراة وينامون عراة ويتمرغون بالتراب. فماذا يكون لو حفظت أرواح البشر في هذه القرية من القذارة والوسخ. أسأل أياً شئت من شيوخ هذه القرية هل عندكم مكتب؟[1] وكم ولد يقرأ في هذا المكتب؟

هناك تختلف الأجوبة وتتناقض: فترد على سمعك ألفاظ: يوجد. لا يوجد. مغلق. مفتوح وبعد هذا ألفاظ. ثمانية. خمسة عشر. عشرين. ثم اسكت قليلاً فيخجل هؤلاء ويأخذون بالمذاكرة والمناقشة فيما بينهم ثم يقر قرارهم على أن موجود[2] المكتب عشرة أو خمسة عشر وإذا تعمقت معهم بالسؤال يظهر لك أن باب المكتب لم يفتح منذ سنتين. وأنه لا يوجد طالب واحد. أواه ما أعجز هؤلاء البشر وما أعظم بلادتهم. إذا سألتهم عن بعد قرية ديرايستيه[3] لا يعرفون فليس عندهم تصور أو تخيل لتقدير البعد والمسافة. بل ليس في أذهانهم رابطة بين شيء وآخر من موجودات هذا العالم. وغاية الأمر أن محفوظاتهم عبارة

---

[1] بمعنى هل عندكم مدرسة.

[2] أنه موجود في المكتب.

[3] دير استيه: دير إستيا: قرية تقع جنوب غرب نابلس على بعد ٢٥كم، معجم بلدان فلسطين، ص٣٨٣؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٨٠.

عن ذرات دخانية تدور بعجلة في أدمغتهم ولم يخطر في بالهم أن يجمعوا ما حفظوه من تلك المواد المتشتت. لا يعرفون مقدار النفوس في تلك القصبة الذين لا يتجاوز عددهم بضع مئات بل هم لم يفتكروا بأن يعرفوا مقدار الدور في القصبة وعلى كل حال فإننا فارقنا كفر حارس متأثرين جداً. وكنا نتكلم أثناء السير بحدة وتأثر عن هذا السقوط[1] الاجتماعي وعن حالة المسلمين المساكين. ولكن كلمة من أحد الرفقاء أيقظتنا ونبهتنا فقد قال: ألم أقل لكم يلزم أن نسحب على هؤلاء جميعنا إشارة ضرب كبيرة؟ نعم أنه رأي مشؤوم. ولكنه صحيح وحقيقي بشرط أن نصل إلى النتيجة ونجربها.

وبعد مدة قليلة وصلنا غير منتبهين إلى قصبة ديرايستيه فوجدنا آثار القواعد العمومية موجودة تماماً هنا غير أن أهالي هذه القصبة أكثر شكاية من نابلس حتى أن أحدهم قال لنا:

"إن الله تعالى رمى بآدم إلى سيلان. وبالجنة إلى أصفهان. وبإبليس إلى بيسان. وأن أراضي بيسان هي نابلس. ولهذا فإن نابلس مهد الفساد فنسأل الحق تعالى أن ينقذنا من شرها."

وقال لنا آخر: "دخل الشقاق بين أخين فأهلكت الأسرتان بعضهما. ولقد حصل ذلك باغوآت[2] النابلسيين ومفاسدهم فنرجو الله أن يخلصنا من هؤلاء المنافقين".

وكان آخر يزيد على ذلك فيقول: "أغسل يدك إذا صافحت نابلسي".

واستخرج آخر لم يكن مشاركاً لنا بالحديث النتيجة الآتية: "إذا أزالوا نابلس من بلادنا حينئذ تمتلئ بالأنوار".

---

(1) التأخر والتخلف.

(2) جمع آغا.

وحاصل القول أن كافة الأهالي متألمون من النابلسيين. ويظهر من هذا أن بعض المتنفذين من أهالي نابلس سحقوا أهالي ناحية جماعين. ولكن ما دام أن بعض المتمولين هم المعتدون على الناحية وهم الذين يظلمون. فلا معنى إذاً لالصاق هذه التهمة بالنابلسيين عموماً. ولا ريب أن ذلك ناشئ عن جمود في العقول بين أبناء الناحية. وبعد أن هدأنا الدماء الفائرة واصلنا السير على طريقنا. وكان الليل قد أرخى سدوله. وأخذ البدر يضيء تلك الأنحاء. فجالت في ذهننا حينئذٍ فكرة مختار سلّفيت. ووقفنا آنذاك على مجريات تلك القرى المنتشرة على ذروات هاتيك الجبال الشاهقة ورجحنا صرف وقتنا لاكتشاف غير ذلك من المجهولات لدينا. فوجهنا عزيمتنا إلى الجهة الشمالية الشرقية لنغتنم وقت اعتدال الهواء ولطافته في ضوء القمر وبوصولنا إلى قرية زيتا استشعرنا بالعفونة وفساد الهواء لدرجة أنها كادت تلمس بالأيدي. وكان دليلنا يكرر على مسمعنا قوله: "كان في زيتا ثلاثمائة شخص فلم يبق الآن سوى أربعة أو خمسة".

ولقد قابلنا شخص خارج القصبة فسألناه عما جرى لأهالي زيتا فأجابنا بما يلي: "كانوا ثلاثمائة فأخذت العسكرية ثلثهم. وقتلت الأمراض نصفهم. ولم يقدر الباقون على العيشة هنا بسبب الجوع فهاجروا إلى حوران[1] وأننا نحن واقفون هنا على باب الآخرة". ولقد أثرت فينا كلمات هذا الرجل المجهول فتقلصت منا الأعصاب. وحين مررنا في القرية وجدناها خالية خاوية. قد تبعثرت فيها جثث الحيوانات هنا وهناك. فتجمعت حولها الكلاب وأخذت تنهش

---

(1) حوران: كلمة أرامية الأصل مشتقة من حورا وحوريم بمعنى الكهف وبذلك تعني سكان الكهف وهناك رأي آخر يقول بأن حوران من أصل سبئي ويدل على السواد والحجر الأسود البازلتي وهي السمة المميزة لمبانيها وأرضها. وعرفها ياقوت: بأنها كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة وقصبتها بصرى. معجم البلدان، ج٢، ص٣٧؛ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج١، ق١، ص٧٨ – ٧٩؛ حوران من زوايا التاريخ، ص٢٥.

منها ما تقدر عليه ولقد استولى على محيط القرية الخالية العاطلة نتن ورائحة عضويه كريهة تخرج من تحت التراب ومن بين الأحجار ومن وراء الجدران.

تباعدنا عن زيتا مفضلين الفرار فكانت أدمغتنا في حالة الاشباع حتى أننا كنا نقطع أطراف الوديان والممرات الكلسية المزحلقة. ونصعد وننحدر ونحن صامتون لا ننبث ببنت شفة وكنا نشعر ضجيج في أدمغتنا تحت تأثير الظلام وذلك الانفراد المحزن. وبعد ست أو سبع ساعات تركنا قريتي عينابوس[1] وحواره على يسارنا ووصلنا إلى طريق القدس المعبدة وحينما كنا ندخل أبواب نابلس منهوكي القوى خائري العزيمة كانت الشمس تشرق من وراء جبل عيبال[2].

٢- الأحوال العمومية في الناحية

تقوم ناحية جماعين في الجنوب الشرقي من لواء نابلس ويحدها شمالاً قضاء جنين ونابلس وشرقاً ولاية سورية وجنوباً لواء القدس الشريف وغرباً قضاء بني صعب ونابلس.

يُقدر طول الناحية بتسع ساعات وعرضها بستة. ويبلغ عدد نفوسها ٢١٢٣٤ وهي مؤلفة من ٤٥ قرية والقسم الأعظم من نفوس الناحية اسلام ويوجد فيها من المسيحيين موارنة وارثوذكس.

---

(١) عينابوس: عينبوس: قرية في الجنوب الغربي من مدينة نابلس على بعد ١١كم. معجم بلدان فلسطين، ص٥٥٦؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٨٧.

(٢) جبل عيبال: أحد جبال نابلس وهو أعلى قممها يصل ارتفاعه إلى ٩٤٠م عن سطح البحر وهو اسم كنعاني بمعنى جبل الصنور أو الحجارة ويعرف أيضاً باسم ست سُلَيْمية. معجم بلدان فلسطين، ص٥٥٤؛ موسوعة فلسطين الجغرافية، ص٩٤ – ٩٥.

إذا أردنا أن ننظر نظرة عمومية في الحالة العمومية للناحية نجد أن سببين أصليين يُلقيان بالناحية في نار محرقة من السفالة والحاجة: أحدهما الجوع والآخر الأمراض السارية. أن بلية الجوع العظمى التي شاهدنا بأعيننا استيلاءها على كل قرية مررنا بها ناشئة عن أسباب طبيعية وغير طبيعية. أما الأسباب الطبيعية فهي استيلاء الجراد وعطل المواسم بسبب اشتداد الحر ولا سبيل لمثلنا ممن يقر بعجزه في المسائل الفنية والصناعية سوى التسليم أمام هذه الأسباب.

أما الأسباب غير الطبيعية فيفترض على الحكومة في الوقت الحاضر إزالتها ورفعها. وهذه هي الأسباب:

١- ظلم أعيان نابلس واعتسافهم.

فإن الأغنياء يقرضون الفلاح أموالاً بفائض خمسة عشر في المئة لستة أشهر. وأما الجاهل المحتاج للدرهم فإنه لا يفتكر بثقل الشروط أوضعفها بل غاية ما يتصوره الوصول إلى الدراهم بأي طريقه كانت. وبعد أن يقرض الغني شيئاً من المال للفلاح يصبح سيداً له وحاكماً عليه لأن القروي الفقير الذي لا يملك سوى النذر القليل من الدخل السنوي - لا يتمكن حين حلول الوعدة من أداء الدين فيتهدده الغني الدائن بما له من النفوذ لدى رجال الحكومة فيضطر القروي أخيراً لتجديد معاملة الدين بشروط أثقل من الأولى. ومن المحقق أن أكثر أغنياء نابلس تقريباً يقرضون أموالهم سنوياً بفائض يتراوح ما بين ٦٠ و٧٠ في المئة ولقد أعادت مسألة الإقراض والاستقراض طريقة الاستعباد في بلادنا الدستورية[1]. لأن القروي الذي يعجز عن تأدية الديون المتراكمة عليه

(1) وفي هذا اشارة إلى العمل بالدستور بعد الانقلاب الذي قامت به جماعة الاتحاد والرقي في الاستانة عام ١٩٠٨م. جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص١٧٥-١٧٦؛ عوض، الادارة العثمانية ص٤٧؛ يوسف الحكيم، بيروت ولبنان ص٣٥-٣٦.

يصير عبداً لذلك الغني المقرض – والغالب أن يكون الغني ظالماً وعديم الوجدان – وحباً بدوام ارضائه واستنداء رحمته يبقي القروي لنفسه نذراً قليلاً من محاصيله الصيفية والشتوية ويقدم الباقي للمقرض الغني على أمل أن يحسب ذلك من أصل الدين الذي له. ورغماً عن تكرر هذه المعاملة في كل سنة فإن القروي المسكين لا يتخلص من الدين. ويكثر في نابلس عدد المقرضين الذين تتراوح ثروتهم من العشرة آلاف إلى الأربعين ألف ليرة بسبب معاملة الإقراض والاستقراض ولا يطلب فلاحو الناحية من الحكومة سوى افتتاح مؤسسة مالية لقرضهم أموالاً بفائض معتدل. وأن البنك الزراعي لا يقوم بتهوين الاحتياجات المبرمة للقروي ما دامت شروطه الحاضرة متبعة.

٢- الجاندرمة.

يؤخذ من وصف مخاطبنا القروي أن الجاندرمة الدستورية هي أعظم ضرراً بألوف من الدرجات من الجاندرمة في الدور الاستبدادي[١]. فقد كان نفر الجاندرمة في الدور السابق يأخذ ما يطلب من الرشوة بلا ضوضاء ولا جلبة ويركن إلى الفرار من القرية. أما الجاندرمة الدستوري فإنه يسلب الفلاح ماله ودجاجه وطعامه وشعيره ويضربه علاوة على ذلك. ولذلك أصبح من الضروري إصلاح هذه الشيعة من محافظي الأمن تأميناً لسلامة الشعب وحفظاً لراحته.

---

[١] يقصد بذلك الفترة السابقة على اعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ وبشكل خاص فترة حكم السلطان عبد الحميد ١٨٧٦م – ١٩٠٨م.

٣- فقدان الوجدان من المخمنين وجهلهم بوظائفهم

لا يمكننا أن نتصور قروياً لم يصب بضرر المخمنين وظلمهم فإن كافة المأمورين الذين انتخبوا لهذه الوظيفة المهمة قد قاموا بتأدية وظيفة التخمين قبل أن تنضج المزروعات وبعد أن أتموا وظيفتهم هجم الحر على المزروعات بصورة غير اعتيادية فجف الحب في سنبله وفسد. ولم يُهتم بالضيق الفاحش في التخمين كما أنه لم ينظر لما أصاب الزرع من الجفاف بسبب ضربة الشمس المحرقة.فذهب المتعهدون والجاندرمة فأخذوا جميع ما حصل عليه الفلاح وسلبوا كافة ما عنده من المؤنة فملأوا بها الأنبار غير ناظرين في عملهم إلى التعاليم الموضوعة. وقد اضطرت كثير من الأسر التي بقيت بدون مؤنة إلى ترك قراها والهجرة إلى جهات حوران. وقد علمنا أثناء تدقيقاتنا أن مائة أسرة من سلْفِيت و ٢٠ أسرة من كفر حارس وكافة الأهالي في زيتا هاجروا إلى حوران.

أما الأمراض السارية: فقد استولى هذا البلاء الآلهي المبرم على كافة جهات الناحية فأفنى ألوفاً من أبناء الوطن. وقد ظهر لنا من تحقيقاتنا أن ربع النفوس في كل قرية ذهبت ضحية التيفوس والهواء الأصفر. ولا يمكننا أن نتصور منظراً فجيعاً أعظم من مشاهدة استيلاء الأمراض السارية بصورة سريعة وفجيعة وفتكها الفتك الذريع بواسطة الجهل المتكاثف بين الأهلين وعدم الحيطة من الحكومة المحلية وقلة العلاجات.

-٤-

نابلس

١- منظر نابلس ووضعيتها الخارجية

تقوم قصبة نابلس على وادٍ بين جبلين. وهما جبـــل العيبـــال أو جبـــل السليميه القائم على جهتي الشمال والشمال الشرقي من القصبة. والآخـــر جبـــل غاريزيم أو جبل الطور القائم على جهتي الغرب والجنوب الغربي.

أما الجهة الشرقية الجنوبية فإنها أكثر ارتفاعاً من بقية أقســـام القصبـــة القائمة في الوادي. وأما الجهة الشمالية الغربية فإنها منحطة.

لا تتصل الدور القائمة في سفح جبل العيبال ببعضها. وبهذا الاعتبـــــار فإن بقية دور القصبة يضمها جبل غاريزيم بين جناحيه.

إن قصبة نابلس التي تبدأ من الشرق وتنتهي بالجهة الغربيـــة بعـــد أن تنحط قليلاً في الجنوب الشرقي قد تراكمت على بعضها بشكل منعطف جبلـــــي فمثلت شبه القطع الناقص. ويمكن أن يقال عن منظرها أنها مـحـــدودة وضيقـــة أكثر من كل بلدة. وليس لبلدة نابلس منطلق فسيح سوى جهة الغرب الشمالي فإن هناك أراض واسعة وممتدة على طول الوادي.

ويمكن للناظر أن يشاهد من هذه الباحة الفسيحة مناظر بديعة جداً فـيرى منظر الشمس تتدلق من بين اللهيب الأبيض ثم ترى عن بعد قرصاً من النـــــار الحمراء. ثم يراها تدفع بنفسها في قلب البحر اللاجوردي القاتم فيتمزق شـــملها بشكل حرائق أرجوانية.

أما جهات بلاطة وعسكر البعيدة فهي مطلع الشمس البديع. ويمكـن أن يقال أن غروب الشمس وطلوعها هما صحيفتان من صحائف الطبيعة التي منحتا لنابلس. وقد جمعت فيهما الطبيعة كافة مظاهرها.

حولت المياه التي تجري في الوادي بين الجبلين تلك الأراضي إلى حديقة طولانيه الشكل زمردية اللون بلا انقطاع. ولهذا ترى الأبصار التي حرمت الاستفادة من التمتع بمشاهدة محاسن الطبيعة في أنحاء نابلس تتجه إلى هذه الجهة لتتروح قليلاً بتسريح النظر في هذه المروج الخضراء.

ومع هذا فإن تسريح النظر في مشاهدة بيوت القصبة الحمراء بأجرها. البيضاء بجدرانها. الكثيرة الألوان بنوافذها الممتدة من سفح جبل غاريزيم إلى شواهق جبل عيبال – المناطح للسماء. مع تلك الأشجار الخضراء – منظر لا يُهمل بل يجب أن لا يُهمل ويترك.

ومن المناظر الجديرة بالاهتمام الانتقال إلى الضفة الأخرى من هذا الوادي ومشاهدة جبل غاريزيم من بين الأشجار الخضراء وتسريح النظر في سفوحه وفي هيئة نابلس العمومية. ولا ريب أن كومة من الأحجار المتكاثفة القاتمة اللون لمرور الزمان هي استحالة لشيخم (Sichem) القديمة. ولفلاويانابوليس (Flavia-Neapolic) بل هي رمز معنوي لقصبة نابلس منذ مائتي سنة. ولا يتصور ذوق ألطف من مشاهدة البنايات الجديدة التي تلمع وسط تيار براق من التجدد في الجهة الغربية. ولا أبدع من تمتع البصر على ذروة جبل الطور البديعة ذلك الجبل الذي ألبس الأبنية تاجاً زمردياً جميلاً.

إذا تسلقت جبل غاريزيم بسرعة الطير واطليت من موقعي العراق[1] والمائدة تشعر بذوق لطيف في مشاهدة أنزواء نابلس من عل.

وإذا خرجت إلى ذروة جبل الطور تزول من أمامك كافة الموانع والحواجز التي تحبس النظر وتوقفه عند حد. وتفتح لك الجهات الأربعة الشرق والغرب والشمال والجنوب صدرها الرحب فترى من هناك جبل الشيخ والكرمل

---

(١) العراق: قرية تقع في الشمال الغربي من بورين على بعد ٨كم من نابلس. معجم بلدان فلسطين، ص٥٢٣.

والبحر وقرى بيت جان[1] ورجيب[2] وعورتا[3] وبلاطة وعسكر وتمتع نظـرك بمشاهدة مزارعها الزمردية. وتتجلى أمامك حينئذٍ قصبة نـابلس بشـكل قطـع ناقص حجري قد قامت فيه الحدائق مقام نقاط المحراق.

٢- داخلية نابلس

١- اتساع القصبة وأبنيتها:

إن قصبة نابلس التي تضم أكثر من عشرين ألف شـخص هـي بلـدة عظيمة تقريباً تحتوي على خمسة آلاف أو ستة آلاف دار. ويخمن طولها مـن الشرق إلى الغرب ب١٤٠٠ متر عرضـها ب ٥٠٠ ولا يمكننـا أن نحمـل التناقض الغريب وعدم الاطراد في الأبنية القائمة في هذه القصبة منـذ سـنين عديدة – الا مجاورة ذوق التجدد المهيأ للظهور والانكشاف لتلك الفكرة القديمـة الراسخة. ولكن الظاهر أن فكرة التجدد ستقلد جارتها القديمـة. ومـن جميـل المناظر أن نرى طفل صنعة لطيف جداً يلد من هيكل عظمي دس في الـتراب بعد سعال مديد أدى به إلى الانحلال.

ويمكن أن يقال على وجه العموم أن القصبة لا تزال ظاهرة في دورهـا القديمة. والدور القديمة هنا عبارة عن منشور حجري. نوافذها قليلـة وضيقـة. وسقوفها مكلسة على الغالب. قد تلاصقت ببعضها لدرجة أن الضياء والـهواء لا يجدان طريقاً للنفوذ فيها. ولهذا لا يمكن أن يوجد بين الدور فسحة صغـيرة. أو

---

(١) قرية بيت دجن: قرية تقع شرقي نابس على بعد ١٠كم. معجم بلدان فلسـطين، ص١٨٧؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٧٦.

(٢) روجيب: قرية تقع في الجنوب الشرقي من نابلس على بعد ٤كم. معجم بلـدان فلسـطين، ص٤٢٤-٤٢٥؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٨١.

(٣) عورتا: قرية تقع في الجنوب الشرقي من نابلس على بعد ٨كم. معجم بلـدان فلسـطين، ص٥٥١؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٨٦.

جدار. أو سياج. أو شجرة. حتى أن الأزقة التي تؤدي إلى الدور هي عبارة عن أنفاق سوداء قذرة متعفنة. ويوجد بعض من الدور ذات طبقتين. وليست الطبقات السفلية سوى خرابات مظلمة ترابية تتساقط من جدرانها المياه وغيرها من المترشحات الضارة. ولا يحسبن القارئ أن الطبقات العلوية أحسن من السفلية. ولكن يوجد بين دور نابلس محلات أشادتها الثروة الجديدة بكل اهتمام. وترى هذه الدور القديمة الممتازة قد فرشت الطبقة السفلى منها بالأحجار المالطية أو بالمرمر. وأقيم في وسطها حوض صغير يتدفق منه الماء الزلال وقد صنع من المرمر اللطيف. وأمام الحوض غرفتان أو دائرة ويطلقون اسم ديوان على الهيئة العمومية لهذه الحالة.

أما الدواوين فهي منفصلة تماماً عن مآوي النساء ومختصة بقبول الزائرين من الرجال. وأما محلات النساء فهي إما أن تكون ملاصقة للديوان أو فوق غرف الديوان وللنساء مداخل لا يمكن أن يراها القاعدون في الدواوين.

ومع هذا فإن الدواوين وغرف النساء على شكلها وبناياتها القديمة ليست سوى أقفاص ذات أرواح أو سجون خفية جعلت لتسجن فيها أجسام النابلسيين.

ومن المسائل التي تستلفت النظر الاستطالة نحو الغرب أو الشرق في تلك المغارات الصغيرة والكبيرة التي تشغل المحلات الوسطى من نابلس. وتوجد عدة أبنية على هذا الشكل هي أكبر من السجون أيضاً. فهي أشبه بقلعة كبيرة أو باستحكام عظيم ناطح السماء بعظمته وغروره فحق أن يكون ملجأ ومأوى لأحد أمراء الفرنجة القدماء "شواليه" وقد كان الأعيان من نابلس يقيمون في هذه القصور الثقيلة الشكل المبنية على عدة طبقات والتي يبلغ ارتفاعها من الأمتار ما يزيد على مراتب العشرات. وهي تنطق بلسان فصيح أن في كل حجر من أحجار أطفالها الدور القائمة في جانبها صوتاً مرتفعاً يشكو انتهاك حرمته وسلب حقه. وكلما ألقيت نظرك على هذه القصور تسمع منها أصوات

الأنين والشكاية الخارجة من أعماق قلوبها ومن بين ضلوعها باسم السعادة التي لا تحل فيها.

امتلأت الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية والغرب الشمالي من القصبة بالبيوت المنشأة على الطراز الحديث تماماً. وأكثر الدور في هذه الجهات ذات طبقتين. وقد سقفت بالقرميد. ورغماً عن قلة " البانجور " في نوافذ الأبنية وعن صغره فإنه لطيف جداً. ويغلب أن يفرق بين هذا الأنواع من الدور أشجار خضراء لطيفة. ويفرق بين الحدائق جدران مبنية من الحجر الأبيض المطلي بالكلس.

وليس شيء أكثر من الأحجار في قصبة نابلس المحاطة بالجبال من أطرافها وفي المحلات القريبة منها. ولهذا فإن البيوت الجديدة مبنية من الأحجار مثل البيوت القديمة. ويوجد بين هذه الدور محلات كبيرة جداً قد صرف عليها ألوف من الليرات ولكنها رغماً عن جميع هذه المصارف قد جعلت طبقاتها السفلى على وجه العموم رطبة عفنة قاسية. فالسقف في الطابق السفلي مبني من الحجر على شكل قبة قائمة على عواميد ثخينة وثقيلة. حتى كادت تلك المجالات المنبسطة التي تقوم فيها الأعمدة أشبه بممر كنيسة. أو بغرف أرضية لسجن خفي – أكثر مما تشبه باحة داخلية في دار ويظهر من هذا أن النابلسيين لا يتضايقون من حبس أرواحهم تحت جدران ثقيلة ومنفوره[١]. ويستثنى من ذلك بعض الأبنية التي خففت شيئاً من هذه الثقالة الصناعية ومن ذلك (النزل الألماني).

وفي نابلس كثير من المباني العمومية رسمية كانت أو خصوصية. ومن جملتها دار الحكومة والجوامع الشريفة والكنائس والمعابد والمكاتب الرسمية

---

[١] منفره.

والأجنبية. والمستشفيات. ولا ننسى برج الساعة. وإذا استطلت في الأمر تحسب عداد ذلك مصانع الصابون والحوانيت أيضاً.

يقوم بناء دار الحكومة في وسط المدينة. وبناؤها أشبه بدار غير منتظمة أكثر مما هي دار للحكومة وخصوصاً السجن فإنه لا فرق بينه وبين مغارة تحت الأرض. وفي نابلس عدة مساجد عدا عن الجوامع التي بقيت من أيام جوستنيان(١) مثل الجامع الكبير وجامع النصر وجامع الخضراء(٢).

وللشعوب المسيحية التي تعيش في نابلس ولا يربو عدد نفوسها على الألف – كنائس خاصة بها في الجهة الغربية من المدينة. وللسامريين في الجنوب الغربي من القصبة معبد خاص بهم يسمى كنسية السمراء. ومما يستلفت النظر باللطف والظرف بناء المستشفى الوطني الذي أشيد في الجهة الشرقية من القصبة باعانة الأهلين. أما برج الساعة فهو قائم أمام دار الحكومة في باحة صغيرة وضيقة. وهو عار عن التزيينات وعن الصناعة المعمارية.

وأما مصانع الصابون فليست أكثر من خرابات كبيرة قذرة ليس لها نوافذ. مملوءة من داخلها بالحفر المظلمة والبراميل السوداء. وقد استولت عليها روائح الصابون وزيت الزيتون الحادة.

ويبلغ عدد حوانيت القصبة المئات. وهي قائمة في الجهة القديمة من القصبة على طريقين متوازيين بترتيب وهي مطلية من داخلها بالكلس ويغلب أن تكون أبوابها من تراب وأغطيتها من خشب. أما قذارتها وانحطاطها فمما يستلفت النظر. ولقد كتب عليها أسماء أصحابها في تعاليق من البلور. وأضيف على جميع هذه كلمة عثماني.

---

(١) جستنيان الأول ٥٢٧ – ٥٦٥م امبراطور الدولة البيزنطية وهو أبرز الشخصيات التي تولت عرش الامبراطورية وقد استطاع تخليد اسمه في التاريخ بفضل الأعمال الواسعة التي قام بها في الداخل والخارج. عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ص٩٨.

(٢) ولعله يقصد من هذا القول أن هذه المساجد كانت في الاصل كنائس ثم تحولت إلى مساجد.

٢- اللوازم والأمتعة البيتية:

من السهل معرفة قواعد الفرش في أبنية نابلس سواء كانت الدور مبنية على الطراز القديم أو الحديث ويغلب على الساكنين في البيوت المحافظة على القديم. فهم يحافظون على ما تركه لهم آباؤهم ويرون الاكتفاء به والمحافظة عليه. فطراز الفرش المتبع في عموم الشرق متبع أيضاً هنا. فترى في وسط الغرفة حصير أو سجادة. وفوقها طراحة تقوم أحياناً مقام الفراش للنوم. ومن وراء ذلك مخدتان أو أكثر. وإذا كانت الحالة مساعدة زادت مفروشات الغرفة مرآة أو خزانة صغيرة. وعدة قناديل وفناجين صينية وصحوناً وكاسات ومبخرة وقمقماً. ويعلقون على الجدران لوحات كتب فيها شيء من الآيات الكريمة بخط كبير. وهذا كافة ما هو متبع الأصول بفرش الدور.

ومع هذا فان الدور التي فرشت على الطريقة الشرقية لا تفقد منها آثار التجدد أحياناً فترى أن المقاعد مرتفعة قليلاً. وفي الغرفة كرسيان أو أكثر. وفي وسطها خوان. وربما يرتقون في الاتقان فيزيدون سريراً على مفروشات الغرفة. ولكنهم لا يتركون القاعدة المتبعة عندهم من حيث النوم والأكل في غرفة الجلوس. ويمكن تلخيص الطريقة المتبعة بتفريش دور نابلس على وجه العموم بقولنا: "أن دور نابلس تحب أن تتفرنج".

ولكن يجب علينا أن نعترف بأنها لم تقدر أن تتفرنج بشكل من الأشكال. إذ يظهر لأول وهلة أن النابلسيين يتصنعون ويتكلفون اضطراراً في تفريش دورهم فترى الغرفة التي تدخل إليها خزانة بمرآة ومزهريات وكراس طويلة ومقاعد هزازة وخوانات ومقاعد على الطراز الحديث حتى أنك لتجد فيها أيضاً مقاعد أرضية. وأسرة وثريات. وحاصل القول أنك تجد فيها كل شيء. لا تجد إلا فرقاً قليلاً بين هذه الغرفة بما فيها وبين مخزن لمبيع الأمتعة. وليس الفرق سوى نظافة الموجودات في المخزن......وعكسه في الغرفة. والأغرب من ذلك أنه رغماً عن الكلفة وكثرة المصارف في تفريش الغرف فإن كثيراً من نوافذها

تبقى بلا ستائر. وزد على ذلك فإن مكنسة الدار تعرض شكلها على الزائرين للغرفة وهي واقفة وراء الباب....

وإذا يوجد شيء من الترتيب في أصول التفريش في نابلس فهو الطراز القديم المتبع. فترى حوض الماء المبني من المرمر. ومن حوله مقاعد مرتفعة قليلاً وقد جعلت من المرمر أيضاً. فيفرش النابلسيون على هذه المقاعد السجاد. ويعلقون في سقف الديوان فانوساً كبيراً بزنجير. ويجلسون فوق هذه المقاعد ويستعملون الأراكيل ذات النباريش الطويلة تحت أشعة ضئيلة يرسلها عليهم الفانوس المعلق. فلا ترى في ترتيب هذه المجالس تصنعاً أو كلفة. ونزيد على ذلك أن النابلسيين يتغالون بإملاء دورهم بالأشياء والأمتعة التي يشترونها وهم ميالون إلى ذلك بإسراف تام. ولا تقتصر هذه الحالة على الأسر الكبيرة بل هي سارية للأسر الصغيرة أيضاً. حتى أنك لتجد في مطابخ أفقر الأهلين شيئاً كثيراً من الأواني النحاسية. وهكذا لوازم خوانات الطعام. أما الأغنياء منهم فقد أصبحت هذه الحالة علة وداء بينهم.

وبهذا الاعتبار فإن بيوت الأغنياء في نابلس حانوت نحاس ومخزن بلور ومعمل نجار ولا يقتصر الإغراق والمغالاة على مسائل المقتنيات البيتية. بل ترى هذه العلة سارية أيضاً عندهم في جمع الذخيرة والحبوب فإنهم يجعلون دورهم أنبار مأكولات. وينصرف حرصهم أحياناً لجمع الدراهم حتى أنهم يتباهون بأن دورهم أصبحت حانوت صراف أو كنز معادن وأحجار كريمة.

٣- محلات القصبة وأزقتها:

يوجد في نابلس ستة محلات كبرى وهي حارة الحبلة في شمالي القصبة وتحتوي على الدور القائمة في سفح جبل عيبال وفي القسم الواقع في شرقي الوادي. وفي منتهى الشمال من هذه المحلة تقوم دور نابلس التي بنيت أخيراً على أحسن طرز صحي موافق. ويجد الداخل إلى نابلس من طريق القدس في

الجهة الشرقية والشرقية الجنوبية من القصبة حارة القيسارية. وهذه المحلة تأتي بعد حارة الحبلة باعتبار وسعتها وجسامتها.

ويسمون المحلة التي تمتد من محلة الحبلة إلى جبل غاريزيم أي في الجهة الجنوبية من القصبة حارة العقبة ويطلقون على المحلة القائمة في وسط القصبة و الملاصقة للوادي اسم حارة القريون وسوق نابلس قائم ضمن هذه المحلة. ويسمون القسم الممتد نحو جبل غاريزيم من هذه المحلة باسم حارة الياسمينة. وتقوم هذه المحلة في الجهة الغربية من القصبة. والمحلات الأخيرة هي أصغر من المحلات الأولى. وتقوم دار الحكومة بين حارة القريون وحارة الياسمينة.

ويطلقون على جموع الدور في الجهة الغربية والشمالية الغربية من نابلس اسم حارة الغرب أو الشويتره وفي قسم من هذه المحلة يسكن المسيحيون. أما السامريون[١] فإنهم يسكنون حارة الياسمينة. وأكثر المحلات عمراناً وترقياً محلة الشويتره. فإن الدور الكبيرة والنزل والمستشفيات ومحلات العبادة وحديقة البلدية قائمة في هذه المحلة. أما محلات قريون والعقبة والياسمينة فإنها أصبحت قسماً واحداً بسبب الجدران القديمة التي تصلها ببعضها. ولهذا القسم بابان قديمان أحدهما في الشرق والثاني في الغرب. ويسمون الباب الشرقي الطريق الشرقي ومنه تبدأ جادة القدس. ومن الباب الغربي تبدأ الطريق الغربية

---

[١] السامريون: وهم مزيج عرقي وديني نتج عن اختلاط المستوطنين الاجانب الذين جلبهم الآشوريين إلى مدينة السامرة بالسكان المحليين. وهم نسبة إلى مدينة السامرة (Samaria) وهي مدينة كنعانية تقع على هضبة شمال شرق شكيم واصبحت عاصمة مملكة إسرائيل واسمها العبري شوميرون ومعناه مكان المراقبة والاسم العربي هو سبسطية. معجم الحضارات السامية، ص٤٥٤-٤٥٥.

ومنه يذهب إلى قرى المسعودية[1] سباستيه[2] وطول كرم[3] ... الخ. ومع هذا فإن الطريق الشرقي والطريق الغربي يلتقيان ببعضهما خارج البلدة على ضفة الوادي في شمالي محلة قريون.

وفي داخل نابلس طريقان يقطعان المحلات القديمة في داخل القصبة وفي هذين الطريقين تتجلى حياة نابلس اليومية بل حياتها الليلية. فسوق نابلس تقوم في هذه الطريق. وحوانيتها في هذه الطريق. وفي وسط هذه الطريق توجد حوانيت بائعي الأقمشة وقد سقف هذا القسم حتى أصبح كالنفق. وتوجد طرق أخرى بالدرجة الثانية قائمة بشكل عمودي على طريقي نابلس الشرقي والغربي المتوازيين. وجميعها مفروشة ببلاط قديم ولا يزيد عرض هذه الطرق الأولية على خمسة أو ستة أمتار. ويقال أن الطريقين المذكورتين كانتا بحالة قذرة جداً فيما سبق. أما اليوم فقد أصبحتا نظيفتين للغاية بفضل المراقبة من الجهة العسكرية وخصوصاً على هذين الطريقين.

أما الطرق الموصلة للمواقع المرتفعة فهي رديئة جداً. وجميعها صعبة وذات مرتفعات وبلاطها فاسد تماماً. وخصوصاً طرق حارة الياسمينة فإنها

---

(1) المسعودية: من قرى نابلس وهناك قرية اخرى تعرف بالمسعودية شمال شرق يافا. معجم بلدان فلسطين، ص٦٧٢.

(2) سباستية: سبسطية: قرية تقع في الشمال الغربي من مدينة نابلس على بعد ١٥كم.وتشتهر بآثارها التي تعود للعصر الروماني. معجم بلدان فلسطين، ص٤٤٢؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٨٢.

(3) طول كرم: أصل الاسم "طور كرم" والطور :الجبل، فالمعنى جبل الكرم وبقيت كذلك حتى القرن الثامن عشر الميلادي ثم حولت إلى طولكرم وتقع في منتصف السهل الساحلي الفلسطيني على الخط الحديدي بين حيفا وسيناء اصبحت مركزاً لناحية طولكرم في اواخر العصر العثماني بلغ سكانها حوالي ٣٣٥ نسمة عام ١٩٢٢م. معجم بلدان فلسطين، ص٥٠٧؛ روحي، المختصر، ص ٧٩، ٨٠.

جميعها عفنة وقذرة وذات انفاق. وحاصل القول أن أكثر المحلات في القسم القديم من نابلس رديئة متلاصقة الدور قذرة الطرق عفنة المواقع. وأما القسم الجديد منها فدوره مضيئة ومطلقة الهواء بالنسبة[1] وطرقه متسعة. ولا يعثر السائر في هذه المحلات على القذارة التي يجدها في المحلات الأخرى.

٤- ماء القصبة:

يخرج ماء نابلس من منابع متحدة في جبل غاريزيم. ثم يخرج بعد مسافة قليلة من اثنين وعشرين محلاً بشكل منابع مستقلة. ولكل منبع اسم خاص به فتخرج في محلة الشويترة مثلاً عين الصبيان وعين بتسليمه وفي الغرب من مقبرة السامرية عين رأس العين وعين مرصرصه وفوق محلة الشويتره عين الكفير وفي محلة قريون عين القريون وفي جوار الثكنة العسكرية عين الدفنه وفي محلة بوابة الخضرة بالقرب من الجنائن عين العسل وفي الجهة الأخرى عين الفوأد وعين الطيباوي وهذه أشهر المنابع. ويوجد قسم من هذه المنابع تتبدل أسماؤها بعد أن تجري مسافة قليلة فمثلاً عين القريون يتبدل أسمها إلى عين الصيباط بعد مسافة قليلة. وبعد أن تجري هذه العيون في قساطل غير منتظمة أو في مجاري واسعة مبنية من التراب تصل إلى المحلات التي تقسم فيها. ومن هناك توزع على الدور وتنتقل من دار إلى أخرى. ويوجد غالباً حوض في كل دار يصل إليها الماء. ويطلق النابلسيون على الحوض اسم ران ومنه يشرب النابلسيون. أما الدور التي لا تجري إليها المياه فإن أصحابها يستقون من الحياض العمومية القائمة في جهات مختلفة من البلدة. وقد انبتت المياه التي تجري في الوادي جنائن الخضر والفاكهة. ولا ريب أن المحلات الخضراء القائمة في أطراف القصبة وفي وسطها مديونة بالشكر لهذه المياه.

---

[1] يقصد بها نسبياً.

وبسبب تعرض ماء نابلس لسائر أنواع الترشيحات فإنه دنس وغير موافق للصحة. ويقال أن البلدية تفتكر منذ مدة باستحضار مياه القصبة بقساطل من حديد ولكنها لم توفق إلى ذلك بوجه من الوجوه.

وعلاوة على ذلك فإنه يوجد في بعض الدور آبار ولكن مياهها غير حلوة.وفي بعضها صهاريج يملئونها بماء الشتاء ويمكن أن يقال أن مياه الصهريج هي أحسن ماء يوجد في نابلس.

٣- الأحوال العمومية

١- الموقع والنفوس:

مركز اللواء قصبة نابلس وهي بلدة جسيمة ومعمورة بالنسبة. قائمة في واد لطيف يتألف من جبل عيبال وجبل غاريزيم. تبعد عن بيروت ٢٠٠ كيلو متر من الجهة الجنوبية وعن القدس ٥٥ كيلو متراً من الجهة الشمالية وعن اسكلتها[١] يافا ٦٨ كيلو متراً من الجهة الشمالية الشرقية. مياهها الجارية غزيرة. محاطة بالحدائق وهواؤها معتدل. ترتفع عن سطح البحر ٥٧٠ متراً. أرضها منبتة وتكثر في أراضي قضاء المركز أشجار الزيتون ومزارع الحبوب وأشجار الفاكهة. حرارتها المتوسطة ١٤ درجة بحساب سانتغراد[٢]. وترتفع درجة الحرارة أيام الصيف إلى ٢٨ وتهبط في فصل الشتاء إلى ٧. وترتفع درجة الحرارة في عدة أيام من فصل الصيف إلى ٣٤ في الظل وإلى ٥٠ في الشمس.

يبلغ مجموع النفوس في نابلس ٢١٠٧٢ هي منقسمة باعتبار العنصرية إلى الوجه الآتي:

---

[١] والمقصود مينائها.

[٢] التدريج المئوي لقياس درجات الحرارة.

هذه نفوس نـــابلس باعتبـــار التحريـــر الـــذي أجـــرى عـــام ١٣٢٧ هـ/(١٩٠٩م)

الديانة	ذكور	إناث
اسلام	١٠١٤١	١٠٠٢٧
روم	٢١٨	٢٠٩
لاتين	٥٨	٥٠
بروتستان	٩٣	٨٧
سامري	٩٤	٦٦
يهودي	١٣	١٦
المجموع	١٠٦١٧	١٠٤٥٥

محلة	٦
دور	٢٢٢٤

٢- تاريخ نابلس:

عرفت نابلس واسمها القديم سيشه م أي الذروة منـــذ أزمـــان الأنبيـــاء العظام. ولقد ركز حضرة إبراهيم وحضرة يعقوب وأولاده خيامهم في صحـــراء سيشه م . وأقام شعيب مجتمعه العمومي الأخير في هذا المحل. ولقـــد خرجـــت نابلس في حصة قبيلة أفرائيم[١] أثناء تقسيم فلسطين. ولما عقد بنـــو إســـرائيل

(١) افرائيم: افرايم: Ephraim قبيلة عبرانية، سكنت الأرض الواقعة بين نهر الأردن والبحـــر الأبيض المتوسط في الشمال من بنيامين ودان وأصبحت منطقة افرايم لاحقاً فـــي وســـط مملكة الشمال. معجم الحضارات السامية، ص١١٠.

مجلساً كبيراً عاماً أثناء سلطنة رحبعام[١] عام ٩٣٣ قبل الميلاد وقرروا فصل عشر قبائل اسرائيلية عن ملك حضرة داود[٢] - انتخبت قبيلة يوربعام مدينة نابلس عاصمة للدولة الجديدة. وبعد خمسين سنة نقل "اومرى"[٣] أحد ملوك هذه الدولة عاصمة الملك إلى مدينة سامره المنشأة حديثاً. ولما نفى الأثوريون[٤] قسماً من اليهود عام ٧٢٢ ق. م. وجاءوا بالأجانب لإملاء الفراغ الذي أحدثه أولئك أخذ هؤلاء الأجانب عقائد اليهود وموروثاتهم تدريجياً ومشوا عليها وهؤلاء

---

(١) رحبعام: Rehoboam رحبعام بن سليمان وخليفته على عرش المملكة العبرية المتحدة نحو (٩٣٣ و ٩٣١-٩٣٠ ق.م)، ومن ثم الملك الأول لمملكة يهوذا (٩٣٠-٩١٣ ق.م) حكم بسياسة تعسفية وأدى استبداده إلى انفصال عشرة من أسباط العبرانيين ليؤلفوا مملكة إسرائيل بينما هو بقي على رأس مملكة يهوذا. معجم الحضارات السامية، ص٤٢٢.

(٢) الملك داود: David ثاني ملوك العبرانيين (١٠١٥-٩٧٥) أحد الملاكين في بيت لحم. عمل في بلاط الملك شاول بصفة سائس وموسيقي. أحرز داود نجاحات عسكرية بدأت بقتل جليات فثارت غيرة شاول واضطر إلى الفرار من القصر ابلغ القاضي صموئيل داود أنه سيكون ملكاً بعد شاول وبعد ذلك ببضعة أعوام تم الاتفاق بين مختلف القبائل على تسمية داود ملكاً على يهوذا وإسرائيل قام داود باحتلال أورشليم التي كانت بيد اليبّوسيين وجعلها عاصمته وكان داود ملكاً قوياً اخلص له أتباعه والفلسطينيون ولكنه تمادى في استعمال السطلة الملكية المطلقة. ابتدع داود أدب المزامير ونظم عدد منها. معجم الحضارات السامية، ص٣٩٥.

(٣) اومري: Amri سادس ملوك إسرائيل ٨٨٥-٨٧٤ ق.م كان قائداً لجيوش الملك إيلة. وعند وفاة هذا الأخير نادى به الجيش خليفة له. وشن حملة على زمرى قاتل إيلة وأرغمه على احراق نفسه مع عائلته وجعل من السامرة عاصمة له وحقق انتصارات على المؤابيين. معجم الحضارات السامية، ص٦١٩.

(٤) الأثوريون: هم الآشوريين سكان العراق القدامى، وآباء المسيحيين النساطرة على حد زعم المستعمرين من الانكليز وغيرهم. ويلقب كل بطريك يرأسهم بلقب مارشمعون. وهم احدى من الأقليات الموجودة في العرق حالياً. الحسني، العراق السياسي، ج٣، ص٢٥٤-٢٨٠؛ الحسني، الوزارات، ج٣، ص٣١٤-٣٢٥.

هم السامريون. وبعد حادثة الأسر في بابل[1] لم يكتف اليهود بعـــدم مشـــاركة السامريون لهم بالمراسم الدينية في القدس بل أخذوا يهينونهم ويحقرونهم فأنشـــأ السامريون حينئذٍ معبداً خاصاً لأنفسهم في سفح جبل غاريزيم. وقد هدم يوحنـــا هرقانوس الملك السابع من ملوك سلفكيان هذا المعبد السامري. وفي عـــام ٦٧ ميلادية استولى "وسباسيه ن" أحد ملوك روما على مدينة "سيشه م" وقتل أحـــد عشر ألفاً من أهاليها. وبعد انتهاء الحروب جدد بناء المدينة وسميت (فلاويانشـــا بوليس) وتعريبها (نابلس). وفي عـــام ٥٢٩ اضطـــرت جيـــوش الإمـــبراطور جستنيان لإطفاء نيران الفتنة الهائلة التي ظهرت في المدينة. وعلى أثـــر ذلـــك أغلقت الكنائس اليهودية ففرّ قسم مهم من السامريين إلى بلاد العجـــم وتنصـــر القســـم الآخـــر منهم. وفي العـــصر الثاني عـــشر الـــميلادي لـــم يـــكن فـــي جـــميع أنحاء فـــلـــسطين ســـوى ألـــف ســـامري فـــكانت الأقـــلية مـــــنهم مـــن نـــابلـــس والأكـــثرية في دمشق. واستولى المســـلمون علـــى مدينـــة نابلـــس عام (١٥هـــ) ٦٣٦ م وبقـــي الحـــكم الإســـلامي جـــارياً في نابلـــس إلى عـــام (٥١٤هـــ) ١٠٠٠م حيـــث جـــاء الـــصـــليبيون فحـــاصروها واستولـــوا علـــيها حـــتى أنـــهم عقدوا فيـــها مجـــلساً روحانيـــاً عـــام (٥١٤هـــ) ١١٢٠م وفـــي عـــام (٥٨٣هـــ) ١١٨٧م استـــعادت جـــيوش

---

[1] بابل: Babylon مدينة قديمة على الفرات في بلاد ما بين النهرين، على بعد ٩٠كم جنـــوب بغداد. ورد ذكر هذه المدينة منذ العصر الأكادي (منتصف الألـــف الثـــالث ق.م) إلاّ أن دورها السياسي لم يبرز إلا في مطلع الألف الثاني ق.م بعـــد أن اختارهـــا الأموريـــون الساميون عاصمة لهم وخطّطت هذه المدينة على شكل مستطيل وأحيطت بسور مـــزدوج طوله ١٦,٥ كم مزود بخندق واسع وكان لها رصيف محصن على الفرات ويشهد تاريخها بأنها لم تأخذ في الحرب إلا حيلة. معجم الحضارات السامية، ص١٩١-١٩٢.

المسلمين المدينة بعد واقعة حطين[1] الشهيرة التي قام بها المجاهد المحترم صلاح الدين الأيوبي[2]. ولم يتأخر النابلسيون في العصر الأخر[3] عن القيام[4] ضد باشاوات[5] الشام وعكا. وفي عام (١٢٥٠هـ) ١٨٣٤م أعلنوا عصيانهم ضد إبراهيم باشا[6] المصري والي سورية فهجمت الجيوش المصرية فجأة على مدينة نابلس فنهبتها وأدبت أهلها

---

[1] حطين: وفيها جرت أحداث الموقعة المشهورة بين المسلمين بقيادة صلاح الدين والصليبيين بزعامة ملك القدس جاي لوز جنان وانتهت بانتصار المسلمين وتحرير بيت المقدس وذلك سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م. قاسم عبده قاسم، ما هية الحروب الصليبية، ص١٤٣-١٥٥.

[2] صلاح الدين الأيوبي: الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي ٥٣٢-٥٨٩هـ/ ١١٣٧-١١٩٣م مؤسس الدولة الأيوبية في مصر والشام وبطل معركة حطين. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٣-١٥٥؛ انظر أيضاً الحياري، صلاح الدين؛ قلعجي؛ عبله الزيده، صلاح الدين وتحرير القدس.

[3] لعله يقصد بذلك العصر العثماني ولا سيما القرن التاسع عشر الذي كثرت فيه ثورات نابلس ضد ولاة دمشق وعكا. إبراهيم العورة، سليمان باشا العادل ص ٣٠٣-٣١٧.

[4] الثورة.

[5] باشا: رتبة عسكرية كانت تعطى للحكام والضباط والأعيان في الدولة العثمانية وكانت ذات عدة درجات. اسماعيل، تاريخ لبنان، ص٢١٥؛ الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٣١٥؛ البديري، حوادث، ص٣٤؛ محافظه وهزايمه، الروض، ص١٧-١٨.

[6] ابراهيم باشا المصري (١٧٨٩-١٨٤٨م) قائد عسكري مصري، الابن الأكبر لمحمد علي باشا قاد الحملة العسكرية التي أرسلها محمد علي حاكم مصر لاحتلال بلاد الشام.الموسوعة السياسية،ج١، ص١٧-١٨؛ عوض، الادارة العثمانية، ص٦٢-٦٤؛ سليمان أبو العز الدين، إبراهيم باشا، ص١٣٢-١٣٥؛ أسد رستم، المحفوظات الملكية؛ رافق، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات الخاصة، مج٢، سليمان أبو عز الدين، إبراهيم باشا في سورية.

وبهذه المناسبة جيء بشيخ البلدة حسين أحمد[1] مع أولاده الأربعة وأعدموا شنقاً في دمشق.

٣- المعارف:

سنتكلم عن المعارف في مدينة نابلس حين الكلام بوجه العمـــوم عــن المعارف في لواء نابلس ولهذا نصرف النظر الآن عن بيان ذلك.

٤- البلدية والمؤسسات الصحية والعمرانية:

لا أعلم ما هو السبب يا ترى ؟ اننا نحن الشرقيين لا نزال بعيدين عــن فهم المعنى الحقيقي لكلمة بلدية. إن المعنى الذين نفهمه من كلمة بلدية هي أنـــها دائرة رسمية جعلت رئاستها لتقوية وتحكيم مراكز الأعيان أصحاب النفــوذ أو لإملاء جيوب البكوات الفقراء. لم نر في محل من المحلات دليلاً أو إمارة تثبت لنا المفهوم الحقيقي أو الرسمي لكلمة بلدية. فرئيس البلديـــة والموظفــون معـــه يتعرفون لأنفسهم بأنهم موظفون يقومون بانفاذ أوامر مدير الناحية أو القائممقـــام أو المتصرف حرفياً بلا اعتراض ولا توقف. على أنه لا توجد فكرة غريبـــة أو تصور أغرب في بلادنا من انتظار العمل أو الخدمة من رؤساء البلديات. ولـــم نقدر أن نشاهد في كافة المحلات التي طفنا بها تقريباً المعنى المقصود في البلاد العربية من كلمة بلدية ولقد تناسوا أيضاً في كثير من المحلات المقصد القـلنوني من تشكيلات البلدية وجعلوها مأكلاً صرفاً.

---

[1] الأصح قاسم الأحمد، من زعماء لواء نابلس في النصف الأول من القرن التاســـع عشـــر وزعيم ناحية جماعين عينه عبدالله باشا والي عكا متسلماً على نابلس ثم عينه إبراهيم باشا متسلماً على القدس وابنه محمد القاسم متسلماً على نابلس ولكنهم ثاروا على إبراهيم باشـــا مما دفعه للقبض عليهم واعدامهم. مناع، أعلام فلسطين، ص٣١٨، ٣١٩.

ولا حاجة للبيان والتفصيل عن تشكيلات بلدية نابلس فـــالأقرب للعقــل والتصور أن نطوف مدينة نابلس من أولها إلى آخرها ونبحث عن اجراءات هذه الدائرة الرسمية وعن أعمالها المعدودة. ولا يتأثر رؤساء بلدية نابلس الســالفون واللاحقون فإن هذه الحالة مرض عام في الشرق. وأنك لتجد هــذا الانحطــاط وذلك السقوط متجليين بابشع مناظرهما في كل محل وجدت فيه دائرة للبلدية من أكبر المدن إلى أصغر القرى. وإذا وجد شيء من الآثار المفيدة في إحدى البــلاد وقد أنشأت باسم البلدية فانما تكون نتيجة تصورات رؤساء الادارة الذين وجــدوا في تلك المحلات. فقد كانت قصبة نابلس قبل ستة سنين أو سبعة ســجناً لغــير الوطنيين. فلم يكن فيها محل للفرجه. وليس فيها قهوة نظيفة كازينو يلجأ إليها أو حديقة غناء يستنشق منها الهواء فكانت البلدة غماً وكرباً ثم جاءهــا متصــرف غيور فبذل جهده حتى أنشأ حديقة للبلدية في محلة الشويتره في الجهة الغربيــة من البلدة. وقد تأسست قهوة غازينو بالقرب من الحديقة. ولقد اهتم بمزروعــات الحديقة ولكن النظافة فيها تشبه نظافة الأزقة المساعدة للتنظيف ولو لــم تكـن بلوكات التنظيف العسكرية موجودة في نابلس لما كانت القذارة في البلدة تخفــى على المدقق. فإذا نظرنا في ميزانية البلدية التي عثرنا عليها تظهر لنــا حــالاً الأسباب التي تدعو لفقدان البلديات.

ميزانية عام ١٣٣٢

الواردات		مصارف	
أجار العقارات سنوياً	١٢٣٩٦٩	معاشات المأمورين والمستخدمين مع الهيئة التفتيشية	٨٥٣٤٠
رسوم الكاز	١٠٠٠٠	للتنوير والتنظيف	٥٧٢٠٠
رسوم الدخولية	٤٥٦٠٠	مخصصات الصحية	٥٠٠٠
رسوم مختلفة	٩٨٩٥٠	مخصصات العجزة	٣٠٢٠٠

رسوم الإنشاءات	١١٠٠٠	مخصصات الزينة والمهرجانات	٦٠٠٠
رسوم الوسائط الثقيلة	١٤٠٠٠	تعميرات وإنشاءات	٣٠٠٠٠
رسوم التمغا	٨٠٠٠	متفرقة	٤٦٧٠٠
رسوم البلدية بنسبة ويركو المسقفات والتمتع	٢٥٨٠٥		
رسوم الرخصة	٣٥٥٠		
رسوم واردات متفرقة	٤٧٣٠٠		
المجموع	٢٨٧١٢٠	(٣٨٨,١٧٤)*	٢٥٢٤٤٠

تظهر غرائب كثيرة من التدقيق في هذا الجدول. فالغريبة الأولى زيادة واردات البلدية على مصارفها. وكيف تزيد الواردات على المصارف في زمن تفشت فيه الأمراض السارية وفتكت فيه الحاجة والفاقة فأودت بحياة الفقراء وشعرت بلظاها أيضاً الأغنياء؟ انه لأمر لم يسمع بمثله في ناحية من أنحاء العالم. فالموازنة مفقودة اليوم في أي بلدية كانت من بلديات العالم المتمدن لأن البلديات في كل بلدة هي دولاب الأعمال بين الشعب بل الأب الشفوق على الأهلين. والبلدية ملجأ الأسر الفقيرة التي بقيت بلا رجال ولا معينين بسبب الحرب. ولا ريب أن عدم التوازن بزيادة الدخل في ميزانية نابلس هو الدليل على بعدها عن الحقيقة بل هو امارة ظاهرة على الأرقام التي ادخلت فيها قد وضعت بلا تبصر ولا امعان.

والغريبة الثانية في الميزانية هي صرف الثلثين تقريباً من الأموال التي تجبى على الرواتب للمأمورين وللعجزة المنسوبين للأعيان وعلى الزينة والمهرجانات وقد حرمت البلدية منها. فالأقلام التي يجب أن تصرف عليها البلدية هي التنظيفات والتنويرات و الصحية والتعميرات. وهذه يصرف عليها

* المجموع الصحيح للورادات هو ٣٨٨,١٧٤ لا ٢٨٧,١٢٠.

في السنة ٩٣٢٠٠ قرش فقط. وهذا العمل كاف للاستدلال على أن البلدية في نابلس هي مؤسسة ادارية غير معقولة ولا يمكن التأليف بينها وبين احتياجات الأهلين في نابلس.

مستشفى الوطن:

جاء إلى نابلس قبل ٢٣ سنة مبشر انكليزي وأسس مستشفى في قصبة نابلس وأخذ يعالج المرضى الذين يجيئون إليه فيأخذ من الفقير ٣ متليكات[١] ومن الغني ١٠٠ بارة[٢]. وكان المرضى الذين يجيئون إليه صباحاً يدخلهم إلى بهو كبير ويجبرهم على استماع مواعظه الدينية وكان المقصد من ذلك نشر مذهب البروتستان في نابلس. وكان المبشر يفادي بأكثر من ذلك لترويج مبدأه فكان يأوي مجاناً الفقراء الذين يقيمون في المستشفى ويعالجهم بلا أجرة أيضاً. وكانت الأجرة التي يستوفيها المبشر الإنكليزي أيضاً عائدة لتقديره وميله ومع ذلك فقد كانت جزئية أيضاً. وإذا توفى أحد المرضى في المستشفى يجري له أولاً جنازاً على الطريقة البروتستانية سواء كان المتوفي مسلماً أو مسيحياً ثم يسلمه إلى أسرته لتدفنه. ورغماً عن جميع هذه الأعمال خلال ٢٣ سنة فإن امرأة واحدة من الإسلام هي التي تركت دينها ودخلت في البروتستانية. وقد وجد الإنكليز الذين لا يعرفون الملل والسئامة ولا يتأثرون من مثل هذه الأحوال أن يتوسلوا بوسائط أخرى لترويج مساعيهم مثل زيارة أرباب الثروة والارتباط

---

[١] المتليك: تحريف للكلمة Metalike وتعني معدن، وتتكون من مزيج من النيكل والنحاس وقد سكت في عهد السلطان محمود الثاني. عملة عثمانية أكبر من البارة وتساوي ١٠ بارات أو أربع قروش. هند أبو الشعر، اربد وجوارها، ص٤٤٣؛ الجالودي، قضاء عجلون، ص٤١٨، ٤١٩؛ زهير غنايم، لواء عكا، ص٥١٠.

[٢] البارة: الوحدة النقدية العثمانية الأساسية. وكل أربعون بارة تساوي قرش واحد. والترجمة العربية لها نصف فضة. كريسيلوس، جذور مصر الحديثة، ص٤١٨-٤١٩.

مع أرباب النفوذ وقد نجحوا كثيراً في مسعاهم هذا. ولكن النابلسيين احسوا أخيراً بلزوم الاجتماع ضد هذه الدعوة للديانة المسيحية والمدافعة عن دينهم بالسلاح الذي يحاربهم به الانكليز فدفعتهم الحمية الوطنية للاتفاق على تأسيس مستشفى وطني. فبدأوا بجمع الإعانات وانتهوا من بناء المستشفى في أربع سنين وتم افتتاحه قبل ست سنوات وثلاثة أشهر من هذا الوقت. وقد خصصت لمصارفه الدائمة رسوم الدخولية تماماً ونصف رسوم الذبحية. وبذلك تم لهم الحصول على ٨٠٠ ليرة من المورد الأول وعلى ٢٠٠ ليرة من المورد الثاني. وفي اليوم السابع من شهر مايس[١] سنة (١٣٢٦هـ)/ (١٩٠٨م) جرت حفلة الافتتاح للمستشفى فجمعت في ذلك اليوم ٣٠٠ ليرة على سبيل الإعانة. وعلاوة على هذه الواردات الآنفة فإن المستشفى يستورد[٢] سنوياً من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ ليرة من الأجور التي تستوفى من المرضى.

يقوم بإدارة أمور المستشفى الإدارية لجنة مؤلفة من عشرة أشخاص تحت رئاسة رئيس البلدية ويقوم بالإدارة الفنية للمستشفى أحد الشبان المقتدرين وهو نور الدين بك الكريدي المتخرج من طبية العاصمة وقد استخدم قبلاً في طبابة بيروت وحلب واللاذقية. وفي مستشفى نابلس اليوم ٦٠ سريراً وقد كانوا أوصوا قبل الحرب على ٣٠ سريراً ودفعوا نصف ثمنها سلفاً. وبسبب اعلان الحرب العام[٣] لم يمكن وصولها إلى نابلس. إن الدكتور نور الدين بك طبيب بكل معنى الكلمة غيور همام ونطاسي ماهر. وبفضل ما أبرزه من الاقتدار والمهارة أصبح المستشفى في حالة حسنة جداً. وأصبحت مساعي الانكليز وتبشيراتهم عقيمة منذ زمن مديد قبل اعلان الحرب العامة فكان الذين يرجعون

---

(١) ويقصد شهر آيار.

(٢) يستوفي.

(٣) ويقصد الحرب العالمية الأولى.

إلى المستشفى الإنكليزي يومياً للمعالجة من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ فتنازل[١] عددهم بعد ظهور الانتظام في مستشفى الوطن إلى ما بين الستين والثمانين. وترى الجميع معتقدين بانتظام المستشفى الوطني واقتدار طبيبه فيرجعون إليه في معالجة أمراضهم بلا تردد. ومن الأدلة الجلية على اثبات مدعانا الإحصاء الآتي:

١- المرضى الذين دخلوا المستشفى الوطني

العام	١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)	١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)	١٣٢٨هـ (١٩١٠م)	١٣٣٠هـ (١٩١٢م)
نساء	٧٣	١٧٤	١٨٥	٤٣٢
رجال	١٦٤	٣١٣	٤٠٨	٨٥٨
نابلسيون	٦٥	١٥٠	١٩٩	٤١٤
قرويون	١٧٢	٣٣٧	٣٩٤	٩٠٣

٢- النتائج التي حصلت في المستشفى الوطني

العام	١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)	١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)	١٣٢٨هـ (١٩١٠م)	١٣٣٠هـ (١٩١٢م)
شفاء تام	٨٦	١٦٩	٢٢١	٤٧٦
إصلاح حال	٥٧	١٥٤	٢٢٨	٤٣٩
البقاء على الحالة	٣٠	٤٣	٧٠	١٣٣
وفاة	٧	٢٠	٢٣	٥٠

---

(١) تناقص.

٣- عدد الذين دخلوا مستوصف المستشفى الوطني

عدد البطاقات والكشفيات

العام	١٣٢٦هـ (١٩٠٨م)	١٣٢٧هـ (١٩٠٩م)	١٣٢٨هـ (١٩١٠م)	مجموع الثلاث سنين
فقراء	٦٩٠٧	٨٢٤٢	٧٠٦٧	٢٢٢١٦
أغنياء	٥٤٩٣	٦٩٣١	٧٠١٧	١٩٤٤١

٥- الصنائع:

إن المعروف من الصنائع في نابلس هو صنع الصابون من محاصيل شجر الزيتون التي تملأ القسم الأعظم من أراضيها فيوجد ٢٩ مصبنة ٢٣ مصبنة كبيرة وستة صغيرة وهي تصنع في كل موسم ٤٠٠ طبخة.

ويكثر صنع الصابون ويقل بنسبة قلة زيت الزيتون وكثرته. وهم يضعون في كل طبخة ٢٥٠ جرة من الزيت وبالحساب التقريبي يبلغ محصول زيت الزيتون العام في قضاء المركز ١٥٠ ألف اقة[١] باعتبار أن الموسم يبلغ مائة ألف جرة وكل جرة ١٥ اقة. ويقل شجر الزيتون سنة ويسمى ذلك الموسم الماسية ويحمل سنة أخرى ويسمى شلتوني فإذا لم يظهر الجراد ولم تشتد الحرارة في موسم الصيف حينما يكون الزيتون على زهرة وإذا لم تمطر السماء بصورة غير منتظمة وبدرجة غير كافية قبل تفتيح[٢] زهر الزيتون - يكون الموسم في ذلك العام قليلاً. وفضلاً عن ذلك فإن السنة التالية للإقبال لا يكون موسم الزيتون فيها بدرجة كافية رغماً عن اسعاف الطبيعة له ويغلب أن يكون الموسم في تلك السنة بنسبة ربع الثلث من الموسم الجيد.

---

(١) اقة: وحدة وزن عثمانية تزن ٤٠٠ درهم وتساوي ١,٢٨٢٨ كغم. هنتس، المكاييل والأوزان، ص١٩.

(٢) تفتح.

ويتكرر صنع الأربعمائة طبخة من الصابون في كل عام في نابلس. فيصنع منها ١٦٣ طبخة لأسرة بني النابلسي و٧ طبخة للشيحانيين و٢٠ للغزاويين و٢٥ للشكعويين و٢٠ للأغوات و١٢ للتميميين و٢٠ لعنبتاويين ولأحد الشوام. وفضلاً عن ذلك فإن بني عاشور يصنعون ١٥ طبخة وبني الخيلط ٢٠ طبخة وبني كمال ١٥ طبخة.

وإن الصابون المصنوع مع قلور قالسيوم[١] يكون أغلى وأكثر بقاء. ويتم صنع الطبخة واستحضارها في ثمانية أيام. أما الصابون المصنوع بالنطرون فإنه يكون أقل بقاء ويمكن إتمام الطبخة منه في ثلاثة أيام. وقد كانوا قبل خمسة عشرة سنة لا يصنعون الصابون في كافة المصابن إلا بماء القالسيوم ولكنهم أهملوا هذه المادة الابتدائية تدريجياً وأخذوا يستعملون محلها النطرون الرخيص.

مصرف طبخة الصابون

	ليرة
ثمن ٢٥٠ جرة من الزيت(في الأيام المعتدلة)	٢٥٠
ثمن خمسة أو ستة براميل من النطرون	١٣
أجرة نقل النطرون من يافا	٢,٥
كلس	٤
بزر الزيتون (الجفت وهو الذي يستعملونه عوضاً عن الحطب)	١٠
أجرة الفعلة	٦,٥
مصاريف متفرقة	١
المجموع	٢٨٧

---

(١) البوتاس الكلسي.

فيكون مصرف[1] الطبخة ٢٨٧ ليرة وهي تعمل من ٢٠ - ٢٢ قنطار[2] صابون فإذا قدرنا أن ثمن القنطار من الصابون في الأيام العادية ١٥٠٠ قرش تبلغ قيمة الطبخة من ٣٤ إلى ٣٥ ألف قرش ويكون الربح الوسطي منها من ٥٠ إلى ٨٠ ليرة. ورغماً عن جميع هذه التقديرات فإن أرباح الصابون تزيد وتفيض بنسبة معرفة أرباب المصانع ومهارتهم أو جهلهم بادخار الموارد الابتدائية ولا يقل كثيراً من الأوقات ربح بعض الأغنياء عن مائة ليرة في الطبخة.

ورغماً عن كثرة أشجار الزيتون في نابلس فإنه من الأمور التي تستلفت النظر أنهم لا يصنعون في نابلس التي يكثر فيها صنع هذا الصنف أنواعاً ظريفة من الصابون السهل الاستعمال مثل الصابون ذي الريحة اللطيفة أو الصابون الغودروني أو الكلسريني وأمثاله من صابون الزينة. ولقد أراد محمد أفندي النابلسي أحد أغنياء نابلس تجربة ذلك فصنع كمية من الصابون ذي الرائحة وأرسلها إلى سوق استانبول[3] ولكنه خسر بسبب غلائها وعدم ظرافة شكلها فصرف نظره عن العودة لمثل هذه التجربة.

وأن الآلات والأدوات التي يستعملونها في مصابن نابلس لا تزال ابتدائية وعلى شكلها القديم فلا يمكن أن تجاري مصانع أوروبا بصنع صابون الزينة اللطيف وأمثاله. ولو افتكر واحد أو اثنان من أغنياء تجار الصابون في نابلس الذين تبلغ ثروة الواحد منهم من ١٠ - ١٥ مليون قرش وأرسلوا أولادهم إلى أوروبا ليتعلموا هذه الصناعة ثم سعوا بتحسين حالة المصابن النابلسية وأدخلوا فيها الآلات والأدوات اللازمة لكانت ثروتهم تزيد مرة أو اثنين عما هي عليه. ولقد قمنا بما يلزم من التشويق أثناء سياحتنا فوعدنا عشرة من الأغنياء بارسال

---

[1] ويقصد تكلفة.

[2] القنطار: وحدة وزن تساوي ١٠٠ رطل يساوي ٣,٨٨كغم. تقريباً. هنتس، المكاييل والأوزان، ص٤٠.

[3] عاصمة الدولة العلية العثمانية.

أولادهم عقب الصلح إلى ألمانيا وفرانسا وبلجيكا. ولا ريب أنه إذا ظهرت هذه الفكرة من حيز القوة إلى حيز الفعل وبسبب اعتياد الأهلين والفتهم لصنع الصابون تنمو ثرواتهم وتزيد الثروة العمومية أيضاً بهذه الواسطة زيادة مدركة.

٤- الأحوال الاجتماعية في نابلس

١- طبقات الأهالي وطرز المعيشه:

يمكن تقسيم أهالي نابلس باعتبار الدين إلى ثلاثة أقسام مسلمين ومسيحيين وسامريين. ولكل قسم من هذه الأقسام عادات معروفة.ولكن قلة المسيحيين والسامريين الذين لا يتجاوز عددهم الألف لا يجعل لهم في الحياة العمومية إلا بهذه النسبة . فيجب أن ننظر إلى مدينة نابلس بنظر عمومي أنها مدينة اسلامية.

ومع هذا فان الطبقات التي تتجلى بين المسلمين بخصوصيات معروفة لكل واحدة منها – يمكن جمعها في طبقات ثلاثة: طبقة الخواص. طبقة العوام. طبقة الجباليين.

فحين يقال طبقة الخواص في نابلس يتبادر إلى الذهن قبل كل شيء المال والثروة والآولى أن تسمى إذاً هذه الطبقة أصحاب الثروة بدل تسميتهم بالنبلاء "الخاندانات". وهؤلاء طبقة تفرد أجدادها بالحكم على نابلس بنفوذهم منذ مئات من السنين واقتسموا فيما بينهم أراضي الملحقات[1] حتى أنهم اقتسموا البلدة ما بين شرقية وغربية وطالما جرت بينهم وقائع ومخاصمات بسبب ذلك فهؤلاء هم الذين يطلق على أولادهم اليوم عنوان خاندات ومع هذا فإنه يوجد في نابلس أسر كانت درجة نفوذها محدودة بالنسبة لأولئك ولكنها استوطنت

---

[1] الأقضية الملحقة بلواء نابلس.

نابلس وجعلت لنفسها شهرة ومقاماً وهذا هو القسم أكثر احتياطاً ومحافظة على القديم.

ورغماً عن المعاصرة بين طبقة الخواص لبعضهم بسائق محافظة النفوذ وانماء الثروة فانهم انقسموا إلى قسمين كبيرين – كما سنأتي على بيانه وشرحه فيما يلي :

ولكن هذا الانقسام ظاهري لأنه مرتبط بمنفعتهم. وعلى كل فان الوثوق بعدم تبدل مراكز هذه الأسر بعد مدة لسائق تبدل المنفعة هو البساطة وصفاء القلب. ويمكننا أن نقول أنه لا ريب بأن بعض هذه الأسر منحازة لأحد الطرفين حفظاً لمراكزها من الاعتداء والتجاوز.

وتتنوع البسة الزعماء في هذه الأسر بنسبة التنوع بينهم فيكتسي أحياناً بعضهم الكسوة العلمية ويكتسي القسم الآخر وخصوصاً الشبان منهم على وجه العموم البنطلون والجاكت.

وتعتمد طبقة الخواص في معيشتها على الزراعة والتجارة والصناعة فيزرع طبقة الزراع منهم الأراضي التي يملكونها بواسطة الفلاحين ويتداخلون كثيراً في مسائل الالتزام[1]. وفي حقيقة الأمر أنهم يأخذون جميع ما يحصل من الأرض وما يستغل منها كثيراً أو قليلاً. أما الذين يشتغلون بالتجارة فإن القسم الأعظم منهم يشتغلون بتجارة الحبوب وبضائع الألبسة المانيفاتورة. وأن أغنى الطبقات في نابلس هم التجار الذين يشتغلون بصنع الصابون وبيعه. ويغلب أن يكون المشتغلون بالتجارة والصناعة والزراعة مختلطون. فالمشتغل بالزراعة يصنع أحياناً الصابون لحسابه ويبيعه. ويشتغل أيضاً في كثير من الأوقات

---

[1] الالتزام: نظام لجمع الضرائب في الدولة العثمانية حيث يقوم شخص بجمع الضرائب من منطقة معينة بعد ان يدفع الضرائب المقررة للدولة مسبقاً وغالباً ما يجمع الملتزم مبلغاً يفوق الذي دفعه للدولة، ويؤخذ المبلغ الزائد لنفسه، زهير غنايم، لواء عكا، ص٤٨٥-٤٩٣.

باقراض الأموال. فإن الإدانة في نابلس مسألة مؤلمة جداً وأن أكثر شكايات القرويين من هؤلاء المرابين. وعلى كل حال فان الذين يملكون ألوف الليرات بأملاكهم وأراضيهم وثروتهم وكذلك الذين تكون وارداتهم السنوية ألوفاً من الليرات هم عدد قليل في نابلس وهم على الاطلاق من طبقة الخواص.

وبسبب توسع طبقة الخواص في معيشتهم فان كل شيء في دورهم كثير ووافر. ولا يمنعون شيئاً عن أنفسهم. غير أن الذين يشتغلون بالزراعة هم أكثر ولا ريب اتساعاً في معيشتهم من المشتغلين بالتجارة. وبالنظر لقلة أشغال هؤلاء فان المحافظين على العادات القديمة في نابلس وهي حياة الديوان هم أفراد هذه الطبقة من الخواص. فترى دورهم مفتوحة ليلاً ونهاراً لقبول الزائرين والضيوف.

ولم تكن القهاوي في القديم معروفة في نابلس ولذلك كانوا يقضون اسمارهم في هذه المجتمعات المسماة سهره. ولكن افتتح في الأيام الأخيرة قهوتان أو ثلاثة. وأسست حديقة للبلدية في الجهة الغربية من القصبة في محل ممتاز بنظارته ولطف موقعه فتباعد بعض النابلسيين وخصوصاً عن حياة الدواوين.

ورغماً عن ثراء صنف الخواص بهذه الدرجة فإنك لا تزال تجد في طرز معيشتهم احوالاً ابتدائية. ومن العبث أن تجد في داخلية دورهم وفي معيشتهم وفي مأكلهم وفي ملبسهم انتظاماً وترتيباً. حتى أن بعض شبان هذه العائلات الذين يتعلمون خارج نابلس لا يحبون العودة إليها باي وجه كان.وإذا عادوا إليها فإنهم لا يميلون بوجه من الوجوه لاتباع هذه الخطة في حياتهم ومعيشتهم ولهذا يمكننا أن نخمن عدد الشبان الذين تركوا نابلس لهذا السبب بثلاثمائة شاب .

أما نساء هذه الطبقة فإنهن يعشن بصورة يحزن لها القلب.فخروج النسوة من ابناء هذه الطبقة إلى الازقة من الممنوعات فهن يقضين كافة أوقاتهن

قي تلك الدور الرطبة. ولا يزلن محافظات على زينتهن الأولى. ويمكن أن يقال أن صرفيات البودرة والراستيق عظيمة جداً. ولم تصرف النساء العجائز والشابات نظرهن عن تخضيب أيديهن بالحناء[١] حتى الآن. ومن الغريب أن هؤلاء النسوة المخضبات أيَديهن بالحناء يملن إلى تزيين شعورهن على الطواز الافرنجي. ولا شك أن علاقة نسوة نابلس بالموده منحصرة بأذواق عدة من خياطات نابلس.

أما الطبقة الإسلامية الثانية – فهي صنف العوام ومدار معيشة هؤلاء على مهن العملة وقلع الأحجار وبيع الخضر وأمثالها من الأعمال الصغيرة. ودورهم التي يسكنونها وحوانيتهم التي يعملون فيها عبارة عن أكواخ. ويلبس هؤلاء على الغالب نوعاً من الألبسة[٢] المسماة غنباز وهي مصنوعة من الأقمشة الوطنية مشقوقة الجانبين بشكل مثلث ومفتوحة من أمامها وقد التف قسم منها على الآخر. ويلفون فوقها زناراً بعرض خمسة عشر سانتيماً. وفوق ذلك عباءة أو رداء جاكت. ويغلب أن تكون أرجلهم عارية. لا لبس القلشين[٣] غير معتاد عندهم ويلبسون نوعاً من الأحذية الوطنية تسمى مداساً. ويسترون رؤوسهم بالطربوش أحياناً وبالعمامة أخرى.

---

[١] الحناء: يعتبر الحناء من مواد الزينة الرئيسية عند المرأة العربية كما يستخدم كمادة علاجية، يؤخذ الحناء من أوراق شجر الحناء للمزيد صالح غريب: "الحناء الزينة الشعبية للمرأة في الخليج العربي" مجلة المأثورات الشعبية، العدد ٢٤، اكتوبر ١٩٩١م، ص ١٠١-١٠٥.

[٢] عن الملابس دوزي، المعجم المفصل؛ طيان، ملابس المرأة؛ الجبوري، الملابس العربية؛ العبيدي، الملابس العربية.

[٣] كتبت سابقاً القلاشين.

معيشتهم ضيقة جداً وليس لهم عند صنف الخواص أهمية مطلقاً. ويرى الخواص أن من صلاحيتهم وحقوقهم استخدام صنف العوام بأي مهنة كانت. ويرى كل فرد من العوام أن انتماءه لأحد الخواص نعمة لا تقابلها نعمة.

أما الطبقة الثالثة – فهم الجباليون وهؤلاء يقطنون محلة القيساريه شرقي القصبة وأهلهم من محلة جبالية في غزه[1]. ولا يوجد في نابلس طبقة أحط من هؤلاء فنساؤهم لا يحتجبن. وبالنظر لالبستهم الممزقة ومهنهم الخسيسة كالتسأل[2] وأمثاله فإن النابلسيين يسمونهم نوراً ويرون ان ضربهم وشتمهم مباح لديهم ويقال ان عددهم لا يزيد على ثلاثمائة. وبزيادة الامالة في لهجتهم يمتازون عن صنف العوام.

أما المسيحيون القاطنون نابلس – فيشتغل أكثرهم بصناعة الحدادة والصباغة. وبسبب فقرهم لا يوجد في بيوتهم إلاّ شبه ترتيب ونظافة. ومع هذا فلا يمكن أن يوجد بين الناشئين منهم أيضاً نهضة عالية من جهة العلم. ومن الغريب أن نساء هؤلاء المسيحيين يحتجبن حين مرورهن في الأسواق. ولا يرضى النابلسيون بأن يخرج نساء سائر العناصر مكشوفات ما لم يكن أجنبيات.

وأما السامريون – فيجب أن ننظر إلى هؤلاء بأنهم أتعس خلق الله في نابلس حياة ومعيشه. فقد أفسد الفقر والحاجة بنيان الحياة فيهم. حتى أن الاهانة والطعن والتحقير الذي يرونه من النابلسيين حتى من صغارهم اورثهم في أنفسهم حطة صغاراً بعيدين عن الوصف. ولا تخرج النساء السامريات إلى الأزقة مكشوفات تبعاً لعقيدتهن.

---

(1) غزّة: بلدة فلسطينية وأقدم من سكنها الكنعانيون ثم سكنها الفلسطينيون وهي من المدن المشهورة في فلسطين معجم بلدان فلسطين، ص٥٦٦.

(2) التسول.

٢- العادات والحالة الاجتماعية:

مسائل الزواج :

تفترق طبقات المسلمين عن بعضها في مسائل الزواج افتراقاً محسوساً. ولهم في ذلك حالات خصوصية. ولقد كانت العادة في نابلس أن الأسر المعروفة بشرفها في نابلس لا تزوج إلاّ بعضها ولا يمكن لأحد أن يتزوج بابنة شريفة الا إذا كان من تلك العائلات. حتى لو كان غنياً وصاحب ثروة فلا يحق له أن يأخذ ابنة أحد الأسر المعروفة النسب ما لم يكن هو معروف النسب منذ مائتين من السنين. وكانوا يراعون هذه العادات مراعاة تامة. وكان الغلو يشتد أحياناً بينهم حتى أن بعض الأسر كانت تحصر تزويج بناتها بأفرادها الذكور فقط فكانوا متمسكين بتقاليدهم ومحافظين عليها شديد المحافظة. ولكن وصف الغنى والثروة قام مقام الشرف في المدة الأخيرة. فأصبح للغني حق بأن يأخذ ابنة أية أسرة كانت من الأشراف. ومن غرائب مظاهر الغنى التي تتجلى في نابلس أن بعض الأسر المثرية تمنع تزوج[١] بناتها لأحد ما لم يكن في الأسر التي يمكن لها أن تتزوج بناتها رجل يليق وذلك خوفاً من أن تخرج ثروة[٢] إلى خارج محيطها العائلي. ولقد حدث كثيراً أن هاته البنات يتزوجن برجال متأهلين من الأكفاء لهن خشية الوقوع بعلة خروج الثروة إلى أسر لا تليق بها أن تشاركها بثروتها.

ومع هذا فان العادة الظاهرة الاتباع هي تزويج أفراد كل طبقة من بعضها فالنابلسيون يراعون هذه التقاليد تمام المراعاة. ولا يلبث المثري ولو كان من طبقة العوام أن يصبح حالاً من طبقة الخواص بفضل ثروته.

ولا تظهر طبقة العوام صعوبات في مسألة الزواج. فلا يفتكر الواحد منهم باقتداره على اطعام زوجته وأولاده بل يسرع حالاً بالتأهل. وقد شوهد

---

(١) تزويج.

(٢) ثروتها.

كثيراً أن الرجل لا يملك في الشهر أكثر من مائة قرش يتزوج ويطلق ثلاث مرات أو اربعة. ولا يخلو يوماً من أسرة مكلف باعاشتها. ويزوجون أحياناً شابة برجل بلغ الستين طمعاً بثروته. فيقتلون حياة البنت ويفقدونها نضارة الوجود.

أما طريقة الزواج:

فليس لها في نابلس أصول معروفة ومتبعة. فيجري الزفاف في الليلة التالية لليلة السمر السهره.

فطبقة الخواص يقيمون أيام العرس أربع أو خمس أو عشرة مآدب عمومية. وللنساء فوجان من المغنيات المسلمات اللواتي يضربن بالعود والقانون والدف والدربكة. فيغنين ويعزفن على الآلات. ومن العادات أن تتغنى النسوة اللاتي يجتمعن في دار العرس بالمدايح المعروفة ويصرخن عقبها بأصواتهن لو. لو. لو. ومن العادات أيضاً أن ترقص الفتيات ليلة العرس.

وتبقى قريبات العروسة ثلاثة أيام ضيوفاً في بيت العرس. ومن العادة أن يهدي أقرباء العريس للعروسة هدايا تسمى نقوطاً وإذا كان للعروسة أب يزورها بعد ثلاثة أيام من ليلة العرس. ويأخذ لها هدايا وحلويات. ومن العادات الأولية أن ترسل للعروسة هدايا في أيام الأعياد.

وتزيد مصارف الأعراس العظيمة في نابلس على مئات من الليرات. وإذا أضفنا إلى ذلك مصارف المهرجانات وغيرها فلا يقل مصرف[1] العرس عن ألف ليره.

وللنابلسيين ميل شديد للإستيلاد. ومع هذا فإنهم يرغبون الصبيان أكثر من البنات. وهم يتزوجون مراراً أملاً بالحصول على هذه الغاية. وتجري مراسم الختانة في نابلس بلا جلبة ولا ضوضاء قبل أن يتجاوز الطفل عشرين يوماً من عمره.

---

[1] مصروف.

حياة العائلة:

أعمل جهدي هنا لأشرح حالة مرض اجتماعي أصاب حياتنا الاجتماعية عموماً في الشرق، وقد تجلى لنا تماماً أثناء التدقيقات التي أجريناها أخيراً في نابلس. ولا ريب أن بياناتي هنا ذات ماهية علمية عامة: إن حياة العائلة في نابلس تتجلى بمظاهر مؤلمة جداً فيمكننا أن نقول أنه ليس للمرأة هنا حكم أو تأثير مطلقاً أسوة بباقي الأنحاء من بلادنا فيحبون حرمان كل شيء لهذا المخلوق الذي لا يريدون أن يخرج من بطون الأمهات إلى هذا العالم. ومن الواجب أن يكون تعليم الابنة ناقصاً. بل أي حاجة تقضي بتعليم المرأة. ولو فرضنا أنهم أحسنوا إليها وأدخلوها إحدى المكاتب فإنهم يقيمون سداً في وجه تعليمها بعد أن تتم ختم القرآن الكريم. فيخرجونها من المكتب قبل أن تتعلم جمع الأعداد البسيطة بصورة تامة. وتبقى الابنة في البيت إلى الخامسة أو السادسة من عمرها وليس لها من الأهمية شيء وينظر إليها بكل اشمئزاز وعدم اعتبار لأنها ابنة. وخصوصاً إذا كانت سبباً لدخول ضرة على أمها في البيت فإن حياة البنت تصبح حينئذ نقمة زائدة عليها. فتضرب وتصفع ولا يمكنها الفرار من الدار إلا بصعوبة زائدة وترى البنات اللواتي يفررن من بيوتهم على هذا الشكل يخرجن إلى الأزقة فيلعبن مع رفيقاتهن بالطين والتراب وحينما يقبل المساء يجتمعن صفوفاً ويأخذن بالرقص في الأسواق ويرددن الأناشيد والأغاني. وفي ليالي رمضان يطفن المحلات محلة محلة وفي أيديهن الفوانيس والأضواء. ولا تتخلص البنت في الدار من ضرب أصغر صبي ومن اهانته لها. وهي مضطرة لأن تتحمل ذلك بالرضاء والقبول. وإذا خرجت من الدار تبقى أيضاً محكومة بالصبر على اهانة صبيان المحلة وضربهم وصفعهم لها. وهي تتحمل كافة الألعاب. فإذا ما دخلت في السنة السادسة من عمرها يصبح خروجها لظاهر الدار ممنوعاً مطلقاً. ويحكم عليها بأن تستنشق الهواء الرطب المتعفن الظلم وهي في دارها. وإذا تيسر لها الخروج من الدار في السنة مرة بصحبة والدتها

فمن القواعد المتبعة أن تطرق البنت رأسها في الأرض ولا تلتفت لجهة من الجهات. وبعد خمس سنين أو ستة ترسل هذه البنت المسكينة التي لا تعرف من العالم سوى تعداد أحجار الأزقة إلى دار غريبة عنها تماماً تجهل فيها كل شيء فتصبح هناك آلة للولادة وخادمة للرجل وجارية للحماة ولابنة عمها. وتجبر تلك المرأة الصغيرة التي ألقيت بين أيدي الأغراب على أن لا ترفع صوتها بالشكوى لا من حالتها ولا من دارها الجديدة ولا من زوجها. ولا سبيل لها إلا الرضاء والتسليم بحياتها كما هي. ومع هذا فإنه لو فرضنا أنها تحملت كافة هذه المشاق. ولم تعرف لنفسها قصوراً أو هفوة فإنها لا تلبث أن ترى في يوم من الأيام ضرة تشاركها في حياتها. فينفذ حينئذ صبرها وتبدأ بالشكوى والتذمر من حالتها التعيسة فيختلط الحابل بالنابل ما بين الحماة وابنة عم وزوجة أولى وزوجة ثانية ورجل وأولاد الزوجات المختلفات. فتصبح تلك الدار حينئذٍ دار عذاب وتبدأ حياة المرأة بالذبول ويذهب عمرها ضحية. ومن العادة في نابلس أن لا يهتم بمرض المرأة. حتى أنه ليس من العادة عندهم أن يستحضر طبيب أو يشترى علاج للمرأة إذا مرضت فإن اشتد المرض استحضروا الطبيب مرة أو مرتين ولكن الزمن الذي يمكن للطبيب فيه انقاذ حياة المرأة يكون قد مضى فتذهب تلك المرأة المسكينة تاركة وراءها أطفالاً بحالة يرثى لها. على أن تلك المرأة تكون قد تماسكت بالحلقوم مع أولادها وهم أطفال. تموت المرأة فلا يهتم الرجل لوفاتها وفي اليوم الثاني يذهب فيتزوج ثانية وليس العادة أن يذكر اسم المرأة المتوفاة على قبرها. ومن الصعب أن يوجد اسم امرأة مسلمة مكتوب على قبور نابلس. ويعتقد النابلسيون أنه من المعيبات ذكر اسم المرأة المتوفاة.

مسائل الوفاة:

من المعتاد غالباً تشييع الجنازة في نابلس بالطبل. ولكن يشترط لهذا العمل أن يكون المتوفى من أفراد المسلك العملي أو أن يكون له ولد محترم. فإذا

توفى أحد أبناء البيوت يدعى أقرباؤه في ذلك المساء وتقام لهم مأدبة. أو أنهم يرسلون إلى دار المتوفى مائدة وتبقى هذه الحالة ثلاثة أيام. لأن العادة أن لا يطبخ في دار المتوفى ثلاثة أيام. ويتلون القرآن الكريم في هذه الأيام الثلاثة ويختمونه في الليلة الثالثة من كل بد.وفي ذلك الوقت ينتهي الفصل الأول من الحداد.

أما النساء فإنهن يلبسن السواد شهرين أو ثلاثة أو أكثر من ذلك ويسترن رؤوسهن بالمناديل والأغطية السوداء. وللنساء أمام الجنائز وضعيات ومواقف غريبة الشكل خارجة عن دائرة التصور. فتمزق النساء خمورهن والبستهن وتندفع أمام الجنائز تندب وتعول. ويوجد في نابلس نساء تستأجر للعويل والصراخ وراء الجنازة وتسمى نائحات ونادبات. وتقوم مقبرة نابلس في سفح جبل عيبال في الشرق الشمالي من نابلس ومحلها كثير الهواء والنور. ويعتنون بأن يكون القبر جميلاً وبديعاً. والمقابر هي أكثر المحلات اباحة لزيارة النساء النابلسيات. وأن زيارة المقابر من يوم الجمعة إلى قبل طلوع الشمس من يوم السبت وجيبة[١] لا تغفل عنها النابلسيات ولا ينسينها. ويكررن ذلك كل أسبوع ويذهبن إلى المقابر وفي أيديهن أغصان الآس وطاقات الأزهار. فيزين القبور التي يزرنها. ويقال أن شعاع أرواح الأموات تزور اللحود في ذلك الحين وتفارق قبورها قبل طلوع الشمس من يوم السبت. فإذا مررت بالمقبرة في ذلك الوقت تجدها ملأى بالنساء والرجال والأطفال. ولا يمكن أن يتصور شيء أعظم في نابلس من زيارة المقبرة يوم العيد. ويستصحب النابلسيون معهم حين زيارة المقابر أيام الأعياد شيئاً من الملبس والبقلاوة[٢] وأمثالها فيأكلون بعضها ويوزعون الباقي على الفقراء عن أرواح الأموات.

---

[١] عمل واجب تقوم به النساء.

[٢] أنواع من الحلويات المشهورة في نابلس.

ولا يمكن أن يتصور ذوق حسن لدى النابلسيات أعظم من ذهابهن إلى المقابر كلما تسنح لهن الفرص حيث يتنفسن روائحها التي تظهر منها الرائحة العضوية الخارجة حتى من نباتها.

المآدب:

يظهر النابلسيون في مآدبهم ما اعتادوا عليه من الذوق الخاص بهم وهو رؤية الأشياء وافرة. فتكون المآدب التي يتكلف أبناء طبقة الخواص لاقامتها مطنطنة. فيقيمون على الأكثر خواناً مدروراً كبيراً ويضعون فوقه الصحون والمعالق والشوكات بدون سكاكين ويصفونها صفا أولياً. ثم يضعون من ورائها صفاً آخر مؤلفاً من أصناف الفواكه والمقبلات الصلاطه. أما قطع الخبز فتشغل أماكن مختلفة ومشتتة من المائدة. وليس من العادة عندهم أن يكون لكل مدعو قدح ماء خاص فيمكن لكل شخص أن يشرب من قدح الآخر. ثم يضعون أطباق المآكل في الوسط. ويأخذ كل شخص لصحنه ما يشتهيه. ولكن يغلب أن تبقى الصحون الفارغة أمامهم نظيفة كأنها آلة للزينة فقط. فتسقط الملاعق جميعها على أطباق المآكل وربما لا يستعملون الشوكات إذا كان بين صنوف المآكل شيء يمكن الأخذ منه باليد والأصابع. وتبقى الملاعق والشوكات هادئة منزوية في أطراف المائدة. ولا يستشكل النابلسيون بتصنيف المآكل فيجمعون في مآكلهم وفواكههم بين الأصناف التي يمكنها اجتماعها مع بعضها. وترى الأطباق التي تفرغ في المائدة أشبه بالقوافل المتواردة. يحضرون على المائدة أنواعاً من الحلوى بأوقات متقطعة. وهم يكررون مدائح طويلة على ما اشتهر عندهم من حلوى الكنافة بالجبن والتوتيه. ثم ينهضون بعد ذلك عن المائدة وقد أثقلوا بحمولة مدهشة من الطعام.

ويتعاطى الخواص المآدب على سبيل التحابب المتقابل وربما اتخذوا مجيء أحد الأقرباء أو حضور مأمور إلى نابلس وسيلة لإقامة المآدب فيدعون

إلى المأدبة جميع من يعرفونه. وبعد انتهاء الطعام يشربون القهوة ولفائف التبغ بصورة متواصلة وإذا كانت المأدبة في زمن الصيف يجتمعون حول الأحواض وإذا كان أيام الشتاء فحول المجامر منقل النار وترتفع أصوات الآراكيل ثم تمد سجادات الصلاة ويقدمون للأمامية أكبرهم سناً فيأتمون به في صلاة طويلة. وبعد الصلاة يطاف عليهم بالقهوة عدة أدوار. وهناك يبدأون بالمذاكرة أما في مسائل شرعية أو يتحادثون حسب العادة باسعار البضائع أو بما جرى من الوقائع الغريبة في ذلك اليوم. وفي ختام ذلك يخرجون من دار الضيافة وقد أوقدت أمامهم الفوانيس الكبيرة ويعودون إلى دورهم مارين وسط تلك الازقة القذرة الضيقة.

٣- محلات النزهة والسباق:

لا ريب أن أعظم محل يستجلب النظر بين محلات النزهة للنابلسيين هو موقع العراق الذي يعلو قليلاً عن البلدة في جبل غاريزيم في الجهة الجنوبية من القصبة. ففي ذلك الموقع مغارة كبيرة وطبيعية وفي مدخل المغارة وعلى طرفها حفر صغيرة. ويبلغ ارتفاع باب المغارة خمسة عشر متراً تقريباً وعرضه عشرة أمتار أما طول المغارة واتساعها من داخلها فيبلغ نحواً من مائتي متر. وأما خارج المغارة فقد حفر على شكل نصف دائرة. وقد قسمت بطبقات من الغرانيت ثخن كل طبقة نصف متر وفصلت تلك الطبقات بنوع من حجر الصوان الأسود.

وترى الحمام والعصافير والغربان يطرن على أشجار التين البري القائمة ما بين أحجار الغرانيت في محلات مختلفة من فتحة المغارة. أما داخل المغارة فمظلم. وإذا دخلت إليها تسمع حسيس الروتيلاوات الكبيرة. ويخرج النابلسيون غالباً مساء أيام الجمعة إلى هذا المحل ويجلسون عى السطح المستوي أمام المغارة الذي تبلغ مساحته مائة متر مربع. ويوجد ثمت ظل من الشمس

بواسطة أشجار الزيتون التي تستر ذلك المحل. فيسرحون أبصارهم بمشاهدة الوادي والقسم القديم من البلده. ويخرجون أحياناً من الصباح ويبقون إلى المساء حيث يقضون هناك يوم صفاء ونزهة.

وعلى بعد دقيقتين من هذه المغارة يوجد سفح مستو على صخرة مرتفعة يسمى مائده وهي كرسي التطلع للنابلسيين. وبسبب أن وسط الصخرة محفور فإن رؤية الصخرة ورؤية البلدة من الصخرة منظران ألطف من بعضهما. ويروون خرافات عديدة عن موقع المائدة. فيقولون أن الست سليمه إحدى صالحات مصر جاءت بعد وفاتها إلى هذه الحفرة واختفت فيها. ويوجد وراء موقع المائده مغارة أخرى تسمى شق النمر ويقولون أنه يوجد في هذه المغارة طريق يوصل إلى القدس.

وعدا عن هذين المحلين فإن النابلسيين يذهبون إلى نبع يسمى كفير ويجلسون تحت الشجرة الكبيرة هناك.

وأن مقام عماد الدين المدفون في جبل عيبال في الجهة الشمالية محل للنزهة في أيام الصيف بالنظر لارتفاعه ولطافة الهواء فيه. ويقال أن شيخاً يبلغ الخامسة والثمانين من عمره يقيم أيام الصيف في دار قائمة في أعلى نقطة من هذا الجبل وأنه اعتاد الخروج إلى هذا المحل منذ خمسة وثلاثين سنة. ويجيء كافة العظماء في نابلس إلى هذا المحل فيزورونه فيه وحين عودتهم يضعون شيئاً من الدراهم في صندوق موضوع ثمت. ومن منتزهات النابلسيين اليومية خروجهم إلى الجنائن في الوادي وتمضيتهم فيها أوقاتاً مناسبة. وسيرهم على الطرق المعبدة شرقي نابلس أو غربيها وسيرهم عليها مدة قليلة قبل غروب الشمس من كل يوم. ومن المنتزهات التي اعتاد عليها النابلسيون في الأيام الأخيرة السير في السوق بين الطريقين المتوازيين في القصبة أو الجلوس في حانوت أحد الذين يعرفونه أو الذهاب إلى حديقة البلدية وتمضية وقت مناسب فيها.

أما المسابقات:

فقد ضعف الاهتمام بما كانوا يعتنون به قبلاً من مطاردة الخيـــل ومـــن العاب السيف والترس فطبقة المتقدمين في السن من أبناء نابلس لا يحبــــون أن يخرجوا من دواوينهم. وكذلك الشبان منهم فلا يجول بخاطرهم مسألة الألعـــاب الرياضية والمسابقات مطلقاً. فيخرج المأمور صباحاً من داره ويذهب إلـــى دار الحكومة. وكذلك التاجر يذهب إلى حانوته. وفي المساء يعود المأمور مـــن دار الحكومة والتاجر من حانوته فيستلقي كل منهما على ظهره في داره ويبقى فيــها إلى الصباح كسلان مخدر الأعصاب.

مع أن صغار النابلسيين ميالون للعب والحركـــة فـــتراهم يـــتراكضون ويقفزون وإذا سنحت الفرصة يلعبون بلعبة الأحجار المســـماة دوش وبالعـــاب فشختين ونطه والعميشه ودقة الحمام والقلة والطابه وأمثالـــها مـــن الألعـــاب. وخصوصاً في الأيام الأخيرة فقد تعممت فيها علــــى قـــدر الإمكـــان الألعـــاب الرياضية في المكاتب وهي من الألعاب المفيدة للأولاد في نماء أجسادهم.

ولكن النابلسيين لا يبلغ الواحد منهم رشده حتـــى يبطـــل كـــل حركـــة ورياضة ويندس بين أسوار بلدته وجدران داره المظلمة.

٥- الأحوال الروحية

١- المزاج. الأخلاق والطباع:

يمكننا أن نقول أن مزاج النابلسيين الميالين للطول بقامتهم صفر الوجوه طوالها وفاقدي الدم منها – هو صفراوي باعتبار العرق فيلد الولد منـــهم وهـــو مملوء ذكاء وفطنتهم وتظهر آثار الاستعداد الفطري عليهم منذ الصغر. فيحـــب الصبي النابلسي وهو في المكتب التفوق على كل أحد في درســـه ولعبـــه. ولا يضيع من يده وسيلة أو واسطة صغيرة أو كبيرة ومهما تكن حتى يتخذها ليفـوز

بما يريده. والشاب النابلسي يصر على عناده لينال برأيه الصغير كـــل شــيء يمكنه احرازه سواء كان حسناً أو قبيحاً في الحياة. وللفوز بما يريده النابلســيون يضطرون أحياناً لسلوك طرق منتقدة. أو الوقوع بآفة الافــتراء والكــذب. وإذا اضطرهم الأمر فإنهم يعتمدون أيضاً على سواعدهم. وإذا لم يتمكن الشاب منــهم انجاز العمل بنفسه فإنه يجمع حوله اثنين أو ثلاثة من إخوانه. وهم يعرفون جيداً طرق اقناع الرفقة واستمالتهم لجانبهم وكيفية الاستفادة منهم خاصة. ولهذا تــرى مكاتب نابلس تصبح أحياناً منبع فساد وتزوير وطوراً ميدان ضـــرب وطعــان ومرة باحة علم ودرس تفوق سواها بصورة حسنة جــداً. والنابلســي مجتــهد. يزاحم. ويلاكم. ولا يسأم مطلقاً. ولا يُغلب النابلسي لعواطفه فلا يستعجل باجراء ما يجب تأخيره. ولا يخرج عن دائرة التأني والتؤدة. وبهذه الواســطة يثبتــون للملأ منذ صغرهم أنهم قابضون على زمام ارادتهم.

ولم يُر أن الأولاد الصغار يهملون جهة الانتفاع والاستفادة المخصوصة من مخالطتهم لإخوانهم الصغار فيجب أن لا يوثق بما يظهره النابلسيون لبعضهم من التحابب فهو ظاهري ولا يمكن أن يكون خالصاً مـــن المنفعــة والفــائدة. وخصوصاً حينما يخرج النابلسيون من بلدتهم فإنهم يتقربون إلى بعضهم جــداً. وهم يحسنون التصنع تماماً بايهام بعضهم بعضاً أن المحبة التـــي يظهرونـــها لبعضهم إنما هي محبة أخوية لا ريب فيها. فإن النابلسيين يعتبرون التقرب إلــى بعضهم قوة لهم أمام الأغراب عن نابلس ويكون ذلك عندهم وســيلة للطمأنينــة والاعتماد.

وإن هذه الخصال والأوصاف التي تظهر عليهم في صغرهـــم تظــهر بأحلى مظاهرها بالنسبة للمحيط الذي يعيشون فيه. فإنهم يقتطفون مـــن آبائــهم وأمهاتهم ومن أعمامهم ومن سائر أقربائهم هذه الخصال ولا يجنون من الذيـــن يخالطونهم من غير أقربائهم سوى هذه الاطباع. ومـــن المؤســف المؤلــم أن حرصهم على صرف ذكائهم ومقدرتهم في سبيل منافعهم الشخصية وتغلبهم على

كل شيء – يزداد جداً بنسبة واسعة كلما تقدموا في السن. بل يتجلى فيهم أكثر من قبل وهم يرون أن كافة المتاعب التي صرفها من سبقهم للنجاح في مساعيهم وجميع الطرق التي اتبعها اولئك هي الخطة الوحيدة التي يجب اتباعها والدليل القويم الذي يجب السير عليه. فتراهم مقلدين بتمام التقليد كأنهم آلة متحركة بإرادة غيرهم يسلكون باسم الفوز والنجاح في الأعمال – خطة ابائهم وأجدادهم في معاشهم ومسلكهم وصنائعهم وعقائدهم حتى أنهم لا يقبلون أن يبدلوا أو يغيروا منها شيئاً جزئياً.

يسكنون البيوت التي سكنها اباؤهم ويأكلون من أنواع مآكلهم ويقلدون آباءهم في ملبسهم وسيرهم. ويمكن أن يقال أن صفة التقليد في النابلسيين تتجلى في أجسامهم وأرواحهم بسائق طبيعي لا صنع فيها. ومن السذاجة الاعتقاد بأن هذه الأفعال الغريزية التي يجرونها ليست مبنية على غاية أو قصد أو أنها غير مقرونة بذكاء. ومجمل القول أن الذكاء والسائق الطبيعي في النابلسيين إخوان لا يفترقان. والأقرب إلى الحقيقة والصواب القول بأن السوق الطبيعي نفسه هو واسطة ذكية مدركة لنوال المقصد المعين باعتبار الاساس. وهذا الادعاء هو أولى من أن يقال أن ذكاء النابلسيين مغلوب لسوقهم الطبيعي فهم يعملون ولا ذكاء كأنهم آلة متحركة بإرادة غيرهم. ولهذه الاسباب نرى النابلسيين متمسكين بدينهم لدرجة أن يقال أنهم متعصبون والسبب في ذلك أنهم وجدوا آباءهم كذلك.

والحاصل أن حب المنفعة والاستفادة الشخصية هي حالة روحية أساسية في النابلسيين. حتى أنه يوجد في نابلس زمرة من الأهلين لا يتحاشون مطلقاً عن اجراء كافة ما يمكن أن يعمله الإنسان لينالوا قصدهم في هذا السبيل. فمثلاً نرى أفراد هؤلاء الزمرة متمسكين بأهداب وظائف صغيرة في الحكومة لا تزيد رواتبها على بضع مئات من القروش مع أن ثروة أحدهم تزيد على ألوف الليرات فيندسون في أقلام الحكومة ويلازمونها من الصباح إلى المساء وهل يظن أن ذلك بلا فائدة أو منفعة؟ كلا! فإن الرجل منهم ينجز أولاً أشغاله

الشخصية التي تقع له بأسهل طريقة وأحسن وجه. ثم أنه يكون محلاً لمراجعة أصحاب المحلات[1] أكثر من مراجعتهم للمأمورين الأغراب بسبب أنه وجه معروف في البلدة. وتراه يقبل الهدايا من جهة. ولا يتحاشى من جهة أخرى عن استعمال كافة ما يمكن اجراؤه من الوسائط بواسطة نفوذ وظيفته لسلب جميع ما بيد القروي وما يملكه. وهم من جهة ثالثة يحلون مشاكل اخصائهم الأقرب فالأقرب بصورة مستعجلة وعلى أحسن طريقة. وبهذه الواسطة يصبحون من أرباب النفوذ والخواطر المعدودة. وبالطبع فإنه تضم إلى رواتبهم الظاهرية التي تتجاوز المئات من القروش كميات كبيرة من الأموال. ولا يتحاشى أمثال هؤلاء الذين يعملون على هذا الوجه عن افشاء الأسرار الادارية أحياناً فمثلاً ينتشر خبر أمر يصدر باجراء التحقيق عن مأمور ويسمع به كل أحد.

وهؤلاء لا يريدون أن يزعل المأمور منهم بسائق المنفعة الذاتية فحينما يأتي المأمور الجديد يستميلونه إلى جانبهم ويتوسلون بسائر الطرق للاستفادة والربح من المأمور الغريب فيدعونه إلى دورهم ويقيمون له المآدب. والحاصل أنهم لا يتحاشون مطلقاً عن صرف الفكر والنقد ولإخراج ذلك إلى حيز الفعل. وبعد أن يستميلوا المأمور إلى جانبهم تماماً يستخدمونه حينئذٍ كيفما يريدون. ولا يتسامحون ذرة بأن يستردوا ما صرفوه عليه أضعافاً مضاعفة ولا يتأخرون عن الاستفادة والربح على قدر امكانهم.

ويتزاحم الخواص من النابلسيين على استمالة المأمور إلى جانبهم وذلك بنسبة نفوذهم. فإما أن تنجح احدى الأسر لحدتها[2] أو لا تنجح فإذا لم تنجح تشعر حينئذٍ بالحاجة لتشريك اسرة أخرى معها بالمسعى فتجتمع وقتئذٍ عدة أسر وتشترك بالربح والاستفادة من المأمور. وكذلك المأمور فإنه يأخذ منهم. ولكن

---

[1] المقصود هو أن أصحاب المصالح يراجعونه لقضاء مصالحهم في دوائر الحكومة.

[2] لوحدها.

الذي يعطونه للمأمور ليس من صناديقهم بل هو من دماء القرويين المساكين والفلاحين الضعفاء. ولا يحق للفلاحين ولطبقة العوام في نابلس مراجعة الحكومة أو المداخلة مع مأموري الحكومة مباشرة. فهم مجبرون على الرجوع إلى الآغا أو الافندي الذي ينتسبون إليه. فإن ذلك الآغا أو الافندي أو البك هو وكيل الفلاح وحاميه وواسطته والقوة الاجرائية أيضاً. والحقيقة الصحيحة أنه الآمر المطلق على الفلاح وعلى غيره من الخلق.

وقد شكل الخواص من النابلسيين شركات انحصارية[1] مؤلفة من عدة أسر للاستفادة والربح بهذه الطريقة ويغلب أن يرأس هذه الشركة الانحصارية المأمور الوطني الأكثر نفوذاً فتعمل هذه الشركة لستر كافة معائب هذا المأمور ولإخفاء نقائصه ولإظهار والنهوض به في نظر الأهلين. وتميل الأسر التي تبقى خارجة عن هذه الشركات إلى الدخول فيها وتسعى وراء ذلك فإن لم تنجح في مسعاها تندفع حينئذ بما عندها من سلاح العقل والمنطق والحق وجميع ما يمكن الاستعانة به من المقدسات وتأخذ بالصراخ والشكاية من ارتكاب هذا المأمور[2] وتنشر قبائحه وتشهرها. وتعمل كافة ما يمكنها من القوى والوسائط لإخراج هذا المأمور من نابلس ولإبعاده عنها.

ولقد كانت هذه المشاحنات على النفوذ تؤدى أحياناً إلى مصادمات دموية فكانت أسرة تستولي على شرقي نابلس وأسرة أخرى تستولي على غربيها فتنقطع الطرق حينئذ ويأخذون باستعمال السلاح ولا تنتهي المسألة ولا ينحل الاشكال إلا بوقوع عدة قتلى. وقد سرت مشاحنات النفوذ إلى الملحقات فاشتعلت نيران الفتن الدموية ذاتها التي تقطن ملحقات نابلس.

---

[1] بمعنى مغلقة ومقتصرة على بعض الأسر.

[2] الصحيح أن يقول: من ارتكاب هذا المأمور للظالم.

ولم تقتصر استفادة النابلسيين على مدينة نابلس بل إنـــها تعـــدت إلـــى أنحائها فشملت قضائي جنين وبني صعـــب الملحقيـــن بنـــابلس. وليـــس أولاد الأشراف الخاندات هناك سوى وسائط بيد النابلسيين.

يصبح موقف الشركات الانحصارية في نابلس مشكلاً جداً أمام المـــأمور العفيف صاحب الناموس فيقبضون على ألسنتهم ويلتزمون الصمـــت طويـــلاً. ولأول فرصة تسنح يعملون كافة جهدهم ويصرفون غاية قواهم لاخراج المأمور الذي يوافق رأيهم ولإبعاده عن نابلس قلنا أن فريقاً من الأشخاص المعروفين في نابلس لا يتأخرون عن اتخاذ كافة أنواع الوسائط لإظهاره مقاصدهم ومآربـــهم المعينة من حيز القوة إلى حيز الفعل. فهم يخرجون أحياناً اتباعهم نساء ورجـالاً وأطفالاً من الطبقة السافلة ويدفعونهم إلى المحلات التي يريدونها وهم يصرخون بأعلى أصواتهم جعنا. أصبحنا عراة. أليس من رحمة عندكم؟

أو أنهم يجمعون هؤلاء الأناس ويدفعونهم على المأمور الذي يريدونـــه فيهينه هؤلاء ويصرخون في وجهة.

والحاصل أنهم يتوسلون بكافة هذه الطرق حتى أنهم إذا وجدوا لزومـــاً يرضون بترك موروثاتهم وعنعناتهم[١] في سبيل الوصول إلى منافعـــهم. ومـــن ذلك ما يعرف من تعمم المشروبات الكحولية بين شبان نابلس في الأيام الأخيرة.

وترى النابلسيين للسبب ذاته على حذر ويقظة في جميـــع معاملاتـــهم. فيبيعون ويشترون باحتراز ودهاء أكثر من اللزوم في المعاملات. ومع ذلك فـــهم يتجنبون كثيراً الضوضاء توصلاً إلى غاياتهم ويظهرون مزية خاصة بتســـوية اشغالهم بدون صوت. ورغماً عن عدم وجود السلام في طباعهم فإن احتياطـــهم غير الاعتيادي بانتهاز الفرص انقذهم من مهالك مدهشة جداً.

---

[١] عنعناتهم: مظاهر التفاخر الكاذبة.

فإذا أحس النابلسيون بمانع في سبيل أشغالهم يعمدون حالاً على تسويته وحله على طريقة سهلة بلا صوت ولا صدى. ينزل النابلسيون بأعدائهم الضربات الثقيلة بصورة خفية. ولا يظهرون أنفسهم في هذه الأعمال مطلقاً. وتتجلى هذه الحالة في أصغر المناسبات والوقائع وقل أن تسمع من أفواه الأهلين في الأسواق وفي مجتمعات الناس ألفاظاً قبيحة أو شتائم. ويمكن أن يقال أن النابلسيين بوجه العموم غير بذيئي اللسان ومع ذلك فإن القلب يميل إلى أن تنمو فيهم تربية روحية خيرية – ويقوم مبدأ اجتماعي مثمر بين النابلسيين الذين جنوا أفضل أثمار الذكاء وهي قوة الاستنباط والاستدلال وتجلت فيهم أوفر مظاهر السعي والغيرة وقبضوا على أقوى عوامل الارادة المتينة. ولكن سقوط السوية الفكرة[1] ويا للأسف في نابلس أسوة لها بباقي المحلات كما سنذكره قريباً مزق أشعة هذه الأنوار الثمينة وأذهبها هباءً منثوراً وباتت نابلس بين مخالب مجتمع ما زال يأخذ بها إلى القرون القديمة.

٢- الحالة الفكرية:

حينما ننظر في الحالة الفكرية في نابلس يجب علينا أن لا نغفل عن النظر بالثلاثمائة شاب نابلسي الخارجين من نابلس. فأن القسم الأعظم من هؤلاء الشبان قد أكملوا تحصيلهم في استانبول وعدداً نادراً منهم أكمل دراسته في أوروبا. وهم داخلون اليوم في وظائف المعارف والعدلية والملكية ويوجد بينهم قسم في وظائف ممتازة وجميعهم خارج نابلس ولقد فاز هؤلاء الشبان باظهار استعدادهم الأساسي في محيط بيروت أولاً ثم في محيط الاستانة وعرفوا معنى الحياة ووقفوا على لوازمها ولهذا صعب عليهم بعد ذلك – الامتزاج على أي وجه كان بمحيط نابلس. وبسبب ذلك أصبح من المحال أن نجد شاباً واحداً نابلسياً أكمل تحصيله وعلمه ثم عاد إلى نابلس واختار الاقامة فيها زمناً طويلاً.

---

[1] الصحيح هو أن تكون الجملة: ولكن سقوط الفكرة السوية.

فإن هؤلاء حينما يعودون إلى نابلس لا يروقهم شيء من حالاتها مطلقاً فمثـــلاً يصعب عليهم اخراج البوتين[١] من أرجلهم والجلوس على المطارح[٢]. كما أنهم لا يطيقون رعاية المراسم الشرقية التي لا تحتمل. فلا تعجبـــهم مـــآكل أهليـــهم الثقيلة ولا مسامراتهم ولطائفها البسيطة. ولا القيل والقال المعتاد في البيوت. ولا يمكنهم تعويد أنفسهم على الأكل باكراً والنوم باكراً والتردد ذهاباً واياباً من الدار إلى العمل ومن العمل إلى الدار. ويصعب عليهم جداً قطع علاقاتهم مع العـــالم بسد آذانهم عن كافة تجليات الكائنات وأذواقها حتى عن الشعر والموسيقى. ومن المحال أن يعثروا في نابلس على رفيق لهم قد ارتقت حالته الفكرية ولو شـــيئاً قليلاً. ولهذه الأسباب نرى اولئك الشبان مضطرين للفرار من دورهم المنحطـــة سقوفها المتعفنة جدرانها الرطبة أهويتها. ومن طرقهم المظلمة التي تشبه الانفاق وللابتعاد عن الشفاه التي تهمس بالجهل وعن النظرات الخالية من كل معنـــى. فتنمو في نفس الشباب ضرورة الابتعاد عن نابلس تخلصاً من هذه الحـــالات ولا تلبث أن يترك وطنه نابلس.

من الغريب أن أكثر الذين أكملوا تحصيلهم هم أولاد المنتسبين لطبقـــة الخواص. فإن هؤلاء الخواص يحبون ارتقاء أولادهم وتعليمهم وتربيتهم لدرجـة عالية. والغالب أنهم يتباهون بذلك. ولكنهم لا يعيرون سمعهم مطلقاً لنداء كثيرين من هؤلاء الشبان ولاشتكائهم. ورغماً عن حرمان أكثرهم[٣] من أولادهم فإنـــهم يجدون لذة بالبقاء على ما هم عليه من الحالات. بل هم يحفظونـــها ويثـــابرون عليها. ولا ريب أن مصادمات الغلبة والترجيح التي تقـــع يومياً بيـــن القديـم

---

[١] البوتين: الأحذية.

[٢] المطارح: الأماكن.

[٣] الأكثرية.

والحديث يُغلب فيها الشبان بصورة دائمة. فلا يجدون وسيلة حينئذٍ سوى الفرار من بلدتهم.

إن العامل الأكبر بتغلب القدماء هو اتباع خطة المحافظين بصورة مفرطة واعتناء النابلسيين جداً بالمحافظة على العادات القديمة بصورة خاصة.

إننا لا نشمل في قولنا هذا طبقة العوام في نابلس أو طائفة السامرية. فإن هؤلاء جميعاً منحطون درجات كثيرة عن طبقة الخواص وليس لأحد منهم حق الكلام مطلقاً في نابلس. وبناء على هذا فإن الانقلاب الفكري الذي يقع في نابلس إنما يظهر من طبقة الخواص فقط.

إن تحصيل الشيوخ من طبقة الخواص وعلمهم ناقص على وجه العموم. بل هو كل شيء. ورغماً عن وجود عدة منهم واقفين عى العلوم الشرعية غير أن هذا غير كاف بالطبع. أما الشبان المقيمون في نابلس فقسم قليل منهم قد اكتفى بالتحصيل الاعدادي والقسم الأعظم منهم قد اقتصر على التحصيل الابتدائي ولهذه الاسباب فإنك لا تسمع من أفواه طبقة الخواص حتى تعصباً أعمى مطبقاً. فتعصب هؤلاء الطبقة عبارة عن الوقوف حجر عثرة في وجه كل تجدد وهم لا ينفكون لحظة عن اقامة العراقيل. يعملون ما يرونه فقط. يقلدون الشيء حرفاً بحرف. لا يهتمون مطلقاً ولو اختلطت الكائنات ببعضها. لا يعرفون سوى المعيشة براحة في دورهم. ولا يتخطرون المعيشة على شكل مدني. لا يحبون التعلم. ولا يميلون للوقوف على قواعد الصحة وشروطها. وحاصل القول أن هذا التعصب المظلم هو عِقاب عذاب قد أطلق جناحيه فوق الاستعداد القابل للانكشاف فمزق بمخالبه الفتاكة كافة ما في نابلس من الذكاء. بل فتت أعظم جسد الارتقاء القابل للنمو في نابلس.

٦- الحالة الصحية[1]

ليس من الصعب تعيين الحالة الصحية في نابلس بمقتضى ما شرحناه حتى الآن من الحالة الاجتماعية ومن طراز المعيشة فيها ولكن رغبة بأن نذكر رأياً صائباً عن ذلك – قابلنا طبيباً قديراً عرف في نابلس منذ مدة بخدمته الحسنة وقد زار أكثر البيوت النابلسية تقريباً أن لم نقل جميعها وسألناه رأيه في هذا الأمر. ويظهر من رأي الطبيب المومى إليه أنه رغماً عن أن نفوس نابلس لا تتناقص يوماً بعد آخر ورغماً عن بقائها محافظة على عدد نفوسها فان اعتبار ذلك فألاً حسناً والاعتماد عليه بعدم وجود التناقص في نابلس أمر غير صحيح مطلقاً. فإنه من الحقائق العظيمة التي لا تنكر تفشي مسألة تعدد الزوجات في نابلس بصورة مستولية. وتهالك الأهلين عموماً على الاستيلاد الكثير. ولا حاجة لمراجعة قيود النفوس أو الاطلاع على الاحصاءات الحقيقية حتى نقف على الاعداد الكبيرة في ذلك. بل يكفي للوقوف علىذلك الخروج مساء أي يوم كان إلى أزقة نابلس والسير فيها مدة. فإنك تجد فيها اقطاعاً كبيرة مؤلفة من مئات من بني الانسان الصغير. ويستلفت نظرك لأول وهلة الزيادة العظيمة في أولئك نعم أن في كل عائلة نابلسية على الاطلاق خمسة أطفال أو عشرة على الأقل. ولكن هؤلاء الأطفال داخلين تحت تأثير قانون الاصطفاء الطبيعي. فقد حكم بالموت على ثمانين في المئة منهم بصورة قطعية. أما العشرون الباقون منهم فيغلب بحقهم قانون تنازع الحياة ومجادلة البقاء. وباعتبار النتيجة يظهر للمدقق أن المتوفيين من الأطفال وبقية الوفيات من الكبار هي مساوية تماماً لعدد التولدات ولهذا فإن إبرة المجموع في النفوس لم تتبدل ولم تتغير عن موقعها ومع هذا فإنه يجب علينا أن ننظر في الأسباب التي تؤدي إلى كثرة الوفيات بين الأطفال وأن نشرح أسبابها:

---

[1] للمزيد عن الأمراض التي ترد هنا انظر الموسوعة الطبية.

فالأسباب في هذا الأمر عديدة: إذا نظرنا أولاً كيف يحصل الولد وكيف تكون حالة أبويه اللذين يجيء منهما نفهم حالاً درجة فقدان الشرائط الصحية في الزواج. فإنه من المباح في أكثر بلادنا أن يتزوج الشيخ والد العشرة أو الخمسة عشر ولداً بابنة لا يتجاوز سنها الثانية عشر أو الرابعة عشر. ومن المحتمل أن يكون زواجه بها الزواج الثالث أو الرابع. ومن الأمور التي تستحق الذكر سوء الاستعمالات التي تقع في الصغر والكبر. وإذا أضفنا إلى ذلك رطوبة الهواء في دور نابلس وسوء التغذية – يحصل عندنا فكر تام عن البحث الذي نتكلم عنه. ويغلب أن يكون أكثر الأمهات مصابات بالروماتيزمه أو معلولات بسبب سوء التغذية بمرض آخر يسمى رخيص. وفي الوقت ذاته يكون البذار فاسداً وبناء على هذه الأسباب فإن الطفل إما أن يسقط من نفسه وهو جنين. أو أن يختنق بعسر الولادة التي تحدثها علة (رخيص) أو أنهم يضطرون لتجزئة الطفل بالآلات وإخراجه.

ولنفرض أن الولد يتحمل جميع هذه المشاق ويبرز إلى عالم الوجود فأنه يقع حالاً في مشاكل الحياة بمعيشته ونموه فيصاب منذ صغره بالروماتيزمه فتتألم أوراكه حتى لا يمكن أن تمس. وحينما يكون الطفل ابن الشهر أو شهرين يباح له سوء التغذية التي اعتادت عليه والدته فإن كانت حالة العائلة مساعدة أصبح الطفل يأكل كل شيء يجده. بل أصبح كل فرد من أفراد العائلة يدس في فم الطفل ما تصل يده إليه. وأما إن كانت العائلة فقيرة وصادف أن لبن الأم قليل فإن الأم تمضغ قطعة من الفجل بفمها وتطعمها للطفل. فلا يمضي زمن قليل حتى يمرض الطفل طبعاً. ولا يعتقد النابلسيون بالطب والدواء ليعالجوا أطفالهم. على أن تأثير المعالجة في مثل هذه الأحوال والظروف لا يكون مفيداً وينتهي الأمر بموت الطفل المريض. وفي دور كثيرين من طبقة العوام في نابلس يقضي جميع أفراد العائلة في غرفة واحدة فإذا ظهر السل أو التيفوس أو الجدري في محل أصيب به جميع من تحويهم الغرفة صغيراً كان أو كبيراً

وربما أتت عليهم جميعهم. ومن العوامل المؤثرة التي تقضي على حياة أطفال نابلس وتطفي زهرتهم طواف الأطفال حفاة عراة في الأزقة. وتدنسهم بالأتربة وعدم اكتسائهم جيداً ونومهم في المحلات المكشوفة وأمثال ذلك من الأسباب المضرة.

ولهذه الأسباب كانت وفيات الاطفال خاصة في نابلس تشكل مجموعاً مؤلماً جداً. وربما تظهر أحياناً أمراض معينة تفتك فتكاً فجيعاً في الأطفال. ولقد قتلت علة الحميراء التي ظهرت عام ١٣٢٨ هـ (١٩١٠م) ٥٠٠ طفل.

أما الذين لا يموتون صدفة فأكثرهم يعيشون وهم مرضى فأما أن يصابوا من الرطوبة بنزلة مزمنة أو يصابوا بمرض العيون ....ولا ننسى القول بأنه ليس في النابلسيين رغبة بالنظافة فرغماً عن كثرة المياه في نابلس فإن الذين لا يغسلون وجوه أطفالهم مرة في بضعة أيام عدد غير قليل فهذه الأسباب وأمثالها تفقد نابلس ثروة انسانية ثمينة جداً. إن صحة الرجال في نابلس مؤلمة جداً فقد توفى منهم في الأيام الأخيرة ٦٠ أو ٧٠ بالهواء الأصفر[١] و ٤٠٠ أو ٥٠٠ بالتيفوس. وعلاوة على هذه الأمراض فإن الأمراض المعتاد وجودها قديماً كثيرة وكذلك المصابون بها فهم عدد وافر.

وفي نابلس أنواع للسل فيوجد فيها السل الرئوي و السل المعوي والسل العظمي. ويكثر وجود السل العظمي أكثر من سواه وسببه الابتلاء بالروماتيزمه.

وتحصل علة المالاريا بسبب كثرة المياه وتوزعها في الوادي. والأمراض الصدرية بسبب الأوساخ والأقذار. وعلل المعدة والأمعاء بسبب سوء التغذية. ولكل علة من هذه العلل تأثيرات وبيلة.

وفي بعض الأسر النابلسية علل إرثيه خاصة بها. ولقد كان اصرار هذه الأسر على تزويج ابنائها ببعضهم منذ القديم سبباً لبقاء هذه الأمراض الإرثيه

---

[١] الكوليرا.

فيما بينهم. وفي نابلس أسر تصاب عموماً بأمراض القلب أو بالأمراض البنيوية أو الجلدية أو بعلة البله ويمكننا أن نشير إلى وجود مـــرض الافرنجـــي أحـــد الأمراض الزهروية بين العلل والأمراض الإرثيه. أما الافرنجي الجديـــد فـــي نابلس فهو أقل جداً من الافرنجي الارثي. ويخمنون مقداره بأربعة أو خمسة في الألف.

ومن الأمراض الزهروية الموجودة في نابلس علة حرقة البـــول فإنـــها منتشرة بكثرة. نعم إنه لا يوجد في نابلس محلات عمومية ولكن زيـــادة وجـــود المناسبات غير المشروعة بين الخلق يؤدي إلى زيادة حرقة البول.

ويوجد في نابلس من الأمراض الجلدية الأكزما ومن الأمراض العقليـــة البله وخصوصاً النورستاني والهستيريا ومن الأمراض الروحية المعروفة في نابلس مرض السير في المنام وتعدد الشخصيات. وأن الجهل والظلمة الفكريـــة لزيادة هذه الأمراض. وبسبب ما في النابلسيين من الاستعداد للتصديق والتســليم بأقل شيء فإنهم معرضون للتنويم المغناطيسي مانياتز بأسهل الطرق.

وحاصل القول أنه يمكننا جمع كافة أسباب هذه العلل تحت قاعدة واحـدة وهي: النابلسيون لا يعرفون معنى الصحة، ويجدر بنا أن نُضيف على ذلك قولنا أن صحة المرأة هي أحط من صحة الرجل بدرجات. فإن حياة المرأة كما قلنـــا قبلاً لا أهمية ولا اعتبار لها في نظر الرجل مطلقاً. حتى أنهم يظنون أن كافـــة النعيم والراحة حتى الغذاء مختص بالرجل دون المرأة. ويمكننـــا أن نقـــول أن بعض الأسر وخصوصاً الرجال أرباب الحرص منهم فإن الرجل يـــأكل اللحـــم وتكتفي المرأة القنوعة بأكل الخضر فقط. ومن الأمور المشهورة كثيراً أنه بينمـا تكون المرأة تعالج الروح بعسر الولادة أثناء وضع الحمل – فإن زوجها يســتلقي على ظهره وينام كأنه لاعلم له بشيء مما يقع.

٧- اللسان والأدبيات

إن اللسان الذي يتكلم به النابلسيون هو العربية العامة[1] التي يتكلم بها السوريون عموماً ولا يوجد في نابلس لغة قائمة سوى هذه. وبسبب خروج الذين نشئوا من مكاتب الحكومة الرسمية من نابلس وتركهم إياها أصبح الذين يعرفون اللغة الرسمية عدداً معيناً من المأمورين ومن الأهلين. ورغماً عن عدم افتتاح مكاتب أجنبية في القصبة فإنه يوجد للأمم المسيحية في نابلس مكاتب خاصة بها فلكل من الكاثوليك والارثوذكس والبروتستانت مكتب. ولا يتجاوز عدد الطلبة في هذه المكاتب الخمسين والستين وذلك بسبب قلة عدد المسيحيين في نابلس. ويتعلمون في المكتبين الأولين الفرنساوية وفي الثالث الإنكليزية ويخرجون منها. ولهذا ترى فريقاً من أبناء المسيحيين يعرفون هذين اللسانين. أما المسلمون فإنهم لا يدخلون أولادهم في هذه المكاتب ولكنهم يرسلونهم إلى مكاتب القدس وحيفا وبيروت ولبنان. فإذا لم ندخل الذين تعلموا اللغة الأجنبية خارج نابلس في الحساب نجد أن الذين يعرفون اللغة الفرنساوية بصورة ضعيفة من المسلمين لا يتجاوز عددهم العشرة أو الخمسة عشر. وبهذا الاعتبار فإن اللغة المعروفة المعتمد عليها في نابلس هي العربية.وإذا أردنا أن نتصور مركزاً للهجة اللغة العربية التي يتكلم بها أبناء الأنحاء الجنوبية من بيروت لا نجد محلاً أليق من نابلس لإنزاله هذه المنزلة. فالعربية في جنين وبني صعب وبيسان هي عربية نابلس بفروقات قليلة.ويجد أبناء القسم الشمالي من بيروت الذين يحضرون إلى هذه الجهات فرقاً تاماً في اللهجة. فيلفظون هنا الأحرف الأولى من الكلمة من مخارج ثقيلة ويلحنونها بصوت مرتفع. ويخففون آخر الكلمة بلفظها وبلحنها.

---

[1] العامية.

وبالوقت ذاته يلتزمون الامالة ومد نهاية الكلمة. كما أن تمديد آخــــر الكلمـــات يستلفت النظر كثيراً في اللغة العبرانية.

يظهر النابلسيون حرف (ق) ويضيفون خصوصاً حرف (ش) في أواخر الأفعال المنفية. وهذا الحرف مخفف من كلمة (شيء) فمثلاً يقولون (ما قلتــوش) عوضاً عن قولهم (ما قلت له شيئاً) ويحسن بتكرر حرف (ش) بصورة ظــاهرة. وعلاوة على ذلك فإنه يوجد عدة كلمات مستعملة في نابلس فقط وهي لا تتجاوز الخمسة أو العشرة. ويفهم من هذا أن اللغة العربية العامية في نــــابلس ليســت ألغازاً لا يقدر على فهمها الآتون من جهات سورية الأخرى. أما اللسان العربــي الموافق لقواعد النحو والصرف فليس مهجوراً تماماً. فإن عدة رجال من أربــاب الوقوف على الأمور الشرعية يتكلمون به بسهولة. ومما يستلزم الإشــــارة إليــه وقوف عدة من المنسوبين للمعارف على اللسان العربي الفصيح ومعرفتهم بــــه. ويتهالك أمثال هؤلاء القوم على قراءة الأدبيات العربية ويحفظون كثـــيراً مـــن أشعارها ويعتنون باقتباس شيء من بدائع الشعر العربي القويم ولهم حظ ولـــــذة بالاشتغال بذلك. ولا يعتد المعتنون ببدائع الآثار العربيــة بأدبيــات العــوام ولا يعتنون بها مطلقاً. أما غير الواقفين على اللسان العربي الفصيــح فــإن مســألة الأدب والآثار العربية لا تشغل حيزاً في أذهانهم مطلقاً. وينظــر هــؤلاء إلـــى الأغاني التي يترنم بها الأهلون وتتغنى بها النساء في الأفراح و إلى ضــــروب الأمثال المتناقلة بين الألسن و إلى التهليلات التي تكررها الأمهات يومياً – نظرة أغنية وضرب مثل وتهليله فقط.ولا يحب الواقفون على اللسان العربي الفصيـــح أن يعرفوا أن لمثل هذه الآثار قيمة واعتباراً. فإذا سألتهم عـــن أغنيــة أخـــذوا يضحكون وإذا كان المسئول متقدماً في السن يهز كتفيه ويجيبك بقوله أغنية بعـد هذا السن؟

ولو أمعنا النظر نجد أن للأدبيات العامية في نابلس تأثيرات كبيرة جداً. وكم من الآثار العامية التي لها علاقة وارتباط بالحالة الروحية والحالة الاجتماعية والحالة الفكرية في نابلس.

ومما يستلفت النظر الأغاني التي تنشدها بنات نابلس حين اجتماعهن في الأزقة وتسمى المدحيات. ويكثر نشيد هذه الأغاني في ليالي رمضان وقد رتبت على شكل محاورات. فتجتمع البنات أفواجاً أفواجاً وبيدهن الفوانيس. وينشد قسم منهن بلسان واحد قسماً من هذه الغنية فيجيبهن الفوج الآخر بالقسم المقابل لها. وربما قمن بانشاد أقسام المحاورة على الانفراد. ولا ريب أن معرفة المنشد الأول لهذه المقطعات التي تنشدها البنات الضعيفات بكل شوق ورغبة أمر غير ممكن. ولكنني أرى أنه لا يمكننا الاعتقاد بأن منشد هذه المقطعات هو شخص معين. بل الأولى الاعتقاد بأن تغنى البنات بمثل هذه الأناشيد في أشهر رمضان وتكرارها كل عام يؤثر في نفوسهن وينهض بهن شيئاً قليلاً فيضفن على ما ينشدنه كلمة من في كل عام فتصبح هذه الآثار الأدبية نتيجة تأثر عمومي مشترك. وباعتبار بأن مثل هذه المقطعات هي النقطة الرقيقة الشديدة الحس في الأرواح فيجب التدقيق والبحث فيها. ويمكننا أن نقدر عدد هذه المحاورات المنظومة بعشرين أو ثلاثين. ويوجد بينها التام والناقص الذي لم يكمل بعد. وأننا نذكر هنا واحدة من الأناشيد التامة.

– من محاورات البنات –

بنياتي بنياتي
نعم يا أمي نعم يا أمي
بزوجكم بزوجكم
لمن يا أمي لمن يا أمي
إلى الوالي إلى الوالي
تسلم ايدو تسلم ايدو (يده)

بزوجكم بزوجكم

لمن يا أمي لمن يا أمي

إلى الفران إلى الفران

ما من ريدو ما من ريدو (ما نريد)

وكثيرا ما تمتد الأسئلة والأجوبة في هذه المحاورة. فنكتفي بذكر بعض منها: ألا أزف ولمن يا أماه؟ وبعد تكرار هذه الأسئلة يهتفن:

إلى البنا. إلى البنا.

بنكسر ايدو بنكسر ايدو

إلى المتصرف. إلى المتصرف

تسلم ايدو تسلم ايدو

إلى البياع. إلى البياع.

ما من ريدو ما من ريدو ...... الخ

فما أعظم المعاني العميقة في هذه الاعترافات التي تتدفق من قلوب هاته المعصومات الصغيرات؟ وما دام أمر الزفاف هو الفكر الوحيد الذي تتصوره البنات وهن صغيرات. فمسألة الزواج إذن هي مسألة انتخابية وقد أصبح المتصرف أو الوالي أنسب زوج يزف للبنات في المحال التي يحدث فيها النفوذ تزاحماً مدهشاً والتي يميلون فيها إلى المأموريات. حتى أن الفاعل والبائع والفران أضحى في أنظار الشعب مخلوقاً منفوراً يجب كسر يده. فإذا قضى نصيب هاته المسكينات عليهن ووقعن في أيدي بائع ... فلا حاجة لتصور ما يحدث بعد ذلك...

ويستجلب النظر في محاورتهن الأخرى مسائل غير هذه. فالبنات اللواتي يرغبن الزواج ينفتح أمامهن طريق آخر الزواج أولاً والطلاق ثانياً. ومهما تنمو في نفوسهن آمال ورغائب لأجل فإنهن يعلمن جيداً بأنه يحكم عليهن يوماً من الأيام بالهجران. ولا يخفى على هاته البنات وهن في ريعان الشباب ما

سيصيبهن من المضار والاضطراب إذا أخذ أزواجهن امرأة أخـــرى عليـــهن. لأنهن يشاهدن كل يوم في بيوتهن هذه الحـــالات. ويشـــاركن أمهاتـــهن قـــدر استطاعتهن بالمآتم والأحزان التي يصبن بها. ويعرفن أن الـــزوج إذا أحضـــر للزوجة الجديدة أساور من ذهب فهو لا يحضر شيئاً مطلقاً للزوجـــة القديمـــة. فنصيب الجديدة الضحك ونصيب القديمة البكـــاء. ولا يفـــارق هـــذا النصيـــب المشؤوم النسوة حتى آخر حياتهن. ولو تركن الحياة فإن الزوجة الجديدة تلـــف بالحرير ويستكثر على الزوجات القديمات اللواتي أهملن وتركن قطعة من الجلـد العادي يكفن بها. ولمعرفة البنات بهذه الأحوال فإنك تسمع منهن شكايات خارجة من أعماق أفئدتهن. ولا يغفلن دقيقة عن تمني الضرر للضرائر والدعاء عليهن. وإن الشكايات الآتية هي من هذه القبيلة. فنسمع البنات يكـــررن بلســـان واحـــد النغمة التالية:الوردي ما هو عندي ... والوردي عنـــد الضـــرة ... الله يضـــر الضرة ... واللي نايم عندها وأن هذه الأدعية تبقى ملازمة لهاته البنيات حتـــى النفس الأخير من حياتهن.

وتتضمن بعض محاورات البنات أحياناً الكـــلام عـــن بعـــض المـــآكل المعروفة في نابلس أو عن فريق من أرباب الصنائع. ويشير قسم منها للرغبـــة بالذهاب إلى الحج وزيارة الروضة المطهرة. وحاصل القـــول أن جميـــع هـــذه المدحيات قد أحدثت تأثيراً مهماً في حياة نابلس المحلية وهو أمر مشاهد.

وعدى عن المدحيات فإنه يمكننا أن نذكر شيئاً من التهاليل التي تســتلفت الأنظار.

تهليلة

نام يا عيوني نام　　　عين العلا ترعاك
نام وانشرح وعليك　　　عمك فلان سهران
سهران بين رجليك　　　ينشد لك الأشعار
يا قمر الحوش يا قمر الحوش　　　يا مؤنس أمك من الخوف

لولا جمالك الفتان	ما بقى بعين أحد نوم
نام يا عيني نام	لذبحلك طير الحمام
يا حمام لا تزعلوا	اضحكوا على فلان

وربما تكون الأم تهز سرير ولدها وليس في الدار معها سوى طفلها. أما والد الطفل فمع زوجته الجديدة ولا ريب أن هذا الطفل يصبح سلوى والدته الوحيدة.

وفي نابلس تهليلات أخرى تبدأ بقولهم:

يا هادي الهدايا. يا مكسي العرايا..........

فنرى من الزائد درجها افرادياً. ولكننا نشير إلى أنه توجد تهاليل غير هذه معلومة في محلات أخرى ولكنها سارية إليها لقرب هذه القصبات من نابلس لمجاورتها لها. ومع هذا فإن ترجيح استعمالها على غيرها ناشئ ولا ريب عن استلفاتها النظر.

ولا نهمل الإشارة للأغاني التي يتمرنون بها في نابلس.وأن أعظمها طرباً هي الأغاني التي ينشدها بفم واحد رجال طبقة العوام حينما يجتمعون في محل واحد ويأخذون بالتصفيق بأيديهم. وأن المعتبر من هذه الأغاني عند هؤلاء هي المواليات البغداديات وفاتحتها أي مقدماتها ما يسمونه بيتات الموالية ولا يتجاوز عدد هذه الأناشيد الأربعين أو الخمسين. هذا إذا نظرنا إلى ما يقال منها في نابلس. فيأخذ أصحاب الأصوات الجميلة بإنشاد افتتاحية بيتات ثم يغني واحد من المجتمعين واحدة من المواليات البغداديات ولا يكاد ينهي الصراع الأول وهو قوله:

بدنا الاماجد يا سبع الفلا والغاب ....

حتى يعيد المجتمعون بلسان واحد أحد البيتات. وحينئذٍ ترتفع أصوات الحاضرين جميعهم بطرب زائد ويقولون:

تحت هودجها وتعالجنا

صار سحب السيوف يا ويل ...... الخ

ثم يعودون إلى المواليات فينشدون مصراعاً آخر وهو:

بهمتك يا بطل تخشى أسود الغاب

وعلى هذه الخطة يثابرون على نشيدهم.

ويمكننا أن نذكر هنا مثالاً من الأغاني الوطنية في نابلس التي قيلت بحق رجل يدعى طيار باشا كان حاكماً في نابلس وقد ترك فكرة رديئـــــة باســـتبداده وهي:

يا ويلا يا ويلا. يا ويلا المصائب

الله يا الله. محمد رسول الله

خنزير الشيب عبدناها الصلايب

طيار باشا ويش لك علينا

بارود فينا يا زخ المطر

يا ويلا يا ويلا. يا ويلا المصائب.......الخ

وقد دارت هذه الأغنية على الألسن منذ سنين عديدة. ولا يزالون يكررونها بتأثر وتهيج. وتوجد مقطعات أخرى جعلت للمراقص في الليل ومنها.

(أغنية)

حس[1] طيره مغربيه

على سور إسكندريه

كلمتني. كلمتها

قالت أنا النابلسية.......

ويشبه ذلك أيضاً:

---

(1) صوت.

سروج الخيل يا غاوي

أتقنطر يا المعناوي

أو

عبلة يا موالينا

أشبه بللي تماشينا

ولا يزالون يكررون مثل هذه الأغاني المبتدأة بمثل هذه المقدمات. وتبلغ هذه الأغاني عدداً وافراً.

ونرى أن كافة هذه الآثار المستعملة في نابلس هي شبه موزونة. وإن لم تكن موزونة فإن بين مصراعاتها قرباً باعتبار النغم. وتتغنى البنات الصغيرات في الأيام الأخيرة مقطعات افرادية تعلمنها خاصة في المكاتب مثل:

يا معشر البنات

هلموا للعلوم

فليس من حياة

إلا بها نقوم

أما الصبيان الذين ينشأون في مكاتب الذكور فإنهم يتعلمون أغاني الحرية والوطن باللغتين العربية والتركية وينشدونها.

وأما ضروب الأمثال المستعملة في نابلس فإنها تبلغ المئات عدداً. ومن الأمور السهلة على النابلسيين أقوياء الحافظة والذاكرة اتباعهم طريقة ضرب الأمثال المتداولة بين الرجال والنساء في نابلس في كل كلام والإتيان بمثال منها لكل مسألة وذلك إقناعاً لمخاطبهم. ويوجد بين هذه الأمثال قسم معروف بين الأمم الأخرى ومستعمل في غير السنة ومنها:

اسمع وطنش

أقل لك يا جْارة حتى تسمعي يا كنة

وتوجد ضروب أمثال أخرى غير مختصة بنابلس ولكنها مستعملة بين كافة المتكلمين بالعربية ومنها:

عصفور كفل زرزور طلعوا الإثنين طيارين

كل من ركب الخيل ما صار خيال

ويمكن أن يقال أن كافة ضروب الأمثال في نابلس هي من هذا القبيل. وكما أنه يوجد بين ضروب الأمثال هذه شيء يتضمن رموزاً ومعان ثمينة فإننا لا ننكر أن قسماً منها خارج عن حدود الدائرة الأخلاقية. هذه هي الحالة الأدبية في نابلس.

أما الصنائع الفنية:

فلا شيء منها في نابلس.وإذا استثنينا فوجين من المغنيين الذين يستخدمونهم في الأعراس. وعدة من العازفين على الآلات الذين ضلوا طريقهم ورمتهم الصدفة في نابلس فإنه يصعب جداً العثور على أثر للموسيقى فيها. وإذا فرضنا وجود واحد أو اثنين من الذين يضربون على العود بصورة خصوصية فإن هذا الأمر لا يكون وسيلة للكلام عن النابلسيين باسم الموسيقى وكذلك حالة العزف على البيانو. وخلاصة القول أن النابلسيين يكتفون بالأغاني التي تتبعناها في قسم الأدبيات تطيباً لأذواقهم وتلذيذاً لأسماعهم.

-٥-

السامريون

١ – محلة السامريين

ما أصعب الحياة والثبات على فكرة معينة وتصور مخصوص وسط هذه الكتلة البشرية المؤلفة من الملايين؟ كم هي حاجة الإنسان لأن يكون قوياً حتى يتمكن من البقاء في ساحة التنازع التي تعمل فيها عوامل غير محدودة كالدين والعنصرية واللسان فضلاً عن ألوف من أسباب الاختلاف والتشتت؟ لا ريب أن الوقوف أمام عاصفة الزمان العظيمة التي طفت أضواء أعظم الأديان ظهوراً. والتي هدمت أمتن الهياكل العنصرية وقلعتها والتي أسكتت أرن الألسنة – وقفة الفراشة الساكنة بنحافة الورقة ثم التمكن بعد ذلك من المحافظة بصورة دائمة ومحققة على الدين والعنصرية واللسان – لهو انتصار باهر وكامل.

ولكن لأي درجة يمكن أن يصل السامريون إليها في انتصارهم هذا الباهر؟ لا أنكر إنني حينما ألقيت أول خطوة في المحلة التي يقيم فيها السامريون أخذت تتوارد على دماغي هذه الأسئلة توارد النحل في خليته: "أدين. عنصر. لسان. غاية خيالية. ولا يبلغ أفراد هذه المبادئ المائة والستين شخصاً؟ فما أعظم الثمرة التي اجنيها من مشاهدتي بعيني ومن سماعي بأذني ومن أدرا كي بكافة حواسي هذا الدين الضعيف وتلك الملة الضئيلة وذلك اللسان المضمحل والمنطفئ وهاتيك الفكرة الخيالية المتلاشية"؟ كنت أكرر هذه الأسئلة في دماغي وأنا أقطع أزقة نابلس والعجب آخذ مني مأخذه من الصدفة التي أوقعت هؤلاء المائة والستين شخصاً في هذه الأعماق المجهولة؟

وحينما قربنا بعد قليل من منتهى محلة الياسمينة في الجنوب الغربي من نابلس أخذنا نقطع الأنفاق الضيقة والكئيبة والتي ضربت الظلمة والعفونة أطنابها

فيها. ولم يكن المنديل الذي بيدي يكفي لمنع شم الروائح الكريهة الخارجة من تلك الجدران المتهدمة والرطبة ومن هاتيك السقوف العنكبوتية الموحشة. ولا يعلم كم مضى من السنين على هذا الهواء القديم المتعفن وهو يتموج في هذه الأنفاق التي لم تر وجه النور منذ مئات السنين؟ بل ما هو عدد الدور التي يدخل إليها هذا الهواء من أبوابها الضيقة والمنحطة وهو مشبع بجراثيم الأمراض. هذه هي محلة السامريين. وكانت خاتمة طريقنا معوجات ضيقة وخفية. وبعد أن قطعنا بابين من الحديد وفسحة وسلماً صغيره دخلنا بعد السلم باب غرفة صغيرة. وبعد مسافة قليلة سمعنا من شفتي رجل يلبس عمامة حمراء صوتاً يقول: كنيسة السامرية ففهمنا حينئذٍ أننا في معبد السامريين.

٢- معبد السامريين وتوراتهم

غرفة مربعة الشكل ضيقة ومنحطة السقف... قد أقيم على طولها دكه بارتفاع نصف متر وقد فرشت الدكة بطراحة فاسدة اللون ومعفرة. تمتد وتقتصر تلك الطراحة حسب اقتضاء الغرفة. وفي مدخل الغرفة باب قصير من الحديد. وعلى الطرف الآخر خزانة من البلور لحفظ الكتب وفي داخلها كمية من الكتب المجلدة الكبيرة وأمام الدكة خوان صغير أسود اللون وفوق الخوان دواة وقلم....

كانت هذه الحجرة بهيئتها الحاضرة لا تشبه الكنيسة ولكن نهض بضع رجال رحبوا بنا وقدموا لنا محلاً للجلوس وقد اكتسوا ألبسة بيضاء خالصة وعلى رؤوسهم طرابيش وفي أرجلهم قلاشين وأحذية سوداء ورغماً عن طول شعر رؤوسهم ولحاهم وشواربهم التي تركوها للطبيعة ولم يقصوا منها شيئاً فقد كانوا شباباً. فجلسنا في جانب مكتبة الحجرة التي طليت جدرانها جيداً بالكلس وصادف جلوسنا تحت لوحة من الحجر علقت على الجدار وقد حفرت عليها أحرف سامريه. وكان الحاضرون بأنوفهم الطويلة والمعوجة تظهر على هيئاتهم

النبيلة حالة التفكر. وبعد مدة دخل رجل ذو لحية سوداء اكتسى غنبازاً أبيض وفوقه رداء وعلى رأسه طربوش وعمامة حمراء فقال الجاضرون هذا وكيل كاهننا لأن كاهن السامريين ورئيسهم الديني وهو عمران بن اسحق بن عمر كان في القدس. وبعد مدة نهضنا جميعاً لمشاهدة معبد السامريين فخرجنا من الباب الذي دخلنا منه أولاً فذهب اثنان من الشبان ثم عادا ولا أعلم من أين أتيا إلينا بمفتاحين كبيرين. ففتح الباب المنحط بصوت أرن. وبعد أن نزعنا أحذيتنا دخلنا المعبد. وهو عبارة عن محل ضيق. حالك الظلام. سقفه قبة. وقد جعل في وسط القبة وفي أعلى نقطة من الحجرة نافذة من البلور يدخل منها إلى المعبد ضوء ضعيف قاتم فيضرب الجدران المطلية بالبياض ثم ينعكس على الحصر المفروشة في الأرض ثم فتح أمامنا على الجانب الأيسر من المدخل شيء يشبه ستار يشبه سرير أو مروحة لينة ووضعت أمامنا محفظة تشبه الكرسي المرتفع. وكانت هذه المحفظة مغطاة بقطعة مطرزة. ثم أخرج من محل مستور اسطوانتان من المعدن الأصفر المنقوش ووضعتا فوق المحفظة. وتفتح إحدى الأسطوانتين من الجهة اليمنى والأخرى من الجهة اليسرى. وكانت تظهر على لوح يشبه الورق خطوط وسطور بالعبرانية قد شاخ لونها لمرور الزمان وحينما قربنا منها تحققنا أن الورق القديم هو عبارة عن رق[1]. وبدأ حينئذ الرجل الذي فتح لنا اسطوانتي توراة السامريين وكتابهم المقدس يشرح لنا عنها فقال:

"كتب هذه التوراة على جلود القرابين قبل ثلاثة آلاف وثلاثمائة وكسور من السنين أبو شوع بن فنيحاس بن العازار بن هارون أحد أحفاد حضرة هارون أخ حضرة موسى. وعرضها ٥٥ سانتيماً وطولها ٢٣ متراً و٦٠ سانتيماً. وأن التوراة الحقيقة للمتمسكين بالديانة الموسوية في الدنيا هي هذه. فيجب أن تكون

---

[1] جلد.

الأوامر القدسية في هذه التوراة دستوراً للعمل لكافة الموسويين. وأن كل نسخة تخالف هذه التوراة هي اختلاق محض.

ونحن السامريين. نؤمن بهذه التوراة ونعمل بأحكامها. ولو كنتم تعرفون مقدار المشاق التي نتحملها للمحافظة على هذه التوراة لتعجبتم. فقد سرقوها مرة. وبعد أن فلدينا كل مرخص[1] وغال وجدناها وأعدناها إلى هنا".

ولا يعلم مقدار المرات التي أعاد بها السامري المتدين هذه الألفاظ على مسمع عدد كبير من المستشرقين الزائرين. مع أن علماء الخطوط العتيقة يعتقدون بأن هذه التوراة لا تزال حديثة بخطها. ويرجعون كتابتها إلى ألف سنة مضت.

وكان خلف المحل الذي توجد فيه التوراة شرافة خارجة وقد طليت بالكلس الأبيض. وبعد أن شاهدنا ذلك المحل رجعنا إلى الحجرة القديمة فأخذ الكهنة يشرحون دين السامرة فصرحوا لنا عن كيفية انفصالهم بعد ٣٠٤٤ سنة من تاريخ آدم مع أنهم من الموسويين. ولا يحب السامريون أن يعتبروا أقوال أكثر المؤرخين والمؤلفين الذين يدعون بأن السامريين ليسوا من أصل العبرانيين بل هم آتون من بلاد فارس ومن وراء النهر.

٣- دين السامرة

يقال أن توراة السامريين هي التي تعين لهم حدود دينهم. وأن بينها وبين التوراة التي بأيدي الموسويين ٣٦٠ فرقاً. ولكن لاروس يقول حينما يتكلم عن السامريين أنهم غير الموسويين ويجعل لديهم ثلاث قواعد: الأولى- اعتقاد السامريين بأن الكتاب المقدس هو ألواح موسى الخمسة. الثانية – رفض السامريين لكافة نقول وروايات كبار الموسويين. الثالثة- اعتبار السامريين جبل

---

(١) رخيص.

غاريزيم المحل المقدس مع أن الموسويين يعتقدون بأن اورشليم هي القدس وهي المحل المقدس.

أما شروط العقيدة الدينية الأصلية عند السامريين فهي خمسة:

١- الاعتقاد بالوحدانية بالله.

٢- نبوة حضرة موسى.

٣- إن التوراة كتاب منزل.

٤- إن جبل غاريزيم هو القدس.

٥- إن اليوم الآخر أي الدينونة واقع.

ويعتقد السامريون أن الله تعالى منزه عن جميع الصفات ولا يريدون أن يؤمنوا بنبوة أحد من الأنبياء سوى موسى ولكنهم يعتقدون بنبوة "يوشع" لأنه من أفرائيم أولاً. ولأنه وضع وصيته الوداعية في سيشه م أي في نـــابلس. ولديـــهم كتاب منزل عليه. ويعتقدون أن البشر يحاسبون على أعمالهم في يوم الآخـــر[1] فمن حسنت أفعاله دخل الجنة ومن ساءت أفعاله يلقى في جهنم. وأن الجنة هـــي جنة آدم وليس من عمل فيها سوى العبادة. وأن جهنم نار لاهوتيـــة. ويؤمنـــون بمجيء المهدي. ويطلقون على المهدي أسماء مختلفة فيســـمونه "حاشـــاحيب" و "حاطاحيب" و "مرجع".

وتراهم بانتظار مجيء المهدي لأنهم يجهلون وقـــت ظـــهوره ولكنـــهم يعتقدون بأن للمهدي علائم وهي: أولاً – إظهاره كلمة الله. ثانياً – نقله لعصـــاة موسى ولألواحه العشرة. ثالثاً – إحضاره "قدرة المن" وهي الحلـــوى الإلهيـــة المعروفة.

وعلاوة على ذلك فإن السامريين يعتقدون بالملائكة.

---

(١) الآخرة.

وفضلاً عن العقائد الأساسية في الديانة السامرية فإن لهذه الطائفة فرائض يجب عليهم الاعتقاد والعمل بها. وهذه هي الأعمال الدينية المذكورة:

١-الصلاة.

٢- الحج.

٣- الصوم.

٤- الزكاة.

وللسامريين صلاتان معينتان أحدهما صلاة الصبح (صليت بيقر) والثانية صلاة المساء (صليت غرب) وكل صلاة أحد عشر ركعة. فيجب السجود في مبدأ كل ركعة ثم الوقوف على القدمين وتلاوة التوراة. وإن جاز عندهم أداء الصلاة على الانفراد ولكن الصلاة بجماعة هي أفضل وثوابها أكثر.

أما مدة (صلاة بيقر) فمن انبلاج الفجر إلى طلوع الشمس و (صليت غرب) من غروب الشمس إلى ما بعد ساعة أو ساعتين.

والصلاة مفروضة على الرجال والنساء سواء. ومع هذا فإن النساء لا يخالطن الرجال أثناء الصلاة. وعليهن أن يؤدين صلاتهن على انفراد.

ويشترط إعلان دخول وقت الصلاة بالبوق وأن يكون المصلي طاهراً. والطهارة عندهم على نوعين الغسل أولاً والوضوء ثانياً. فالطهارة من الحدث شرط أولي على كل موسوي. حتى أن لمس الحائض موجب للغسل وعلى الحائض أن تحضر ثلاثة من النساء يقفن عند رأسها حين تطهرها. وأما الوضوء فيغسل المتوضئ أولاً يديه وإذا كان من أصحاب الأعمال اليدوية فيغسل يديه مع المرفقين والساعدين ثلاث مرات. ثم يتمضمض ويستنشق ثلاثاً ثم يغسل وجه ويمسح أذنيه ويغسل رجليه ثلاثاً. ويتلون التوراة في الصلاة باللسان الذي كتبت به التوراة وهي العبرانية القديمة. يجوز لهم تلاوتها باللغة السامرية. وما لم يجمع المصلى هذه الشروط فلا تكون صلاته مقبولة.

ولما كان شبات أي يوم السبت يوم استراحة بمقتضى الشريعة الموسوية فإن السامريين يتركون أشغالهم تماماً من غروب يوم الجمعة إلى غروب يوم السبت ويتخلون في ذلك الوقت عن جميع العلائق الدنيوية والمطامع النفسانية وينقطعون للعبادة والطاعة. ولهذا السبب كانت الصلاة "شبات" طويلة بهذه النسبة فتمتد صلاة الصبح ثلاث ساعات وصلاة المساء نصف ساعة. ولهذا اليوم صلاة خاصة به وهي صلاة الظهر فتمتد هذه الصلاة ساعة ونصف الساعة.

أما الحج عند السامريين فهو عبارة عن زيارة جبل غاريزيم. وللحج لديهم ثلاثة أشكال:

١–حج الفطير (Paque) ٢– حج الأسابيع (Pantecote) ٣– حج المظال (Tolernacle)

١– حج الفطير أي عيد الأضحى ويمتد هذا الحج سبعة أيام توافق زمن البدر في شهر نيسان ويذبحون يومئذ القرابين.

٢– حج الأسابيع ومدته خمسون يوماً ويمكثون على الجبل أربع ساعات أو خمسة.

٣– حج المظال وهو مثل حج الفطير. ويمتد هذا الحج سبعة أيام توافق أيام البدر في شهر تشرين الأول. وتقيم كل عائلة تحت المظلة.

أما شروط الحج فهي "أولاً" وجود التوراة ."ثانياً" وجود الكاهن. "ثالثاً" القيام بالطواف والمعانقة بعد الصلاة.

أما الطواف فيتم بأن يلبسوا أعبية بيضاء ويتقدمهم الكاهن ويطوفون سبع مرات حول محل مخصوص في جبل غاريزيم. ويقول السامريون عن قدسية الموقع المخصوص في غاريزيم ما يأتي:

كان غاريزيم مكاناً للهيكل. ثم أقام حضرة موسى الهيكل في " التيه" وبعد وفاة موسى وهارون نقل يشوع بن نون الهيكل إلى جبل غاريزيم. ثم

أصبح كاهناً كبيراً "العازار" ثم "فنيحاس" ثم "أبوشع" كاتب التوراة ثم "مشـــش". وبعد هذا انتقلت الكهانة إلى "بعقل" ومن بعده إلى "عزى" وكان عزى في ذلـــك الحين صغيراً فنصبوا رئيساً آخر من سبط لاوى. فحصل أخيراً اختلاف بيـــن الكاهن المسمى ايلى وبن عزى الذي كبر. لأن ايلى أحضر قرباناً بـــدون ملـــح فاستاء عزى من ايلي وذهب ايلى إلى القدس وبقى عزى هنا. وبسبب ظــــهور الاختلاف بين الموسويين فإن الهيكل قد ضاع. ولكن موقعه لا يزال معروفاً في غاريزيم".

وأما الصوم لدى السامريين فهو الإمساك أربعاً وعشرين ساعة قبل حج المظال بخمسة أيام فيجب على كل سامري كبيراً كان أو صغيراً أن يمسك عــن ادخال شيء في فمه حتى الولد الرضيع فإنه يمنع عن الرضاعة طول هذه المدة. وعليهم أن لا يناموا مطلقاً في الأربع والعشرين ساعة المذكورة. وأن يمضـــوا هذه المدة بالطاعة والعبادة. ويقال أن الشريعة السامرية تقضي بإعدام الذيــن لا يصومون.

وأما الزكاة فهي عبارة عن إعطاء واحد في العشرة من الأربـــاح إلـــى الكاهن أو الفقير. ويوجد عند السامريين مسألة الطريف والقشر. فلا يجمعـــون بين اللحم واللبن والزبدة ولا يأكلونها سواء. فإذا أكلوا لحماً فلا يجوز لهم أكـــل اللبن إلا بعد ست ساعات. وإذا أكلوا لبناً فلا يأكلون اللحم قبل مــــرور ثـــلاث ساعات. ولا يأكلون اللحم إلا إذا كان مذبوحاً من قبل أناس معينين.

والحجاب متبع لدى السامريين. ويجوز الزواج ثانية على المرأة العقيمة أو المريضة أو ذات العيب الشرعي.

ويجب على السامريين من كل بد أن يختنوا أولادهم في اليوم الثامن من أعمارهم. ويقتل الولد الذي لا يختن في هذه المدة. ويجب عندهم شرعاً إحضـــار شاهدين حين عقد النكاح ولا تخالف قواعد الإرث عندهم الأصـــول الشـــرعية المتبعة لدى كافة الموسويين.

٤- الأحوال الاجتماعية في السامريين

١- أفراد السامريين وطراز معيشتهم -

يقيم أفراد الطائفة السامرية في بيوت صغيرة معـــدودة قـد ألصقـت ركبتيها بالأرض للتقديس حول معبد يشير إلى تذكارات من مئات من الســـنين وقد بني في زاوية استولى عليها اليأس وتنوسيت في أطراف نابلس. وأنك لتقرأ في أوجه سائر أفراد هذه الأمة التي هي أصغر أمة في العالم والتي لا تتجـاوز أفرادها المائة والستين - آثار حياة نبيلة وتسمع من ألسنتهم لهجة راقية. ولقـــد تمركزت هذه الاريستوقراطية المرتبة على شكل واحد وانتظام واحد في أربـــع أسر أو خمسة منهم. وهؤلاء يسمون أولاد لاوى عائلـــة الكـاهن أو اللاوييـن وأولاد يوسف عائلة لطيف أو الدنفيه و الصباحيه و الســـروايه وأولاد يوشـع العائلة اليوشعية. ويوجد في أيدي الموجودين من أفراد كل عائلة شجرة انســاب تثبت آباءهم وأجدادهم. وهم يذكرون أسماء الأشخاص الماضين بكـــل احـترام وتعظيم. ومع هذا فإنه يصعب نوعاً ما الوقوف على درجة تخلص أغصان هـذه الأشجار النسبية وعروقها من خطيئات الزمان وغلطاتـــه. ولكـــن الســامريين يعتقدون بعدم جواز الاشتباه بعائلة الكاهن.ويعتقدون أن هذه العائلـــة محفوظـــة النسب حتى حضرة هارون بل حتى آدم عليهما السلام. ولـــهذه العائلـــة حـــق الرياسة على السامريين. ويجب أن يكون كهنة السامريين الأربعـــة ورئيســـهم الروحي من هذه العائلة. ويقوم أحد هؤلاء بوظيفة الأمانة. وحاصل القـــول أن عائلة الكاهن نافذة الكلم أكثر من غيرها من العائلات وهي فوق كل عائلة. حتى أن السامريين جميعهم يؤدون زكاتهم للكاهن أولاً ثم للفقير. ولهذا كانت الكهنـــة وعائلاتهم هم القسم المرفه من السامريين ولقد تناقل بين السامريين الاعتقاد بأن في الكهنة مزية التنجيم وعلم الرمل حتى أنهم يعتقدون فيهم قـــوة الشـــفاء مـــن

الأمراض. ولقد سرى هذا الاعتقاد بمزايا الكهنة وقواهم الروحية لغير السامريين. حتى أن كثير من النساء المسلمات يزرن معبد السامريين يومياً لأخذ حجب من الكهنة للمحبة والحمل. ويكشفن للكهنة ما في ضمائرهن. ويحب الرجال أن يسمعوا من أفواه الكهنة أخبار مستقبلهم. وحينما يأخذ الكاهن يتكلم بهيبة واستحضار وعلى رأسه عمامته الحمراء وقد أسدل شعر رأسه ولحيته ينحني أمامه سائر أفراد السامريين خضوعاً واحتراماً لدهاء عالم المجهولات. ويظهرون كل خشوع واحترام أمام ما ينطق به.

ويمكن أن يقال أن عموم السامريين اليوم في حاجة وفقر. ولا تسمع من أي شخص منهم سوى الشكوى من ضيق الحياة ومن صعوبة المعيشة. ويظهرون التلهف والأسف على سعادتهم الماضية. ويروى أن السامريين كانوا في الماضي تجاراً أغنياء حتى أنه نشأ منهم موظفون أصحاب نفوذ. ولكن أهمل شأنهم الآن كهنتهم أصبحوا لا يعترف بهم رسمياً.

إن السامريين الذين يلوون رقابهم نادبين سوء حظهم يلاقون صعوبات كبرى من وقت إلى آخر في اكتساب معاشهم. وهم لا يزالون يشتغلون بأبسط الحرف في أقصى أطراف مدينة نابلس. وترى نصفهم عراة والنصف الآخر جياعاً يفرون من كل شخص ويأوون إلى بعضهم طبعاً. وحينما يجتمعون في معبدهم اليتيم ويتنفسون هواءه يفتحون أحياناً كتاب الأنساب بأيدٍ منهوكة ويحركون شفاههم بالأدعية السامرية. أو يتذكرون السعادة الموعودة. وبهذه الطريقة يسعون لإنارة حجرات حياتهم العفنة المظلمة بنور السعادة المنتظرة وببوارق من الآمال.

٢- العادات الاجتماعية

إن الحالة الاجتماعية في السامريين مؤلمة جداً. وخصوصاً بين الرجال فإن الرجل منهم يلاقي مشاكل لا تقتحم في مسائل الزواج لأنه يوجد بين المائة

وستين سامرياً ٨٥ رجلاً و٧٥ امرأة. وبين الرجال عشرون شاباً يعثر[١] عليهم أن يجدوا ابنة يتزوجون بها. ورغماً عن أن شريعتهم تجيز لهم الازدواج بأي ابنة متدينة بأي دين كان ولكن الشرائع الأخرى لا تجيز تزويجهم من بناتها ولذلك لا يرى هؤلاء العشرين شاباً وسيلة سوى الصبر والتسليم. ولهذا لا تلد البنت حتى تخطب بل تخطب وهي في بطن أمها. ويضطر أولاد الكاهن للازدواج وهم صغار جداً. والمهر المعجل عند السامريين ٦٠ قرشاً والمهر المؤجل ٦٢ قرشاً. على أن الاتفاق يكون تاماً منذ سنين بين والد العريس ووالد العروس فلا يصل الزوجين لسن يصلح به زواجهما إلا ويجرونه حالاً فيعزمون الأقرباء ويصافح الكاهن والد العريس ووالد العروس ويجري العقد بالإيجاب والقبول حسب الشريعة اليهودية. وبعد عقد النكاح يصنعون للبنت الألبسة ويصيغون لها المجوهرات. وبعد هذا تذهب عدة نسوة مس أقرباء الزوج إلى دار العروس فيأخذونها من دارها ويحضرونها إلى دار العريس ويغنون ويعزفون على الآلات في دار العريس حيث تجري مراسم الزفاف على غاية من البساطة.

وحينما يحصل وضع في إحدى الأسر. يذهب سائر أفراد الطائفة إلى دار الوضع ويهنئون العائلة فإذا كان المولود غلاماً يجرون ختانه في اليوم الثامن من ولادته. وتبدأ حفلة الختان أولاً بتلاوة الكاهن سورة من التوراة. ثم يضع الوالد لابنه اسماً ثم يجري ختان الطفل ويشتغل الكاهن ثمانِ ليالٍ بتلاوة التوراة في الدار التي حصل فيها الوضع ويشاركه الحاضرون بالدعاء ومن العادة عند السامريين في أيام الأعياد أن الأقرباء يزورون بعضهم بعد أداء النسك المفروضة. وإذا توفى أحد السامريين يسرعون حالاً بغسله ويلبسونه ألبسة نظيفة ثم يضعونه في التابوت . وحينما ينقلون الجنازة يقرأون سورة من التوراة. ويدفن السامريين موتاهم في محل يدعى رأس العين في الجهة الغربية

---

[١] يصعب.

من نابلس. ويكتبون اسم المتوفى فقط على القبر. ولا يظن أنه توجد قبور كثيرة للسامرية في رأس العين فإن النابلسيين لم يمنحوا حق المحافظة على القبور للسامريين الذين هم عرضة للطعن وللتقبيح في حياتهم حتى من قبل أطفال نابلس.

وتدور على الألسنة عادات غريبة ينسبونها للسامريين فنكتفي بذكر شيء منها هنا: أولاً: لا يسمح السامريون لغير السامري أن يمس مأكولهم ومشروبهم وإذا مسها صدفة غير سامري فإنهم لا يأكلون منها. وإذا مستهم قطعة من الجلد يجب عليهم الغسل من كل بد. والاغتسال صعب جداً عند السامريين وخصوصاً النساء فيجب عندهن أن تحضر المرأة إلى الحمام ثلاث نساء للشهادة على اغتسالها. ولا يأكل السامريون اللحوم التي يذبحها المسلمون. أما اللحوم التي يذبحونها فيرسلون الفخذ منها للكهنة ويأخذ بقية السامريين الأقسام الأخرى. وحاصل القول أن حياتهم مقيدة بالقيود التي يمكن وضعها في هذه الحياة فيلتزمون عدم قص شعورهم ويعتبرون هذا العمل علامة على الزهد والتقوى.

وبعد بيان ما عددناه من عادات السامريين أريد أن أقول على سبيل الاستطراد شيئاً عن تقويم السنين والشهور التي اعتادوا أن يستعملوها:

للسامريين ثلاثة أنواع من التاريخ: الأول خلقة آدم ويرى السامريون أنه مضى على خلقة أيام حتى الآن ٦٣٨٢ عاماً. والثاني مبدأ دخول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة وقد جرى ذلك قبل ٣٥٨٨ عاماً. والثالث التاريخ الهجري. وأما التاريخ الكثير الاستعمال عندهم في الحالة الحاضرة فهو تاريخ دخول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة. والشهور عند السامريين هي الشهور القمرية ومنها ما يكون ثلاثين يوماً وما يكون تسعة وعشرين. ويسمون الأشهر عندهم بالعدد الأول والثاني والثالث...الخ.

١-الرائيششون "الشهر الأول".

٢- الشه ني "الشهر الثاني".

٣- الشه ليش "الثالث".

٤- الره بي "الرابع".

٥- الئه ميش "الخامس".

٦- الئه شيشش "السادس".

٧- ئه ئه ششه يى "السابع".

٨- ئه الشاميني "الثامن".

٩- له التشي "التاسع".

١٠- ئه آششه رى "العاشر".

١١- عاد عاشه ر "الحادي عشر".

١٢- ثاني عاشار "الشهر الثاني عشر".

وعلاوة على الاثني عشر شهراً فإنهم يجعلون في كل خمس سنين سنتين كل واحدة منهما ثلاثة عشر شهراً ويسمون الثالث عشر "ئه تينمات ئـه ششه ني" وبهذه الطريقة يتلافون الخطأ الذي يحصل في الأشهر القمرية.

٥- الحالة الروحية والفكرية في السامريين

لا يصعب على كل واحد معرفة حالة السامريين الروحية والوقوف عليها بعد أن يرى وجوههم الفاقدة للدم وأجسامهم الطويلة الضئيلة وشعور رؤوسهم ووجوههم النامية بدون انتظام وترتيب. وبطأهم وقلة الحركة فيهم أو ترددهم وشدة احترازهم. على أنه من الممكن وصف الحالة الروحية في السامرية بقولهم كل حال يزول.

ولا ريب أن اللوح الذي كتبت فيها هذه الجملة وعلقت بدون اهتمام على جدران غرفة الكتب الملاصقة لمعبدهم هي أعظم صوت ينطق بما يشتكون. أن شعباً مائلاً إلى الانقراض يوماً بعد آخر وهو لا يزال يبحث في أخريات أيامه عن المنقذ والمخلص له فلا يجده. فهل يمكنك أن تجد في ذلك الشعب عزماً وحزماً؟ نعم إنهم لا يحبون الإعتراف بصورة ظاهرية بأن نسلهم في حالة الانقراض. حتى أنهم يذكرون خطبة ألقاها غزال بن اسحق الكاهن عام ١٢٣٠هـ / ١٨١٥م ويقيمونها دليلاً على إثبات اعتقادهم فيقولون أن الكاهن تمنى في خطابه بأن يصبح عدد السامريين في ذلك الحين سبعين مع أنهم اليوم يتجاوزون المائة والسبعين وسيصلون إلى المائتين. وأن من البساطة الاعتقاد بأن السامريين يصدقون قلبياً هذا القول الذي ضرب عرض الحائط بكافة القواعد الصحية والنظريات العرقية. ولقد كان السامريين ١٧٦ قبل سنة فتوفى منهم ١٦ بالهواء الأصفر وبالتيفوس. ولا شبهة أن قلة الازدواج في السامريين بل وتعسره وجريان الدم في دائرة محدودة يشوش على هؤلاء المائة وستين سامرياً مستقبلهم ويجعله مظلماً.

فهل تتصور وجود عزم وحزم في أرواح تعترف بصحة هذه الحقائق. ولو كان السامريون يجدون دواءً ناجعاً لعلة الانطفاء التدريجي في عرقهم لسارعوا حالاً لاستعماله. ولكن هذه القصبة من بني الإنسان حُرمت كافة ما يمكن من الوسائل فلم تجد وسيلة سوى الصبر على الحياة التي ابتليت بها. ويظهر أن العذاب مقدر في هذه الدنيا لهؤلاء الأفراد الذين تراهم يعذبون كل يوم بأيدي النابلسيين صغاراً وكباراً ... وأن الفقر والحاجة أمران طبيعيان للسامري الذي يلاقي أعظم الصعوبات والمشاكل بتدارك كسرة من الخبز. وما دام أن الصعوبات والأمراض نصيب دائمي لهذا الشعب الذي لم يتم كيانه فلا طريقة للسامريين سوى المحافظة بأيديهم الأربعة على توراتهم القديمة والالتجاء إلى معبدهم الراطب واليتيم وتربص مجيء حاطاحيب السعيد وانتظار جنتهم

الموعودة. فالعذاب والفقر والحاجة والاضطراب وتحمل الأمـراض وحرمـان النور والسعادة بل وحرمان كل شيء والابتعاد عن هذه الدنيا بأجمعها- أمـور ضرورية للسامريين. ولهذا يجب عليهم أن يستروا ساحة الحياة الدنيوية المظلمة ببساط السعادة الأخروية المنير.

فليقلل النابلسيون هؤلاء الطائفة مهما أرادوا فلا أهمية لذلك لأنهم قليلون طبعاً. ولتضق سبل الحياة عليهم فلا مانع من ذلك لأن الضيق أمـر طبيعـي. ولتسد أبواب الآمال في وجوههم فليس فيهم استعداد وقابلية لفتح باب الخـلاص. ولا داعي عندهم للحركة والتحول.حتى إنك تراهم حينما يشيعون جنازة لهم وفي أيديهم توراتهم القديمة أو أثر من آثار شاعر سامري يدمدمون بشفاههم سورة أو قصيدة – غير متأثرين من انقطاع حبل حياة الميت أو من انطفاء نور ذكائـه. فالسرور لدى السامريين أمر عارض. والكدر حالة طبيعية. وليبقى السـامريون غارقين في أحلامهم هذه الذي أنعشوا بها فلاسفة الغربيين القائلين بهذه الخطـة في الحياة البشرية وليبصروا في أحلامهم النور الموعود... وهذا القدر يكفيـهم. وما دام أن التسليم لازم في الحياة المقدرة فأي داع إذن للعمل؟ ولماذا العمل كما قال المرحوم فكرت:

"تتعب الحياة بالخطى الزائدة"

ولهذه الأسباب لا يريد السامريون أن يتعبوا عقولهم بزيادة فيكفيهم مثـلاً أن يعرفوا قليلاً من لسان أسلافهم... فإن تمكنوا بهذا العمل القليل مـن قـراءة أدعيتهم وأشعارهم فهي السعادة وإن لم يتمكنوا من قراءتها فيكفيـهم تعلمـها سماعاً. ولهذا كان من العبث البحث عن تعلم الخمسة وعشرين طالباً في مكتـب السامريين. أو التنقيب عن استفادة الذين خرجوا من هذا المكتب. وعلى أصحاب العلائق أن يعرفوا ما يقع في العالم الدينوي من الحوادث الفنية والأدبية والوقائع السياسية والاقتصادية. وأن يقفوا على كافة ما يحدث من متعبات بني البشر.

أما السامريون فلا حاجة لهم بذلك مطلقاً: اتكال عميق....بقـــاء علـــى الحياة كما هي ....انتظار سعادة غير طبيعية.... استعداد لتمضية اليوم الذين هم فيه.... هذه هي الحالة الروحية والفكرية في الطائفة السامرية.

٦- لغة السامريين

يبلغ عدد السامريين كما قلنا قبلاً ١٦٠ شخصاً بمـــا فيـــهم الأســـرتان المقيمتان في طول كرم ويافا. ولقد استعرب هؤلاء تماماً بسبب إقامتـــهم منـــذ أزمنة مديدة في المحيط العربي. فهم يستعملون اللغة العربية العاميـــة واســـطة التفاهم بينهم في كبار الأمور وصغارها. وإذا تتبعنا تواريـــخ المشـــاهير مـــن السامريين نجد أن مططانه المصري أو عطيه المصري السامري قد نظم الشعر العربي وألف كتباً باللغة الفصحى. ولا تزال لغة التعليم فـــي مكتبـــهم بـــالوقت الحاضر اللسان العربي ولهذا يوجد بينهم من يكتب باللغة العربية أيضاً. وبـــهذا الاعتبار نجد أن السامريين جاروا المحيط حتى تمثلت فيهم مشـــخصات الأمـــم والأقوام القائمة فيه وحتى كانت لغة ذلك المحيط وهي العربية اللغة الحاكمة بين السامريين في الوقت الحاضر. وباتت لغة السامريين الأصلية وهي "الســـامرية" في الدرجة الثانية. ورغماً عن تكرار السامريين في عباداتـــهم وفـــي أدعيتـــهم المشتركة جملاً وعبارات مأخوذة من اللغة السامرية ولكنها لا تخرج عن حـــد التقليد السماعي الخاص. ولهذا فإن عدد الذين يقرأون ويكتبون كما يجب باللغـــة السامرية لا يتجاوزون الخمسة أو العشرة. ورغماً عن قلة عدد المتعلمين بـــهذه اللغة فإنه يجب البحث عن جذور هذه اللغة التي يوجد لها كيان خاص وتـــاريخ معروف وأدب معلوم. ثم الترقي في البحث حتى نصل إلى أساس هذه الجـــذور. ولهذا وجب علينا حينئذٍ أن نتتبع الحقائق التاريخية عن أصل السامريين حتـــى تستنير تلك النقاط المظلمة:

لا عبرة بإدعاء السامريين أنهم من أولاد بني إسـرائيل الخـاص وأن لغتهم هي اللغة العبرانية القديمة التي لم يطرأ عليها بتحول أو تبدل فإن كثـيرين من المؤرخين يثبتون خلاف هذه الدعوى. ولقد كتب "جرجـي زيـدان" الذيـن اشتهر بتدقيقاته العميقة فصلاً عن السامريين في الجزء التاسع من مجلة الـهلال الصادرة عام ١٩٠٠م-١٩٠١م فجاء في الصحيفة ٤١٥ منها ما يأتي:

"ويؤخذ من تدقيقات علماء طبقات الأمم أن السامريين ليسوا من اليـهود وأنهم غير منشقين عن أصل يهودي. وقد سموا بالسامرية لسكناهم في أنحـاء "سامره" في أرض فلسطين. واختلفت الآراء بأصل منشأ السامريين وأشهر هـذه الأقوال رواية القائلين بأنهم جاؤا من بلدة "كوتا" في بلاد فارس وإذا أردنـا أن نأخذ فكراً خاصاً من الأقوال التي جاءت في هذا الموضوع تخرج النتيجة الآتية:

أغار أحد ملوك أثور[١] على أرض فلسطين قبل ثمانية أعصر[٢] مـن الميلاد فاحتل كافة أنحاء سامره وطرد جميع اليهود المقيمين فيها. وبعد أن بقيت سامرة خالية من السكان مدة طويلة جمع أحد حكام أثور ويغلب على الظن أنـه اسرحدون[٣] من أهالي بابل. وكوت. وعوا وحي. وسفر وائيم وأسـكنهم بـلاد سامرة عوضاً عن الإسرائيليين فاستوطن هؤلاء تلك البقاع وأقاموا فيها.

كان هؤلاء قديماً من عبدة الأصنام حتى أن هذا الشعب الذي كان مؤلفـاً من خمس قبائل قد استحضر كل فريق منهم من بلاده الأصنام التي كان يعبدهـا هناك. ويقول المؤرخ يوسيفوس أن الكوتيين قد جاؤا أساساً من العجم. وبسـبب توطنهم في أرض سامره سموا أنفسهم سامريين نسبة لها. ويقال لهؤلاء كوتيون

---

(١) الآشوريين.

(٢) عصور.

(٣) اسرحدون: Esarhaddon (٦٨٠-٦٦٩ ق.م) وهو آخر ملك أشوري عظيم ورابـع أبنـاء سنحاريب كانت أمه بابلية. عهد إلى اشراك ابنه اشور بانيبال في الحكم واختاره وريثـاً للعرش. معجم الحضارات السامية، ص٧٨-٧٩؛ بورج، تراث العالم القديم، ج١،ص٤٢.

باللغة العبرانية وسامريون باللغة اليونانية. ولم يمل السامريون للانتساب إلى اليهود الإّ رغبة منهم بالتشرف بأصل اليهود. مع أن اليهود يتبرأون من مثل هذا النسب كما يظهر ذلك تماماً من مطالعة الأناجيل. ولقد كانت عاصمة السامريين قديماً بلدة "شيكم" وهي البلدة التي تقوم مقامها الآن مدينة نابلس.

أما مدينة نابلس فقد أشادها الامبراطور "ويسياسيه ن" في العصو الأول الميلادي غربي بلدة شيكم وسماها نيابوليس أي البلدة الجديدة وعلى مرور الأيام تحول الاسم إلى نابلس. وتقيم الآن البقية الباقية من السامريين في نابلس ويجرون عبادتهم في جبل غاريزيم. والخلاصة أن السامريين ليسوا من اليهود رغماً عن ادعائهم بأنهم منهم. ولقد جاؤا من العجم ومن ما وراء النهرين.

وتكلم البستاني[١] صاحب دائرة المعارف المعروف باتساع علمه ووقوفه عن السامريين في الصحيفة ٤٠٧ من المجلد التاسع من كتابه فنلخص إيضاحاته التي كتبها تنويراً للقارئ في بحثنا هذا قال:

"يطلق على السامريين في اللسان العبراني اسم "شوميرونيم" وفي اللسان التالي اسم قوطيم أو قوطيون. ورغماً عن أن كلمة "سامري" تدل لفظاً على الذين سكنوا سامره ولكنها أيضاً اصطلاحاً على الشعوب التي جاء بها الملك الاثوري اسرحدون من بابل وكوت وعوا وحماة وسفروائيم ولسكنها في أراضي سامره عوضاً عن أسباط بني إسرائيل التي كانت تقطن سامره ثم نفيت إلى أنحاء ملح[٢] وعلى وخابور[٣] ونهر جوزان وبلاد ماري وليس السامريون هم أسباط بني إسرائيل الذي جاء ذكرهم في الكتب المقدسة.

---

[١] بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣): ولد في لبنان ويعتبر من رواد النهضة الأدبية والفكرية في البلاد العربية من آثاره الأدبية (قاموس محيط المحيط) و(دائرة المعارف)، المنجد (في الاعلام) ص١٣١.

[٢] ملح: موضع بسواد الكوفة. معجم البلدان، ج٥، ص١٩٠.

[٣] خابور: اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة، معجم البلدان،ج٢، ص٣٣٤.

ويؤخذ من بعض الروايات أن ملك أثور لم ينف كافة أهـــالي ســامرة ولكنه ترك قسماً منهم في مواطنهم الأصلية[١] فاختلط هؤلاء بالذين جيء بـــهم من المحلات الآنفة الذكر وامتزجوا ببعضهم فخرج منهم السامريون الموجودون اليوم. غير أن العلماء يستدلوَن بالتوراة على أن ملك آثور شالماناصار[٢] نفـــي جميع بني إسرائيل وأن اسرحدون جاء بأقوام أغراب من ارض بابل وأســكنهم أراضي سامره. وقد كان هؤلاء الأقوام جميعاً عبدة أصنام. وليس لـــهم المـــام بالشريعة اليهودية. حتى أنهم طلبوا من ملك آثور ارسال كاهن لـــهم ليعلمـــهم الشريعة اليهودية. ولو كان شالماناصار مبقياً أحداً من بني إسرائيل فـــي تلــك الأراضي لما كانوا يحتاجون لمثل هذا الطلب".

والحاصل أن السامريين تقربوا من الإسرائيليين حتى أنهم ادعوا بـــأن ديانتهم هي الديانة الموسوية تماماً. ولما عاد بنو إسرائيل من بابل لم يأتلفوا مـع السامريين فبدأت العداوة بينهم منذ عام ٥٣٥ قبل الميلاد وبعد أن ذكرت دائـــرة المعارف هذه الايضاحات نشرت تاريخاً مختصر للسامريين فنرى نشره زائداً.

عرفنا على قدر الإمكان من تدقيقات زيدان والبستاني أموراً مفيدة عـــن جذور اللغة السامرية. فإذا قبلنا أن السامريين جاؤا من بابل وكوت وأمثالها مـن المحال[٣] نعرف حينئذ أهم الأركان في لغتهم فقد قال لنا علماء طبقـــات الأمـــم

---

(١) الأصلي.

(٢) شالماناصر: Shalmanaeser ملك آشور (٧٢٧-٧٢٢ ق.م) شلمنصر بن تجلات بيلاصـــر الثالث وخليفته عُين حاكماً على فينيقية عام ٧٣٣ ق.م قبل أن يصبح ملكاً. قام بحملة على هوشع المتآمر مع مصر انتهت باخضاع السامرة بعد حصار دام ثلاثة أعوام حكم بـــابل باسم أولولاي: معجم الحضارات السامية، ص٥٣٦.

(٣) الصحيح أن يقول: من المحال أن.

وعلماء اللغات حين كلامهم عن اللسان الذي كان يتكلم به الأراميون[1] الذين كانوا يقطنون ما بين دجلة[2] والفرات[3] وفي سورية وفلسطين وفي الشمال الغربي من أرمينيا والعجم ما يأتي: للألسنة المتصرفة شعبتان كبيرتان للارتقاء أحدهما الألسنة الآريه والثانية الألسنة السامية. أما الألسنة السامية فتنقسم إلى ثلاث شعب كبيرة:

١-الشعبة الارامية.

٢- الشعبة العبرانية.

٣- الشعبة العربية.

---

(١) الاراميون: Arameans شعب سامي مترحّل كان منذ الألف الثاني ق.م يتنقل ما بين الصّحراء السّورية والفرات وانتقل تدريجياً من حياة البداوة إلى الحياة الحضريّة استقر الآراميون في مستوطنات في بلاد أمورو (سورية) وبلاد بابل في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد وكانوا يسّمون قديماً "سوتو" وظلّوا يعرفون بهذا الاسم حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. امتّدت أرض آرام (موطن الآراميين) من جبال لبنان في الغرب إلى ما وراء الفرات في الشرق ومن جبال طوروس في الشمال إلى دمشق وما يليها في الجنوب. واحتكر الآراميون التجارة البرية ونشروا لغتهم الآرامية. بحيث أصبحت في القرن الخامس قبل الميلاد اللغة الرسمية في كامل منطقة الهلال الخصيب. معجم الحضارات السامية، ص١٦-٢١.

(٢) دجلة: Tigris نهر في أسيا العربية يروي القسم الجنوبي الشرقي من تركيا، يخترق العراق ويصل إلى شط العرب حيث يجتمع بالفرات فيصّبان معاً في الخليج العربي طوله ١٩٥٠ كم. والاسم السومري لهذا النهر "أدحنا" والسامي ادجلان، معجم الحضارات السامية، ص٩٣٧.

(٣) الفرات: Euphrates نهر في أسيا العربية يروي الأقسام الشرقية من تركيا وسوريا ويجتاز العراق ليصب في الخليج العربي طوله ٢٣٠٠كم. اسمه السومري (بورانوتو) والاسم البابلي الآشوري (بوراتو) معجم الحضارات السامية، ص٦٤٣-٦٤٤.

وللشعبة الآرامية من هذه الشعب فرعان: الكلدانيـــة[1] والســريانية[2]. وحينما يقال اللغة الارامية يفهم منه اللسان الذي يعثر عليه في المحكوكـــات[3] والمنقوشات التي توجد مـــن بقايـــا البابليين[4] والأثوريين. وحروف هذه اللغة من النوعين الإسفيني و الأنباري.

أما اللسان الكلداني فليس هو سوى اللسان الآرامي الذي طرأ عليه شيء من التبديل والتغيير بمرور الزمان.ولقد كتب سفر دانيال في العهد القديم بـــهذه اللغة.ومع هذا فإنه يوجد فرق عظيم في اللفظ وفي المعنى بين اللسان الكلدانـــي واللسان الارامي. ولهذا لا يجوز بهذا الاعتبار تسمية اللسان الكلداني بالارامي.

وأما اللسان السرياني فهو لغة كلدانية طرأ عيها تبدل وتغيير في ألفاظها وفي دلالتها وبهذا الواسطة فإن اللسان الارامي تحول إلى لغة كلدانية بشيء من التغيير وإلى لغة سريانية بكثير من التبدل. ويفهم من هذه الايضاحات أن لســـان

---

(1) الكلدانية: Chaldean أطلقت هذه التسمية سابقاً على مجموعة من اللهجات السامية الشــرقية تارة وعلى لهجة بلاد الكلدان تارة أخرى. أما اليوم فإن هذه التسمية قد اســتعيض عنـــها بلفظة أكاديّة. معجم الحضارات السامية، ص٧٢٠.

(2) السريانية: Syriac هي إحدى اللغات السامية القديمة المحكية في بلاد مـــا بيـــن النـــهرين الشمالية. تنتسب هذه اللغة إلى المجوعة الآرامية وتنحدر من الآرامية الشـــرقية وتشـــكل اللهجة الخاصة بمدينة الرها وقد أصبحت اللغة التقليدية لمسيحيي سوريا. كانت هذه اللغـــة تستعمل شفهياً وخطياً قبل الميلاد ولكنها بلغت ذروتـــها فـــي القـــرن الثـــاني الميـــلادي واستعملت في ترجمة كتاب العهد القديم المعروفة بالبشيطا (البسيطة)، معجم الحضـــارات السامية، ص٤٧٥-٤٧٦.

(3) المنحوتات.

(4) البابليين: هم شعب مملكة بابل التي ظهرت في أسيا العربية يجـــري فيـــها نـــهرا دجلـــة والفرات اللذين جعلا منها أحد أخصب البلدان المنتجة للحبوب والتمور كانت عاصمتـــها بابل وسموا بالبابلين إلى عاصمتهم. وهم شعب أموري اســـتطاع تخليـــص بـــابل مـــن الجويتون. معجم الحضارات السامية، ص١٩٣-٢٠٣.

البابليين هو اللسان الارامي ولكن هذا اللسان اختلط وامتزج بمرور الزمان مع شعبة أخرى من الألسنة السامية وهي اللغة العبرانية.

أما شعبة العبراني- فإن اللسان العبراني ليس لساناً مستقلاً بذاته ورغماً عن الأهمية التي حازها بمحافظته على تاريخه القديم فإنه لم يقدر على المحافظة على استقلاله تماماً. وإن تكن اللغة التي يتكلم بها الإسرائيليون في الوقت الحاضر هي اللغة العبرانية ولكن كثيراً من الكلمات الارامية وخصوصاً الألفاظ الكلدانية قد دخلت فيها وامتزجت بها. ويمكننا أن نعتبر اسارة[1] الإسرائيليين في بابل سبباً لذلك. ظهر من هذا أنه حدث اختلاط وامتزاج منذ الأزمنة القديمة بين الشعبة الارامية والشعبة العبرانية. ولا شبهة أنه بسبب تغلب اللغة العبرانية أو الارامية أو الكلدانية في اللسان المختلط تألفت اللغة العبرانية واللغة السامرية المستعملتين اليوم.

وقد ادعت دائرة المعارف حين الكلام عن اللغة السامرية إنها عبارة عن لغة ارآمية وأنه يوجد فيها كثير من الألفاظ والتراكيب العبرانية. ولكن هذا الادعاء خطأ فإنه لا شبهة بأن اللغة الارامية التي هي من الألسنة الآرية بعيدة جداً عن اللسان السامري. وربما كان قولهم في دائرة المعارف أرمينية عوضاً عن ارامية من خطأ المرتبين وقد صرح لاروس "Larousse" حين كلامه عن "Les Samaritains" أن اللسان السامري مؤلف من اللسان الارامي واللسان العبراني.

يؤخذ مما بيناه أن اللسان السامري يتألف من شعبتين ساميتين وبسبب ذلك تظهر شدة القرابة والمناسبة بين اللسان المذكور وبين الشعبة الثالثة وهي اللغة العربية على أن جميع الألسنة السامية مؤلفة من جذور هي عبارة عن ثلاث أحرف. ويمكن إرجاع كل كلمة في نهاية الأمر إلى هذه الجذور. وأن

---

(١) أسر.

جميع ما يطرأ على كافة الكلمات من التحولات والاشتقاقات لا يبدل شيئا في هذه الجذور. وكما أن هذه الحالة جارية في اللسان العربي فإنها جارية أيضا في اللسان العبراني واللسان السامري حتى وفي اللسان الارامي أيضا. وترى العلماء الذين يسعون لإيجاد طريقة للتوحيد بين أصول الألسنة المختلفة يستفيدون جدا من هذا القرب الذي يجدونه بين الكلمات الأصلية الأساسية في الشعب المختلفة من اللغة السامية. وأن في اللغة السامرية كلمات كثيرة يوجد لها في اللغة العربية شبيه ومقابل. وسنشرح هذا البحث بأكثر ايضاحا حين الكلام عن الأدبيات السامرية.

إن حروف اللسان السامري اثنان وعشرون. وتشبه حروفهم الفنيكيين[1] وتكتب من اليمين إلى اليسار. ولما كان لسان القرطاجيين[2] ولسان الفنيكيين معتبرين من الشعبة العبرانية فإن حروفهم أيضا تشبه حروف الفينيكيين وهذه حروف السامريين:

---

[1] الفينيكيين: الفينيقيين: Phoenecians: شعب سامي استقر في بلاد كنعان حوالي القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد أصل هذا الشعب لا يزال غير محدد بصورة دقيقة. استقر الفينقيون على الساحل الممتد من جبل الكرمل إلى أوغاريت وقد أنشأوا العديد من المرافئ أمثال أرواد وطرابلس وجبيل وبيروت وصور وصيدا وعكا. وتتألف الأبجدية الفينيقية من اثنتين وعشرين حرفا صامتا ولغتهم سامية تنتسب إلى المجموعة الكنعانية. للمزيد، معجم الحضارات السامية، ص٦٥٧-٦٦٦.

[2] القرطاجيين: هم الشعب الفينيقي الذي أسس المدينة القديمة قرطاجةفي افريقيا الشمالية عام ٨١٤ ق.م في موقع غير بعيد عن تونس العاصمة الحالية وحصلت (قرطاجة) على بعض الاستقلالية الفكرية عن صور وقاوم القرطاجيون روما لفترة من الزمن حتى استطاع الرومان القضاء عليهم معجم الحضارات السامية ص٦٧٥-٦٨١.

ا ب ج د ه و ز ح

ط ي ك ل م ن س ع

ف ص ق ر ش ت

وقد رتبت هذه الأحرف على ترتيب (أبجد.........الخ) ويظهر من كتابة هذه الأحرف أنها بعيدة عن أحرف اللغة العبرانية. وعلاوة على هذه الأحرف فإنهم يستعملون إشارات يسمونها فتح ندا. فتح ايما. فتح آخا. ضمه. كسره. شدة.

أما الفرق بين اللسان السامري واللسان العبراني من حيث التلفظ فهو: يلفظون الكلمات في السامرية مفتوحة وينطقون بها إلى فوق ويلفظونها في العبرانية مكسورة وينطقون بها إلى تحت أما فرق السامرية عن العربية فالسامرية تنطق الكلمات ثقيلة والعربية تنطق بها خفيفة فكلمة شأنك في العربية ينطقون بها في السامرية شاناك ويتلفظون كلمة بقر العربية بصورة باقار في السامرية.

ولا توجد في السامرية حروف (ث. خ. ذ. ض. ظ. غ) ولكنهم يضعون نقاطا على بعض الأحرف فيمكن حينئذ كتابة الأحرف المتروكة. وبهذه الصورة يمكن كتابة اللسان العربي بالأحرف السامرية.

وللغة السامرية صرف ونحو بصورة منتظمة. ولقد كان كاهن العازار أول واضع للحجر الأساسي في قواعد اللغة السامرية. ثم أكمل القواعد المدونة من بعده أبو سعيد السامري المتوفى عام ٩٥٦ هجرية (١٥٤٩م) ثم جاء بعده إبراهيم العيه السامري المتوفى عام ١١٩٧ هجرية (١٧٨٢م) فأكمل ما بقي من القواعد.

ويؤخذ من هذه القواعد أن الكلمات السامرية منقسمة إلى (اسم وفعل وحرف) كما هو جار في اللغة العربية. ولهذه الأقسام قواعد طويلة.

ورغماً عن أن قواعد اللسان السامري مدونة وسهلة التعلم بسبب ذلك فإن السامريين لا يهتمون بها. ولهذا بقيت هذه القواعد المذكورة دائرة في صدرإبراهيم الكاهن و وأبو حسين الكاهن و عمران الكاهن. وتوجد كتب محررة باللسان السامري ولكنها جميعها غير مطبوعة. ويوجد للسامريين خمسون كتاباً فقط عشرة منها نسخ توراة واثنان وعشرون منها بالعقائد الدينية والأدعية المنظومة وتسعة وعشرون بفن اللغة السامري واثنان بالتاريخ.

هذه هي الثروة اللسانية التي يتوارثها السامريون منذ ألوف من السنين. حتى أن بعض عجزة السامريين الذين يستنسخون اليوم شيئاً من هذه الكتب في حجرة هادئة من حجرات المعبد ولا عمل لهم سوى بيعها بأثمان جزئية- يقولون أن هذه الكتب هي عبارة عن وسيلة للتسلي فقط. ويكتب السامريون هذه أحياناً إكراماً لزائر يزورهم في السنة مرة. فتتردد حينئذ الكلمات السامرية المهملة بين جدران معبدهم المنزوي ترددا حزيناً ثم تذبل وتأوى إلى مراقدها ومن المحال إذن أن نتصور مستقبلاً حسناً لعمل تمضي عليه السنون وهو باقٍ على هذه الصورة.

وبهذا الاعتبار يمكن أن يقال أن الأشعار السامرية التي تدور على ألسن أبناء الطائفة أثناء عبادتهم هي مراثٍ أيضاً للسانهم ومهما يكن فإن هذه الأصوات المنهوكه ستخمد وستنقلب هذه الأدعية الصغيرة إلى بقايا أدبية مبعثرة تدفن في أقصى تراب مهمل من ديار الصناعة الأدبية.

٧- الأدبيات السامرية

ذكرنا حين الكلام عن اللسان السامري أن الطائفة السامرية قديمة جـــداً وأنها موجودة منذ عشرة ُعصر قبل الميلاد. فأصبح من الضروري الاعتقـــاد بوجود شيء من الآثار الأدبية الابتدائية في الطائفة الســـامرية والعـائدة لــهذه الأزمنة اسوة لها بباقي الأمم. غير أن المؤلفات الأدبية والتاريخية الموجودة فـي أيدي السامريين لا تظهر لنا شيئاً من هذا مطلقاً. ويمكن القول بأن الدهر أختـــى على هذه المؤلفات ونزع منها كل فضيلة. وبذلك يسهل علينا معرفة الأســـباب التي قضت بأن لا يتمكن السامريون من المحافظة على شيء من الآثار الأدبيـة كالأغاني والحكايات البسيطة عن الوقائع الدموية المديدة التي جرت بينهم وبيـن الإسرائيليين قديماً وبينهم وبين الرومانيين أخيراً.

ويؤخذ من الآثار التي حافظ عليها السامريون أن أقـــدم مؤلــف أدبـي للسامريين هو كتاب مرقه بن عمران الكاهن وبهذا الاعتبار يصبح مرقه أقـــدم شاعر سامري.

يقال: أن مرقه ولد في دمشق، وتوفى فيها. ولكن تاريخ ولادته وتـاريخ وفاته مجهولان. ويقول: بعضهم أنه ولد قبل الميلاد المسيحي بثمـــانين سـنة. ويقول آخرون: أنه ولد بعد الميلاد بثلاثمائة عام. وعلى كل فإن وجود فرق يبلغ ثلاثمائة عام يدعونا للاشتباه بحياة الشاعر بل يدعونا للاعتقاد بأن نسبة المؤلفات إلية مشكوك بها أيضاً. غير أنه إذا نظرنا إلى أن الأشعار المنسوبة إليــه تبلــغ نحواً من ألف صحيفة كبيرة وإلى أن أشعاره لا تزال تقرأ برغبـــة ويتـــهالكون عليها بل أنهم يترنمون بها حتـــى الآن- نعــرف أن مرقـــه هـــو اومـــيروس السامريين.

ويقال أن لمرقه شرحاً منثوراً على التوراة. أما بقية مؤلفاته فهي عبارة عن كتب أدعية وتواريخ الأعياد وأمثال هذا وجميعها منظومة. فإذا قدرنا أن في كل صحيفة من آثاره البالغة ألفاً- ثلاثين بيتاً فإن أشعاره تبلغ ثلاثين ألف بيت. ولقد تضمنت كافة هذه الأشعار هياماً إلهيا عميقاً.

وأن هذه الحالة تتجلى في مؤلفات مرقه. وأن من يقرأ مؤلفات مرقه تظهر له معانيها بشكل بارز في شخصيات السامريين الذين حافظوا عليها منذ ألوف من السنين. فأشعار السامريين- الذين يفرون من مصائب الدنيا الدائمة ويلتجأون إلى حضن معبدهم اليتيم- تكون لهم أعظم تسلية بما تتضمنه من المعاني التوكلية الواهنة القوى. وأن صوت مرقه أحسن بلسم يشفى جروحات قلوبهم المضطربة من هذا الشعور. على أن أشعار مرقه هي أحسن ماء زلال تطفئ نار القلوب المحترقة بنيران الأحزان. بل أحسن تسلية للأحشاء التي تمزقت من القلة والفاقه. فمرقه يوجه خطاب إلى الحق تعالى ويقول في مناجاته:

عابوده دالاما	ئه للوه ن يصطاكد
ئه لائون ئه دده ككائي	مارون ئه دطائه به يبه....الخ
	(مرقه عمران)

مقابلها بالعربية

يا مبدع العالم	اله يسجد له
آلة الأذكياء	رب التائبين

فحينما يترنم السامريون بلسان واحد ويناجون ربهم بقولهم (يا مبدع العالم أنت الإله الذي يسجد له. أنت رب الصالحين التائبين) ترى أرواحهم قد اجتمعت كتلة واحدة ويتخطرون مرقه. ثم يبدأون بتعداد صفات واجب الوجود الصمدانية فيقولون:

من التوحيدات

باراشه دئه م دين طا — شارا طوبه ك ئه ككه به ثه يه

بامه شطوقازه ر اططا — ميلليين سلقى بريان ....الخ

(مرقه عمران)

مقابلها بالعربية

البداية المدنية — التي حل جودك فيها

في العدم زرعت — كلمات ونبتت خلائق

ويتكلم مرقه في هذه الوحدانيات عن قيام الحق تعالى من الأزل وعن خلقه هذا العالم من العدم وأن هذا الكون كان بإرادة الخالق الربانية.

ولمرقه أثار كثيرة من هذا القبيل. كما أن له أثار أخرى تشير إلى المحن التي أصابت بني إسرائيل ونذكر منها عدة مصراعات:

تاريخ

موشاب بشير ائه ل وابو تممه

رعمسيس ئيه موشابوتممه

قام مسفارا عامه بوتممه

ئي مو كائو بو تممه

(مرقه بن عمران)

مقابلها بالعربية

مسكن بني إسرائيل وأباهم

رعمسيس هي مسكنهم

جمع عدد مضايقتهم

هي أوجاعهم

ويشير بكلمة رعمسيس الواردة في هذه المنظومة بحساب الأبجدية إلـــى زمن مصائب بني إسرائيل وهي عام ٤٣٠ والحاصل أن مرقة يستحق الذكر بما فاز به من انعاش أرواح السامريين بما وضعه من المؤلفات والآثار.

ومن أشهر الرجال السامريين بعد مرقة باعتبار التاريخ هو عمــوم داره ويقال أن عمرم داره هو والد مرقة. ولكن القول الصحيح أنه من أحفاد مرقـــة. ولد عمرم في دمشق وتوفي فيها. ويتلو السامريون أشعارعمرم بالدرجة الثانيـــة بعد أشعار مرقة. ولهذا الشاعر آثار منظومة تحت عنوان (ادعية شبات وادعيــة الصوم) وله آثار منثورة. ويمكن أن يقال أن المزية الشعرية في عمــــرم هـــي قريبة من مزية مرقة. وآثار هذا الشاعر روحية ودينية

فمن توحيداته:	مقابلها بالعربية:
ميدلات ثه لا نيللا عاد	من حيث ليس آله إلا واحد
لا عالم الا ديله	لا خلود إلا له
لا يصطاكد إلا الكد له ... الخ	ولا يسجد إلا لكبريائه

توحيدية أخرى

اططائو عابوده دالاما آدلابه د

نيده ن ماله ك ياكه ل كائو باده ك عابه د

(عمرم)

مقابلها بالعربية

أنت هو مبدع العالم بغير يد

أين مالك بقدر فعالك يفعل

ولعمرم كثير من التوحيديات الطويلة مثل هذه. ولكن بعضاً منها علــــى شـــكل الرباعيات

فمن رباعياته:

ئه بي ئه شار. ئه بيا يه لي
آنيطا لا ميياز. وا آته ئه ليي
وه ييا كو لا لاق نيمه دوتا ئه ي
وآطا عاي اتيداق ئه بي شارئه بي

(عمرم)

مقابلها بالعربية

ازلي ابدي كان ويكون
كنت ليس من ابتداء والآن تكون
والقدرة لك تميت وتحيي
وأنت حي لذاتك يا ازلي يا ابدي

ويظهر من هذا أن آثار عمرم جميعها مملوءة باللهجة الروحية وقد وجد بين السامريين شعراء يشبهون عمرم وهم عبدالله النقا وأبو الغوث وابن منر وجميعهم من الشعراء القدماء المدفونين في دمشق.

أما شعراء السامريين الجدد فيحسبون من مشاهيرهم الشيخ مسلم والشيخ إبراهيم العيه وغزال الكاهن الذي مر اسمه قبلاً وخضر الكاهن ويخصون بالذكر الشاعر المصري مططانه المصري أي عطية المصري الذي توفي بعد سنة ٩٠٠ من الهجرة(١٤٩٤م) فإن لهذا الشاعر مقطعات غرامية فضلاً عن أشعاره الفلسفية والروحية وهو الذي أوجد طريقة الشعر الغزلي بين السامريين

- غزل بالسامرية -	"مقابله بالعربية"
عاشا قانقشي باك	عشقت نفسي بك
واني ئيله ك نكسه ف ئيلله باب	وأنا إليك هاوي القلب

دال اوليت يه دي مه شش كالمه	فقير وليس يدي طائله
نونو آصصو باب	وهو المحيط
وه قومام مرراق	والواقف من بعيد
وليتلي عازار مصفا آصصو باب	وليس لي العين قدر المحيط
عدئه ن يه قوم نه ممبار	حتى أن يقوم الكلام
ميماروه با كوده ق	كلام وحواسه شد (جمع)
مائه ئومه ر لاده ننى	ماذا أقول
مائه دد يبه ومائه صطه دق	وما يتكلم وما اعتذر
	"مطانه المصري"

ونزيد على ما ذكرناه أن السامريين على وجه العموم مرتبطون بـهذه المنظومات التي ذكرناها وذلك حسبما تقضي به حياتهم.

ويقال أن عدد الشعراء السامريين الذين بقيت آثارهم يبلغ الثلاثين. ومع هذا فقد مضى على السامريين نحو من قرن ولم يظهر لعالم الوجود أثر أدبي باللغة السامرية. ويظهر من هذا بشكل واضح أن دور الاضمحلال والسقوط مستولٍ تمام الاستيلاء على السامريين بحياتهم العنصرية وبأدبياتهم وعلمهم.

على أن الآثار الأدبية السامرية معينه تماماً فلا تتجاوز الرباب لـسيريك "Lyrique" ومقطعات العزف ديداقتيك "Didactique" ولا يعثر القارئ في أدبيات السامريين لا على وصف خيالي ولا على قصص تاريخية. ويوجد عند السامريين شيء من التهليلات وضروب الأمثال العامية التي لا يعرف قائلها. ولكن الأغاني غير موجودة مطلقاً:

فمن التهليلات:	"مقابلها بالعربية"
ئه عاته ن ئه يه قفه ر	يا عريس يا جليل
صالامه ك بوسه ن مانه ر	وجهك قنديل منير

ثه للوو ه ن لاق يائه ر   الله لك يانير
يه لبيشه ك كابود وطغائه ر   ويلبسك وقار واجلال

أما ضروب الأمثال فكثيرة عن السامريين ونذكر هنا عدة منها:

١- لاتوكا عططوك تيفه نومك مئنه ك

مقابلها بالعربية

لا تعذلني حتى تعذل نفسك منك

٢- وه ييامه م ئيك آراته لادما لاتد دائو

مقابله بالعربية

الأيام حبالى يجهلن ما سيلدن

٣- لتعا عاقارا مائيللا له ئه قه ب

مقابلها بالعربية

ما من ضيق عظيم إلاّ وله نهاية

ويقال أنه يوجد بين أيدي السامريين أكثر من مائه مؤلف تشبه ضروب الأمثال المذكورة وهي ذات علاقة بحالة السامريين الروحية والاجتماعية.

ولا يخلو من الفائدة أن نقول شيئاً عن الصنائع النفيسة بين السامريين بعد أن ذكرنا هذه الخلاصة عن الأدبيات السامرية.

٨- الصنائع النفيسة بين السامريين

إن الصنائع النفيسة بين السامريين لا تعتبر شيئاً بنسبتها إلى ادبياتهم والسبب في ذلك هو تحريم دينهم صناعة بناء الهياكل والرسوم. فقد كان السامريون عبدة أصنام حينما كانوا في بابل كما ذكرنا قبلاً. حتى أنهم لما انتقلوا لأرض سامره كان لكل قبيلة منهم صنم خاص. ولا ريب أنه كان للسامريين في ذلك الحين هياكل ومعبودات ثمينة جداً غير أنهم لما استوطنوا أرض سامره

ودخلوا في الديانة الموسوية وجب عليهم أن يتبعوا كافة تعاليم الديانة الموسوية ضد الصنمية. ومنذ ذلك الحين لم يبق للسامريين لا هيكل ولا رسم. ولا يمكن اليوم أن يرى شيء من الهياكل أو الرسوم لا في معبدهم ولا في دورهم. وكما أن جدران معبدهم مطلية بالكلس الأبيض فإن حالة بيوتهم كذلك فهي خالية من كل زينة ونقش. ومن الغريب أنك لا تجد في قواعدهم الدينية منعاً للمحكوكات[1] والمنقوشات. كما أنه ليس في أيديهم أثر حفظوه من الأزمنة الماضية مما يشير إلى شيء من هذا الخطر أو المنع. وربما قضيت عليهم الموضوعات المتقابلة باخراج هذه الآثار من أيديهم. ولا شبهة بأن النقوش التي أشرنا إلى وجودها على محفظتي توراتهم القديمة لا أهمية لها مطلقاً.

ومع هذا فإن فريقاً من شبان السامريين يشتغلون بمسائل الرسم بصورة متمادية ولهذا أحب أن أقول شيئاً في هذا الموضوع:

فالسامريون يشتغلون برسم تاريخ الموسوية ورسم جميع موروثاتهم ومقدساتهم ويضعونها في ألواح بأقلام ملونة وربما رسموها أحياناً بالصباغ المائي. والمشابهة تامة بين جميع هذه الألواح حتى تكاد أن تكون منقولة عن بعضها. أما البحث فيها عن أثر للصناعة فمن العبثيات. ورغماً عن بساطتها وكونها من مبدئيات الفن فإنها تبهج الأبصار ويشعر الناظر إليها بغرابة.

يرسمون على ورقة متوسطة الدرجة ستين شكلاً من شبه المنحرف ويخطون أمام شبه المنحرفات خطوطاً صغيرة ويصبغون الأشكال المذكورة بألوان مختلفة فيتكون من مجموع هذه الأشكال الملونة إطار للألواح الآنفة الذكر. ويوجد في القسم الفوقاني أي اعتباراً من نصف اللوح فما فوق أشكال مستطيلة ملونة متداخلة ببعضها وللمستطيل الخارجي مستطيلات مؤلفة من خطوط واشارات قريبة جداً من خطوط الاطار. أما في مركز المستطيل الداخلي

---

(١) المنحوتات.

فيوجد رسم كتاب مفتوح ويدعونه تابوت العهد وينقشون فوقه رســـوم طيــور وملائكة كرّوبين وعلى جانبي الكتاب رسوم عصاوي موسى وهــارون بشــكل شجرة عارية من الورق ذات غصن واحد وفرع واحد. ويكتبون بين المستطلين أسماء الخدمة.

وفي وسط اللوح تماماً رسوم قناديل بالزيت تشبه شكل شــجرة تــوت عارية من الورق ممتدة من اليمين إلى الشمال ورسوم عدة ملاقــط ومبــاخر. ومحل لوضع البخور. وفي الطرف الأخير محل للمائدة.

أما القسم التحتاني اعتباراً من نصف اللوحة فقد جعل على شكل منحــنٍ بهيئة قبة. وقد رسم في داخل هذا المنحنى جبب كهنة بـــاب القــدس ومبخــرة ومغسلة وابريق. وقد رتبت هذه الرسوم بجانب بعضها مبتدأة من اليمـــن إلـــى اليسار وهي مصفوفة بشكل ملاصق للمنحنى.

وفي الصف الثاني رسم السكين المستعملة في ذبــح القربــان. ومحــل القربان. وفي أسفل ذلك رسم "البوق" "وأسماء النافخين بـــالبوق" وعــدة قــدور وصحون فخار ونيران للقربان وقد رتبت هذه أنيقاً الرسوم في جانب بعضــــها أيضاً.

وعلى السامريين أن يقولوا أن هذا اللوح المنتقل رسمه من بطــن إلــى بطن منذ مئات وألوف من السنين – لم يرسم بفكر صناعي في حالته الحاضرة. ويبيعون هذا اللوح حالاً مقابل شيء معين. ولا يظن القارئ بأن في هذه الرسوم التي تصنع لإكرام السائحين القادمين من أقصى البلاد الغربية – استعداداً ولـــو جزئياً للترقي والتقدم. كما أنه لا يجول في الذهن بأن يفتكر السامريون بذلك ولو تكرر رسمها مئات السنين. وبقدر ما بقي فن الرسم على حالته الابتدائية فـــإن الرقص والموسيقى قد بقيا عندهم متأخرين بهذه النسبة. ومـــن بســاطة القلــب البحث عن الفن المعماري لدى السامريين.

ذكرنا قبلاً بأنه ليس للسامريين أغانٍ خاصة بهم. ونزيد على ذلك هنا بأنه لا يوجد عندهم شيء موقع على الانغام رغماً عما جاء في التوراة من أن مريم أخت هارون كانت تقدم ترتيلاتها الدينية على الدف والرباب. وليس بيد السامريين وثائق تاريخية تدل على أن الموسيقى ارتقت عندهم بعد ذلك التاريخ. فليس عند السامريين في الوقت الحاضر آلات موسيقية كما أنه لا وقوف لهم على شيء من الموسيقى. غير أن السامريين يرتلون أدعيتهم وينشدون منظوماتهم وآياتهم أثناء صلاتهم بلسان واحد وصوت منخفض ولكنه مرتب على نغم تجويدي واحد. ويأخذ مقام التجويد عندهم شكلاً ضخماً جداً وتغلب عليه القساوة المتوحشة أكثر من النعومة واللين.

غير أن السامريين يشعرون بلذة وانجذاب عظيمين من سماع هاته المقامات الثقيلة. ولا حاجة بنا للاشارة إلى الحالة الضيقة التي تدل على فقدان الكمال في أذواقهم السمعية. ومع ذلك فإن هذا القدر كاف لهذه الأمة التي باتت معرضة لكل حرمان. ونراهم قانعين بهذا القدر مكررين عبارة (كل حال يزول) وهم يفتكرون بأن الغفران الالهي سينحصر بهم وحدهم. بل هم يؤمنون بذلك تمام الإيمان.

-٦-

قضاء مركز نابلس

١ – حوالي نابلس

حان الوقت الذي نفارق فيه نابلس القديمة وشكلها الحجري المشبع بالخفاء والكتمان. وقد أحسسنا بعدم احتمالنا لهواء وادي سيشه م المخنق. بل كان احتياجنا للابتعاد عن هذا المحيط الكثيف والمنحط يتزايد بنسبة مضاعفة. وكنت أخاطب نفسي بقولي: لو لم تكن هذه الاحجار متوجة بتذكارات ماضيه

ثمينه. ولو لم يمنح التاريخ كافة كنوزه الروحية لهذه الأرض الخفية المستسلمة – فماذا تكون حينئذٍ حالة هذه الأراضي الصخرية الترابية؟ بل ماذا تكون درجة انحاطها وحرمانها من الثمرات؟

ولكن معانقة السعادة الخالية التي ستمنحها لهذه البلاد التذكارات الماضية وامتصاص الهواء الديني من هذه الآفاق الشائخة قطرة قطره – هي من أكبر الملاذ والأذواق. ولم يكن شيء أعظم للتسلي من تسليم النفس لسياحة فكرية في مهيع التمثل التاريخي. والانغماس وسط ذلك السكون الخيالي الحانم منذ أعصر فوق هذه الوديان وتلك الجبال وهاتيك الينابيع.

وكنت معتقداً أنني لم أعش في نابلس مع أنني مقيم فيها. وحينما كنت أتفرج على البلدة من أعلى شرفة في نزل الألمان القائم في نقطة مشرفة على سائر أنحاء البلدة – كانت (فلاويانيابوليس) تتجلى وسط الأشعة الذهبية من شمس الصباح بأنها تستلفت النظر اليوم أكثر من كل زمان مضى عليها. وقد كانت تتمثل بعيني خصوصاً في جبل العيبال المرتفع أمامي في الضفة الأخرى من الوادي مهارة الأسباط من بني إسرائيل الذين كانوا منتشرين في أنحائه. وكنت أسمع بأذني كلمة آمه ن التي كان يُنادي بها ربّ الكليم بقلوب متجهة إليه أسباط روبان (Ruben) وجعد (Tad) وعاسر (Aser) وزابولون (Zabulon) ودان (Dan) ونفتالي (Neptali) . بل أن مناجاتهم التي كانت تملأ جميع هذه الآفاق تنعكس في غاريزيم حيث تأخذ الأجوبة القدسية بل كنت أشعر أحياناً بأن أسباط سيمه ئون (Siméon) ولاوي (Levi) ويهودا (Juda) وئيساخار “Issachar” ويوسف (Joseph) وبنيامين (Benjamin) كانت تنادي بالاشتراك آمه ن بصوت ملؤه الاطاعة والتسليم. بل أن أفراد الجمعية الإسرائيلية "Josué" بأجمعها كان يصافح بعضهم بعضاً والمرأة والكبير والصغير والطفل وذلك باشارة من حضرة يوشع. يكبر كبراؤهم ويترنمون بتلاوة السور شاكرين من قلوبهم ومن

أحشائهم الالطاف الآلهية التي لا تتناهي فينصب عليهم حينئذٍ العفو والغفران من السماء وتفوز آنئذ تلك الطائفة العبرانية بالنعيم المقيم.

امتطينا الخيول من أمام النزل وسلكنا الطريق الشرقي وأنا مشتغل الذهن بالعبرانيين. وبعد قليل كنت أودع المقبرة عن الشمال والثكنة وعين الدفنة عن اليمين وهما بحالة ظلّ مبهم. ومن هنا انكشف أمامنا وادي سيشه م بشكل صحراء واسعة. وكانت أرض يعقوب "Thamp de Jacob" تتجلى بعظمتها واتساعها في سفح غاريزيم فجالت حينئذٍ في نفسي هذه الأفكار:

ما أكثر التذكارات الثمينة المملوءة بها هذه الأراضي؟ فسألت تلك الاهوية القدسية التي كانت تهب من هناك. والمياه الفضية التي كانت تتدفق متلألأة. والتراب العنبري الذي ينفتح له الصدر واستطلعت منها خبر الوقائع الماضية فأجابتني قائلة:

ترك حضرة إبراهيم أرض حران وسار إلى جبال كنعان. فمر هنا وركز خيمة له تحت شجرة قديمة وبقي مدة تحت هذه الشجرة تصحبه أسرته وسائر أفراد معيته. ولقد تُقبل دعاؤه الحار الذي خرج من قلبه في هذا المحل. فوعد الحق تعالى قومه بهذه الأرض إلى أن مضت السنون وكان حضرة يعقوب عائداً من برية الشام فمر بقرية سالم[1] القريبة من هذه الأماكن وابتاع تلك المحلات فسميت هذه الأراضي أرض إسرائيل.

لا تنفك أشعة الشمس عن أرض إسرائيل فتحرق ما تصيبه بنورها الملتهب. ولقد كان سكان أنحاء نابلس يمرون على الطريق وقد لفحت وجوههم الشمس فيذكروننا بأنهم أحفاد (السيشه ميين) القدماء في ذلك الموقع. ولقد كان في نظراتهم معان مندمجة وكأنهم يشيرون بأصابعهم إلى هذه الأرض ويريدون

---

(1) سالم: قرية تقع شرقي نابلس على بعد ٦كم منها. معجم بلدان فلسطين، ص٤٤٠؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٨٢.

أن يقولوا أن أجدادنا السيش ميين أخذوا جدتنا دينا "Dina" ابنة يعقوب من هـــذا المكان وذهبوا بها.

كانت الحوادث السابقة تنبعث في ذهني تمثيلاً يعرض فيــــه أولاً تــأثر يعقوب ثم عناد السيشه ميين وإصرارهم عليه ونهاية الفصل أرى بعيني فـــرار "دينا" السعيد.

جئنا بعد مدة إلى أمام قرية بلاطة فوقفنا في جانب منبع لطيف. وحينمـا كان مختارو القرية يقصون علينا أنباء البلاء الذي أصاب القصبة ويتكلمون عن انحطاطها وسفالتها كان فكري مشغولاً فوق هذا المحيط واحتضان ماضيه فقـط. ولما كنت أفتكر بحضرة يعقوب تواردت على ذهني مسألة البئر الذي أمر بحفره هنا فكنت أرسل بصري للبحث عنه. ثم واصلنا السير فبدت أمامنا فـــي الجهــة اليسرى قصبة صغيرة بيضاء ولكنها جديدة. فسألت طفلاً حافياً صادفتـــــه فـــي الطريق عن هذه القصبة ولما قال بصوته الرفيع الرنان "عسكر" خطـــر ببـــالي حينئذ قصة صناعة اللؤلؤ. نعم موقع بير يعقوب هو جوار سيشار (Sichar) ولم يكن يخطر ببالي أن سيشار القديمة ستكون جديدة على هذه الصورة. وبعـــد أن مكثنا هنا زمناً قليلاً اتبعنا طريق غاريزيم نحو اليمين فوصلنا بعد قليل إلى بــئر يعقوب (Puits de Jacob).

وبينما كنت داخلاً للدير الذي أنشأوه الروم الأرثوذكس فوق هذا البـــئر كان دماغي مشحوناً بالتذكارات العيسوية. فتقرب منا راهب متقدم بالسن وقـــال لنا بصوت مرتجف اعتاد أن يخاطب به السائحين دائماً أن هذا المحل معـروف باسم دير يعقوب ونحن المسيحيين نسمي هذا المحل أيضاً دير السامريين ولا بد أنكم قرأتم قصة السامرية (La Samaritain)

في العهد الجديد فإن المخلص لما ترك العالم اليهودي وجاء إلى غاليله مرّ يومـاً من الأيام مع أتباعه التعبين المنهوكي القوى من هذا المحل وجلس في جـــانب البئر فنزل أتباعه إلى بلدة شيسه م لتدارك مأكلهم . فجاءت في ذلك الحين امرأة

سامرية لتستقي من البئر فقال لها حضرة يسوع أعطني ماء لأشرب فقالت لـــه أنك يهودي وكيف تجسر أن تطلب ماء مـــن ســامرية؟ ألا تعلــم أن اليــهود والسامريين لا يخالطون بعضهم؟ ولما سمع المسيح كلام المرأة أجابها بقوله لــو علمت مقدار المنحة الإلهية لعَرفت من هو الرجل الذي يقول لك أعطنـــي مــاء لأشرب ولكنت أنتِ تطلبين منهُ الماء ولكان هو يعطيكِ ماء الحياة...إلى آخر ما قال (الفصل الرابع من إنجيل يوحنا).

وقد كان الراهب يتكلم بحرارة وشوق ديني كأنهُ يتلو فصلاً من الإنجيل. وربما كان يضيف على ذلك شيئاً من الحواشي من عند نفســه وكنــت أدخــل الكنيسة وصوت يسوع لا يزال يرن في أذني وهو يقول للمرأة إن الذي يشــرب من هذا الماء يعطش ولكن الذي يشرب من مائي لا يعطــش. فــأوقد الراهــب المشاعل وأنزلها إلى البئر فطليت برأسي على البئر فوجدت المشـــاعل كأنــها نجوم سقطت فيه فكان منظر المشاعل لطيفاً جداً فأعطونـــا مــن ذلــك المــاء التاريخي فشربنا منه. ولا أنكر أن ذلك الرحيق التاريخي قد أسكر الفكرة منـــي. وحينما كنا نتباعد عن الكنيسة والدير ونسير بين أغصان الزيتون كنت أشـــعر بضعف لا أقدر معه على تحمل التذكارات الماضية.

كانت ذروة جبل الطور مشرفة عليَّ من الجهة اليسرى وكأنها رقيـــب يشيعني بسكون وهدوء حتى نابلس.

٢- الأحوال العمومية في قضاء مركز نابلس

١- الموقع والنفوس

يقع قضاء مركز نابلس في منتهى الجنوب من لواء نابلس وهو محاط من شماله بقضاء جنين ومن شرقه بلوائي حوران ومعان[1] ومن جنوبه بلواء القدس ومن غربه بقضاء بني صعب. وتبلغ نفوس القضاء ٥٦٥٧٥ شخصاً منها ٢٧٦٩٦ رجلاً و٢٨٨٨٢ امرأة.

القرى المربوطة بقضاء المركز	قرى	دور
	٩٦	٧١٢٧

	ذكور	إناث	قرى
مديرية جماعين(ناحية رسمية)	١٠٧٦٢	١٠٤٧١	٤٥
ناحية مشاريق عناوي (ناحية غير رسمية)	٠٨١٨٩	٠٧٨٧٥	٢٩
ناحية وادي الشعير (ناحية غير رسمية)	٠٤٥٦٤	٠٤٢٨٠	١٥
ناحية مشاريق جرار (ناحية غير رسمية)	٠٤١٧٨	٠٤٢٥٥	٠٧
يكون	٢٧٦٣٩ (٢٧٦٩٣)*	٢٦٨٨١	٩٦

أجرى عام ١٢٩٩هـ(١٨٨١م) تحرير للنفوس في عموم اللواء ولكن الوصول إلى نتيجة منه أمر مستحيل لاختلاط أوراقه وعدم تصنيفها وترتيبها.

---

(١) يحدد ياقوت معان بأنها مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. وهي اليوم واحدة من المحافظات الأثني عشر التي تتكون منها المملكة الأردنية الهاشمية. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٥٣.

* المجموع الصحيح للذكور هو ٢٧٦٩٣ لا ٢٧٦٣٩.

وعام ١٣٢١هـ(١٩٠٣م) أجرى تحرير نفوس جديد فظهرت زيادة ١٤ ألف شخص في النفوس. وعام ١٣٢٨هـ(١٩١٠م) أجرى تحرير نفوس ثالث فظهرت زيادة ١٢٠٠شخص. ويؤخذ من معاملات النفوس في عام ١٣٣١هـ(١٩١٣م) أن المواليد كانت ١٢٣١ والوفيات كانت ١٨٥٩ وفي عام ١٣٢٩ (١٩١٢م) ولد في جميع أنحاء القضاء ٨٥١ ولداً. ومما يستلفت النظر قيود النفوس لعام ١٣٣٠هـ(١٩١٢م) فان عدد المواليد زادت فيها ١٤٧٩ وذلك بسبب إعلان العفو عن المكتومين. وكانت الوفيات عام ١٣٢٩هـ(١٩١٢م) (٥٩٨) وعام ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) (٢٧١) ولا ريب أن عدم التناسب بين هذه الأرقام يظهر لنا درجة ابتعاد قيود النفوس عن الحقيقة وعدم اهتمامها بها.

٢-المواقع التاريخية

جبلا غاريزيم وعيبال – يرى في المنتهى الشمالي من جبل غاريزيم أو جبل الطور وارتفاعه ٨٦٠ متراً وهو أحد الجبلين اللذين يتألف منهما وادي نابلس قلعة خربة على شكل شرفة كبيرة. ويغلب على الظن أنها من أيام الإمبراطور البيزنطي جوستنيان ولكن ثخن جدار القلعة مقدار متر ونصف وطرز إنشاء الجدران يشير إلى أنها من آثار دور تاريخي أقدم من ذلك التاريخ.

ويدعي السامريون أنه لا يزال يرى صخر كبير في المعبد الذي أنشأوه قبلاً وسط القلعة الكبيرة. ويستدل من الآثار القديمة الباقي(1) في أنحاء مختلفة من القلعة أنه كان على جبل غاريزيم كثير من الدور والمآوي. ويدعون أنه في الزاوية الجنوبية الشرقية قد أمر حضرة إبراهيم بتقديم حضرة اسحق قرباناً لله. ويرى من ذروة جبل غاريزيم منظر بديع جداً. ففي الجهة الشرقية صحراء

(1) الباقية.

ماخنة المحاطة بتلال صغيرة ومـــن وراء قـرى عســكر. وكفـر قليــل[1]. وعزموت[2]. وسالم. وبيت دجن. وروجيب. وعورته. وعلى بعد من ذلك جبـل غالاد وجبل أوشا الحاكم عليه أما الجهة الشمالية فيسترها جبل عيبال. ومع هـذا فإنه يمكن عن بعد تفريق جبل الشيخ عن سواه وإذا كان الهواء صافياً يرى جبل الكرمل من جهة الشمال الغربي.

أما جبل عيبال أو سيلمية وارتفاعه ٩٣٨ متراً فيحيط بالجهة الشـــمالية من نابلس. وأما المنظرة التي ترى من ذروته فهي أكثر اتساعاً مـــن منظـرة غاريزيم. فالواقف على قمة الجبل يرى عن بعد كافة جبال غاليله من الكرمـــل حتى بلوغ جبل جلبوع وفضلاً عن ذلك فإنه يرى عن بعد أكثر من هــذا جبـل الشيخ وقصبة صفد. ويمكن تفريق سواحل البحر الأبيض من الجهـــة الغربيـة وجبل حوران من الجهة الشرقية. وفي الجهة الشمالية منه تقوم على تلة قريـــة طلوزة[3] التي دعاها القدماء تيرزه والتي كانت عاصمة لحكومة كـــان أسســـها اليهود في الجهة الشمالية لمدة معينة.

دير بئر يعقوب

يتناقل النصارى أن حضرة عيسى عليه السلام كان وعظ امرأة سامرية من نساء قرية عسكر ثم وعظ السامريين في نابلس ولهذا فإن المسيحية تقـــدس

---

(1) كفر قليل: قد تكون تحريف كلمة قليلة السريانية بمعنى قلائل فيكون المعني قريـــة القلـــة. وهي تقع على سفح جبل غاريزيم الشرقي على مسافة ٤كم من نـــابلس. معجـم بلــدان فلسطين، ص٦٢٧؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٩٠.

(2) عزموت: عزموط: قرية تقع شرقي نابلس على مسافة ٥كم. معجم بلدان فلسطين؛ قـاموس القرى الفلسطينية، ص٨٥.

(3) طلوزه: قرية تقع شمالي شرق نابلس على بعد ١٥كم. قاموس القرى الفلســطينية، ص٨٣؛ معجم بلدان فلسطين، ص٥٠٢.

هذين المحلين. ويروى أن حضرة يعقوب عليه السلام لما جاء مع أسرته من الجزيرة مهاجراً إلى فلسطين وقف لمدة أمام قرية سالم داخل قضاء جنين وابتاع من هه مور والد سيجه م شيئاً من الأراضي. ثم أنشأ بين قرية سالم وبلدة نابلس وعلى بعد نصف ساعة من البلدة الأخيرة معبداً لله وحفر بئراً وهذا وجه تسمية الدير. ويروى أنه لما حانت وفاة حضرة يعقوب أوصى بأملاكه في المزارع الجميلة القائمة بين جبلي عيبال وغاريزيم التي تسمى صحراء يعقوب إلى ولده حضرة يوسف عليه السلام.

فالدير أنشئ لأول مرة من قبل الامبراطورة هـــه لـــن[1] عـــام ٣٥٠م وبتعاقب الأزمان خرب ثلاث مرات وتجدد بناؤه في كل مرة. وقد باشر الروم الملكيون بتعميراته الأخيرة منذ ثمان سنين بموجب فرمان[2] أعطى لهم من الباب العالي[3]. وقد صرف على التعميرات التي لم تتم بعد مقدار سبعة آلاف ليرة جمعت من الاعانات. ولم يتم من البناء سوى الدير الذي يستر بئر يعقوب ذاته وقسماً من الكنيسة العظيمة المزينة. ويجري الماء بصورة دائمة من الشمال إلى الجنوب في البئر الذي يبلغ عرضه مترين وعمقهِ ٣٠ متراً وقد رسم مصور الدير الكبير "فرانكيا" أفندي أحد أركان نظارة النافعة اليوم والذي كان مهندساً للنافعة في القدس. ولا يزالون في حاجة لعشرة آلاف ليرة على الأقل لتطبيق هذه المصور حرفاً بحرف. ولقد كان يزور الدير كل عام قبل الحرب زائرون روسيون يتراوح عددهم من ألفين إلى أربعة آلاف يدفع كل واحد منهم إعانة من فرنك إلى خمسين فرنكاً. وقد كانت واردات الدير عام١٩١٢م ٤٠٠ ليرة ومصارفه ٢٨٣٩٩ قرشاً.

---

[1] الامبراطورة هيلانة.

[2] فرمان: وهو القرار والأمر السلطاني. محافظه وهزايمه، الروض الزاهر، ص٤٧.

[3] الباب العالي: ويقصد مقر السلطان العثماني.

ويغلب على الظن أن الجمعية الفلسطينية المعهودة[1] في روسيا قد قامت بمعاونة مالية كبرى في سبيل تعميرات هذا الدير. وعلى بعد ١٦٠ متراً في الجهة الشمالية من بئر يعقوب مقام نبي الله يوسف عليه السلام. وقد جاء بصراحة في الكتاب المقدس أن أولاد إسرائيل نقلوا بقية عظام يوسف عليه السلام من مصر إلى هذا المحل المقدس.

٣- المعارف:

في قضاء نابلس ٥٣ مكتباً ابتدائياً للذكور منها أربعة نموذجات (نمونه) في قصبة نابلس. وفي مكاتب الذكور ٧١٢ طالباً. وعلاوة على ذلك ففي المركز ثلاثة مكاتب إبتدائية للإناث وفيها ٤٠٠ طالبة تقريباً. وقد ظهر لنا من التدقيقات التي أجريناها أن نقص ٢٠ في المئة من المداومين على المكاتب والسبب في ذلك الفقر واضطرار الأطفال للعمل ليكتسبوا قوتهم.

وعلاوة على مكاتب الإناث الثلاثة في نابلس فقد أسس فيها مكتب حضانة افتتح قبل سنة ونصف من واردات المعارف المحلية تحت عنوان مكتب الإناث الليلي. واعتباراً من مارت[2] في هذه السنة تحول إلى مكتب حضانة وجعلت ميزانيته من المحاسبة الخصوصية. وعدد الطالبات في المكتب المذكور ١٠٠ عشرون منهم داخليات يتعلمن ويطعمن مجاناً. وقد كان حتى شهر مايس[3] ست بنات داخليات بأجرة معينة. غير أن إدارة المعارف أخرجتهن من

---

(١) الجمعية الامبراطورية الاورثوذكسية الفلسطينية الروسية، أنشأتها الحكومة الروسية لتقوية المذهب الارثوذكسي في الشرق ومقاومة النفوذ الكاثوليكي والبروتستانتي من خلال انشاء المدارس بالاضافة إلى الاشراف على عمليات نقل الحجاج الروس. زهير غنايم، لواء عكا، ص٢٨٠-٢٨٣؛ Derek, Hopwood, Russian Presnce. Pp 96-137.

(٢) ويقصد شهر أذار.

(٣) ويقصد شهر ايار.

المكتب بسبب تقدمهن في السن على بقية البنات. ويمكن لكل ولد يتراوح سنه من الأربع سنين إلى الستة أن يدخل مكتب الحضانة سواء غلاماً أو ابنة. وأجرة التدريس الليلية ١٥ ليرة عثمانية ويؤخذ من الطلبة النهارية أبناء الأغنياء مجيدي كل شهر. ولقد أحدثت مسئلة استيفاء الأجرة عن الطلبة النهارية تأثيراً سيئاً فاضطرت كثيرات من تلميذات العام الماضي لترك المكتب والخروج منه. ومن الضروري الاشارة إلى لزوم اتباع خطة الحكومة المستحسنة وهي جعل التعليم الابتدائي مجاناً. وإلغاء استيفاء الأجرة عن الطلبة النهارية حتى تعود إلى المكتب الرغبة الأولى. ولقد سمعنا مديرة المكتب تشكو من فقدان الآلات والأدوات التدريسية اللازمة لفن الحضانة وأنها بسبب ذلك تلاقي صعوبات جمة بأداء وظيفتها وهي ترجو المسارعة بإرسال أهم هذه الآلات والأدوات.

اشتهر النابلسيون بميلهم للعلم والعرفان. وفي الحقيقة أن مدينة نابلس أرسلت حتى الآن ٣٠٠ طالب من أبنائها إلى المكاتب العالية والتالية في استانبول وبيروت مصر وأوروبا. ولقد أصبحت الرقابة المستحسنة بين أولياء الأطفال في نابلس بإرسال أولادهم إلى المكاتب الكبيرة لاكمال تعليمهم وتحصيلهم. ولا يمكن بهذه المناسبة أن أمنع نفسي من اظهار الملاحظة الآتية:

أن معارف القضاء منحطة جداً فهي تحتاج لإصلاح عاجل. ولقد خصص في الميزانية الخصوصية مبلغ ٦١٠١٤٠ غرشاً لمصارف المكاتب الابتدائية في القضاء ولكن يا للأسف لم تحصل فائدة من صرف هذه المبالغ. فإذا جعلنا المكاتب الابتدائية المقبولة نوعاً ما على حدة وخرجنا للنظر في مكاتب القرى يرجع المفتش عليها وقد امتلأ حزناً وأسفاً. فيقال أن عدد المكاتب في القرى ٤٩ ولكن ليس من مكتب فيها يقوم بوظيفة التدريس والتهذيب. ويمكن أن يقال أن كافة المعلمين للمكاتب المذكورة جهلة بمعنى الكلمة بل هم عشاق الراتب. انظر إلى مكتب بلاطه التي يبلغ عدد نفوسها الثلاثمائة فإنك لا تجد فيه أكثر من ١٥ – ٢٠ طالباً وفي مكتب قرية عسكر خمسة أولاد. وفي مكتب

قريتي سبسطية وناقورة[1] ٥٠ تلميذاً. أما في قرية سلْفيت التي تبلــــغ نفوســـها الثلاثة آلاف فلا يوجد في مكتبها الابتدائي للإناث أكثر من سبع أو ثماني بنات. ولقد افتتح المكتب في قرية كفر حارس منذ ثمان سنين تقريباً ولا يوجد الآن في القرية طفل يقرأ أو يكتب. وفي قرية ديرستيا مكتب يــــتراوح إليـــه ١٠ أو ١٥ طالباً ولكنه بناء صغير قذر منحط جداً. وحـــاصل القـــول أن حالـــة المكـــاتب الابتدائية في القرى النابلسية التي طفنا فيها- مؤلمة ومحزنة جداً فمعلموها جهلة جهلاً مطبقاً فلا قوة ولا استعداد ولا أهلية فيهم لتعليم القروي وتهذيب أخلاقـــه. وعلاوة على ذلك فأن تأخر الرواتب على المعلمين منذ أشهر دعاهم إلى إغــلاق المكاتب والاشتغال بالبيع والشراء للقيام باود أنفسهم. فعوضاً من أن نخدع أنفسنا ونفتح مكاتب منحطة قذرة سافلة مثل هذه المكاتب ونصرف عليها ستمائة ألـــف غرش وكسور- يجب أن نغلق كافة هذه المدارس ونجتهد بأن نفتح عوضاً عنها ثلاثة أو أربعة مكاتب ابتدائية بدرجة نمونه[2] بشرط أن تكون ليليـــه ونســـلمها لأيدي أساتذة أفاضل خلوقين أرباب معرفة واقتدار. فالقروي لا يستفيد اليوم من التسعة والأربعين مكتباً المفتتحة ولا ريب أن المكاتب الليلية المنظمة التي تفتـــح في المحلات الكثيرة النفوس في القضاء يستفيد منها الأهلون علماً وتـــهذيباً. وإذا لم يكن كذلك فلا معنى لنفخ الميزانية المحلية الخصوصية وتكليفها المصـــــارف الزائدة.

٧-حين المرور من سباستيه

أتعبنا سفرنا الذي امتد هذا اليوم بضع ساعات. ولقد وجدنا فـــــي بـــهو النزل الألماني الكبير أنساً بسكونه وارتياحاً بنفحاته الراطبة وشعرنا بذلك أكـــثر

---

[1] ناقورة: قرية تقع شرق سبسطية (نابلس) وعلى مسيرة ميل منها. معجم بلدان فلســــطين، ص٧٠٦

[2] نموذجية.

من كل حين. حتى كانت الأرائك الحريرية لا شيء عندنا بجانب تلك الراحـــة. وبينما كنا غارقين في رؤيا محرقة في الوقت الذي آن لنا أن نفارق فيـــه هـذه البلدة تمام المفارقة فقد كنا نستعجل بلا صوت ولا حركة لركوب المركبة التـــي كانت واقفة أمام باب النزل لنقلنا إلى محيط آخر.

أخذنا نفارق تدريجاً دور نابلس الغارقة في سباتها بين أغصان شـــجر الزيتون وأوراق الصبار.ثم أخذت مآذنها البيضاء تبعد عنا. ثم فارقنـــا منظـرة البلدة بغبارها ودخانها. وكانت مركبتنا متبعة في سيرها نحو الشمال من نـــابلس طريق الوادي الممتد إلى يافا وكانت تسير بالعجلة التي يمكنها.

انقضت عدة ساعات بعد الهاجرة. فأخذت الشمس تتردد بارسال أشـعتها المحرقة البيضاء التي كانت تزكي نيراناً غير مرئية في الوادي. ولا ننكـــر أن الوادي الذي قطعناه كان جميلاً جداً.

ولكن هذا الجمال المبهم لا يدركه إلا شعور محتمل أو فكر ملم بتبـدلات هذا الأفق في غير الزمن الذي وجدنا فيه. ولما زار بير لوتي محيط نابلس فـــي هواء ثقيل قال عنها "لو لم تكن سحب الشتاء وأمطار ذلك المحيط الخالية مـــن الرحمة– لكانت نابلس جذابة (charmante) جداً. إنني أخشى أن خيـــال لوتـــي الملون يرفرف فوق هذا المحيط الناري الخالي من السحاب والمطر فيبحث عـن جاذبية نابلس في محلات بعيدة عنها.

ومع هذا فإنني أعترف بأن شاعر غاليله قد وجد وادي الرعيـــان هــذا ساكناً وجذاباً. وقد بذل جهده بحماس ليصف لنا حالة أشجار الزيتـــون القديمـــة العمر. وحالة المياه التي تجري هنا وهناك. وكأنه يقول "لم يكن في هذا الطريق لا قرية ولا دار فالسكون سائد على جميع الأنحاء وربما يصادف الإنسان أحياناً راعياً يسوق قطيع غنم. ويرى الناظر أطواراً في المزارع شقيقاً أحمر أو زهـــو الأنبياء Bleuet وقد تفتحت أكمامه وتتراآى له عن بعد خرابات صغيرة.

نعم أن لوتي لم يخدع قرآه بما كتبه فقد قطعت مركبتنا ساعة بسيرها ولم نشعر بشيء يعكر السكون المستولي غير أن قطعاناً من الغنم كانت تتقدم بهدوء. وكانت حزمات من الأشعة المحرقة قائمة مقام الأزهار اللطيفة. وليس في ذلك شيء مثمر. وكان يمر أحياناً عدة من القرويين أو مركبة تقل مسافرين إلى نابلس فتحدث ضوضاء مدة قليلة ثم تبتعد عنه.

وبينما كنا نمعن النظر في ألبسة بني البشر في هذه البقعة خطر ببالي لوتي وتذكرت ما يدعيه بحماس وهو قوله.

"إن سكان الأرض المقدسة قد اكتسبوا ألبسة توافق المحيط فإن الساكنين في الصحارى يلبسون أعبية رمادية مع أن الذين يعيشون حول نابلس يكتسبون ألبسة تلائم أزهار المحيط الملونة".

وحقيقة ما يقوله لوتي. فقد كانت هذه الخواطر تمر على ذهننا حينما كانت تظهر علينا من الجهة اليسرى من بين الروابي المرتفعة قرية رفيديه[١](Refidie) ثم قرية بيتوزن[٢] (Beitouinz) ثم بيت ايبا[٣] (Beitibia) ثم تختفي بعد قليل وراء الروابي الصغيرة. وكانت قصبة زامتاتا[٤](Zamtata) تتباعد عن نظرنا من الجهة اليمنى.

---

(١) رفيدية: قرية تقع غرب نابلس وعلى مسافة نحو ميل منها. معجم بلدان فلسطين، ص٤١٤-٤١٥؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٨١.

(٢) بيت وزَن: قرية تقع في ظاهر بيت إيبا الشرقي التابعة لنابلس. معجم بلدان فلسطين، ص٢٠٦؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٧٧.

(٣) بيت ايبا: قرية تقع في الغرب من نابلس على بعد ٧كم منها. معجم بلدان فلسطين، ص١٧٨؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٧٦.

(٤) زواتا: قرية تقع شمال غرب نابلس على بعد ٦كم منها. معجم بلدان فلسطين، ص٤٣٤؛ قاموس القرى الفلسطينية، ص٨١.

مضى على خروجنا من نابلس ساعة من الزمن فاضطررنا للإنحـراف قليلاً عن الطريق المعبد حينما قربنا من مجرى ماء قديم فبدأنا نتبع جهة الشمال الشرقي في سيرنا. فمرت من أمامنا على الجهة اليسرى وعن مسـافة طويلـة قرية دير شرف[١] ومرت علينا من الجهة اليمنى عين "ناقورة" عن نصف ساعة تقريباً وبعد مدة قليلة ترآت لنا قصبة سباستيه المدفونة وسط أشـجار الزيتـون على ربوة عالية. فاضطررنا لترك العربة كي نتسلق تلك الرابية فنصـل إلـى القصبة. فمشينا مقدار ربع ساعة تقريباً في طريق ضيقة وحجـرة[٢] والشـمس المائلة للغروب تتبعنا بأشعتها الصفراء من ورائنا. وقطعنا عدة منحنيات. ومـا كدنا ندخل القصبة حتى تبدلت الملاحة التي رأيناها فيها عن بعد تمام التبـدل. فداخلتنا الحيرة وخصوصاً أن ماضي سباستيه المطنطن لا يزال ذكره يرن فـي آذاننا.

كان يوربعام[٣] (Ierubeam) أحد ملوك بني إسرائيل نقل عاصمة ملكـه من سيشه م إلى تـرازي وهـي قصبـة طلـوزة اليـوم. ثـم نهـض

---

[١] دير شرف: قرية تقع في شمال غرب نابلس على بعد ٩كم منها. وتتفرع منها أطراف إلى نابلس وجنين وطولكرم. معجم بلدان فلسطين، ص٣٩١؛ قـاموس القـرى الفلسـطينية، ص٨٠.

[٢] مليئة بالحجارة.

[٣] يوربعام: يربعام: يوربعام الأول مؤسس مملكة إسرائيل وأول ملوكها ٩٣٠-٩١٠ق.م ايام حكم سليمان. أحدث يربعام انقسام ديني اضافة إلى الانقسام السياسي فأنشأ مركزين للعبادة في دان وبيت ايل ونصب في كل منهما عجلاً ذهبياً يستقطب الشعب ويصرفه عن الذهاب إلى اورشليم. معجم الحضارات السامية.

أحــــد أخــلافه المسمى اومرى[1] (Omri) الذي تملك من عام (٨٨٥- ٨٧٤) قبل الميلاد وابتاع من سومه ر (Somer) الربوة التي يملكها وهي ربوتسه مرون (Semeron) فأشاد فيها قصبة يلفظ اســمها باللســان العــبراني شــومه رائيــم (Schomeraim) ونقل على هذه القصبة عاصمة ملكه من ترازي التي خربت. ثم صار اسم هذه القصبة في السنة اليونانيين ساماريا (Semaria) وأصبحـــت ذات شأن يذكر مدة من الزمن في أيام الحكومة الإسرائيلية حتى أن اسم شـــوميرائيم انتقل إلى سائر مقاطعة سيشه م . وتولى الملك في " ساماريا" بعد اومري الملــك آخاب[2] ثم ئوقوزياس ثم جورام وقد جرت هنا حروب معروفة مع ملك الشام به ناداب سالت فيها الدماء. ولقد هاجم هذا المركز البديع اسرحدون (Asyaraddok) ملك بابل واسكندر الكبير[3] ملك ماكدونيا. ثم أخذ هه رود الكبير بتجديـــد مــا

(1) اومري: هو سادس ملوك إسرائيل. كان قائداً لجيوش الملك إيلة وعند وفاة هذا الأخير نادى الجيش به خليفة له. شن حملة على رمزي قاتل ايلة، وأرغمه على احراق نفسه مع عائلته وجعــل مــن السامرة عاصمة له وحقق انتصارات على المؤابيين. معجم الحضارات السامية، ص ٦١٩.

(2) آخاب: Akhab آخاب بن عمري سابع ملوك إسرائيل حكم ٨٧٤-٨٥٣ ق.م تزوج من إيزوبعــل ابنة بعل ملك صيدا وصور التي أدخلت العبادة الفينيقية إلى السامرة رسمياً مما أحدث ضعفاً فــي الديانة اليهودية وجعل النبي ايليا يقاوم هذه العبادات. انتصر آخاب على برحدو ملك دمشق ســنة ٨٥٧/٨٥٨ ق.م وأحرز بعض الانتصارات على المؤابيين ولكنه خسر مادبا في المرحلة الأخــيرة من حكمه. اشترك في معركة قرقر إلى جانب التحالف الآرامي الذي لم يتمكن من الانتصار علــى شلمانصر الثالث سنة ٥٨٣ ق.م. معجم الحضارات السامية، ص٥١.

(3) الاسكندر الكبير: Alexander III The Great (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) الاسكندر بن فيليبـــوس الثـــاني المقدوني ملك مقدونيا ٣٣٦-٣٢٣ ق.م تعلم على يد ارسطو وورث عـــن أبيـــه ذكـــاء وحيويـــة مدهشتين تسلط على بلاد الاغريق وزحف إلى اسيا الصغرى وحررها من الحكم الفارسي ثم احتل الساحل السوري ومصر وتوجه بعدها إلى بلاد فارس واجتاز الفرات ودجلة. واحتل ايران والــهند ولكنه توفي وهو صغير السن فانقسمت الامبروطورية التي أنشأها بي قواده العســكريين. معجــم الحضارات السامية، ص١١٩؛ الموسوعة السياسية ج٦، ص٢٣١-٢٤٠.

تخرب في القصبة وزينها من جديد. وأقام فيها معبداً جليلاً. وسمى هذه القصبة سباستيه الدال على معنى اوغسته.

حينما كنا نصعد إلى هذه القصبة متساندين ونقطع طريقاً أشبه بطريق الماعز. كانت عاصمة السلطنات الزائلة تترك في أدمغتنا ولا ريب تذكارات ثمينة جداً.

أما اليوم فقد خرب كل شيء فيها ولم يبق على طريق القصبة الصغيرة سوى غرائس " الصبار" والقصبة عبارة: عن باحات ترابية خالية تلعب فيها أطفال بين أرجل الأبقار...أكواخ من التراب بلا نوافذ..فضلات السكان منتشرة هنا وهناك...جيوش من الذباب ملأت الأرض والسماء والهواء.......لم يبق في هذه البلدة القديمة التي كانت ذات أبهة وعظمة قبل ثلاثة آلاف سنة– شيء يدل على ماضيها وسابقها. ولو لم يعثر الداخل إليها على أنقاض عدة معابد مبعثرة وعلى أعمدة متكسرة وملقاة هنا وهناك – لكان من السهل المسارعة بإنكار التاريخ المطنطن لهذه البلدة. كان وصولنا إلى القصبة حادثة تستلفت النظر فجاء مختار القرية وشيوخها. ثم وصلت كتلة من الأهالي مسرعة من محلات حصادها. واتصل الخبر بالأطفال فالتفوا حولنا. وكان الصغير والكبير منهم يرمقنا بنظراته التي كانت تتراوح ما بين نظرات مستفهم ونظرات خائف مستنكر. وكان هؤلاء الذين لم يروا وجه زائر منذ زمن بعيد ينظرون على بعضهم.

كان منظر سباستيه الداخلي محزناً جداً. وكنا نرسل أبصارنا إلى المحلات التي تستحق المشاهدة والإمعان إلى أن وجدنا نفسنا بعد مدة جزئية أمام جامع "النبي يحيى" كان هذا الجامع قديما كنيسة "Saintjean Baptiste" فما أعظم يتم هذا المحل الذي يحسب من أشهر آثار فن العمار في العصر الثاني عشر؟ ففي قسم مظلم وعفن من الباحة المبلطة والأحجار مكتب القصبة الابتدائية وقد

اختبأ هناك كي لا يرى. وفي الطرف الآخر من الباحة مغارة نزلنا إليها بعشرين درجة وهناك يحيى في سباته الأبدي.

ثم ذهبنا بعد قليل على محل يشبه طبقة تحت الأرض حيث توجد أعمدة كثيرة ما بين قائمة ومائلة. فركعنا أمام هذه الآثار الباقية من أيام (هه رود) بل كنا نشعر بحمرة الخجل التي استولت على الشمس التي كانت تغرب عن بعد منا. ومع هذا فإن سكان القصبة كانوا ناعمي البال هادئي الفكر. وكان يتجلى من نظراتهم أن لا علاقة لهم بماضي القصبة التي يقطنونها. وأن إنقاض المعبد القديم لتشتكي بدموع اليتم من وراء جدران اتخذت مربطاً للأبقار ومحشراً للحيوانات. ولا أنكر على القارئ إنني شعرت بلزوم تباعدي بسرعة عن هذه العاصمة المنكودة الحظ فسلمت نفسي لطريق صعبة في الجهة الغربية من القصبة وتدهورت منها إلى العربة التي كانت تنتظرنا من بعيد. وما كدنا نصل إلى مركبتنا حتى أدركنا الليل بحلوله تدريجاً وأخذت العربة تسير في طريق رديئة وحجرة. وكان قصدنا الوصول إلى طريق يافا حتى نتوصل منه إلى طول كرم. وبعد أن قضينا ساعتين أو ثلاثة في ظلام بين أشجار الزيتون تمكنا من الوصول إلى الطريق. وكنا لا نرى أمامنا سوى طريق ظلماء وعتمة تمتد إلى مجهولات. وبعد مدة ظهر لنا نور ضئيل فقالوا هذه قرية عنبته[1] (Anebta) فأصبحنا بذلك على قرب من طول كرم (Toulkerm) ولم ينقض على ذلك ساعة من الزمن حتى وصلنا إلى القصبة التي ظهرت لنا بشكل غريب جداً. ولما ألقينا بأنفسنا في غرفة النزل الذي تهب منه روائح شيء من السيرج مع قليل من روائح العفونه والوسخ وحاولنا أن نزيل ما أصابنا من العناء بعد سفر خمس

---

[1] عنبتا: قرية في منتصف الطريق بين طولكرم ونابلس وعلى مسافة ١٠كم غرب نابلس، بلغ سكانها عام ١٩٢٢ حوالي ١٦٠٦ نسمة. حسين روحي،المختصر، ص٧٩، قسطندي أبو حمود، المواقع الجغرافية،ص١٤٨، معجم البلدان،ص٥٤٩.

ساعات أو ستة- لم نجد وسيلة سوى تشييع الليل صحبة تلك الهوام[١] التي كانت تتطاير حول ضيوف الغرفة بدرجة لا تحد.

٨- طول كرم

١- موقع القصبة.منظرها. داخليتها

لا يمكن أن توجد في منطقة شومه رائيم[٢] قصبة ذات هواء وضياء قدر طول كرم بأن وسعة هذه القصبة يشبه الجنة باتساعها بنسبة سائر البقاع الآهلة من هذه البلاد التي اندست بين الأودية. وأن قصبة طول كرم الصغيرة الممتدة من الشمال الشرقي إلى الغرب الجنوبي تشبه تماماً مصيفاً لطيفاً. فإن صحراء نائية الأرجاء تمتد ساعات متعددة قد انبسطت أمام هذه القصبة فأصبحت حديقة طبيعية لها. ومن وراء ذلك يرسل البحر بزرقته وغنجه تحياته وسلامة عن بعد. فإذا وقفت في أي نقطة من طول كرم وأطلقت نظرك في أنحائها لا تجد أمامك من أي جهة كانت مانعاً يجول أمام عينيك أو يوقف خيالك على حد معين. ويستدل من دور القصبة التي بنيت بعناية واهتمام من الحجار البيضاء وسقفت بالآجر (القرميد) الأحمر أن عمر القصبة يبلغ الثلاثين من الأعوام. أما الطريق الموصل إلى محطة السكة الحديدية القائم على بعد عشر دقائق في الجهة الغربية منها فإنه يستلفت الأنظار تماماً بنظافته وحسنه. ورغماً عن هذه البهجة اللطيفة في قصبة طول كرم فإن القلب يتأثر من حرمان هذه البقاع من الأشجار ومن قلة المياه فيها بل رغماً عن منظرتها البديعة التي ترى من خارجها فإنك تسمع من داخلها أصواتاً تنادي (ما أشد فقري وما أتعس حظي) وهذه الحالة تتجلى تماماً في حوانيتها الخربة وفي نواصي سكانها

---

[١] الهوام: الحشرات.

[٢] شومة رائيم: يقصد بها منطقة السامرة (نابلس).

البعيدين عن المدينة ومع هذا فأنه يشعر بأن القصبة يداً نظيفة ومطاعة تعمل ما يلزم. ومن المناظر المستحسنة (دار الحكومة) القائمة في منتهى الطريق الوحيد في الشمال الشرقي من القصبة والدور اللطيفة المنفردة القائمة في الجانب الشرقي من الطريق الذي لا يَتجاوز طوله الخمسة دقائق وهو عرق الحياة في كافة طول كرم. وأن كافة حوانيت طول كرم وقهواتها وباحتها الصغيرة وأسواقها التي تقام صباحاً ومساء هي في النقطة المتوسطة من هذه الطريق. وفي منتهى الطريق من الجهة الأخرى للقصبة ينهض جامع الشيخ علي المغربي وهو الحد الثاني لطول كرم. وتعلو مأذنة الجامع البيضاء لفظة الجلالة بأحرف معدنية وكأنها باب صمداني يدعو إليه بصورة دائمة كافة سكان القصبة الذين لا يتجاوز عددهم الثلاثة آلاف شخص. ولقد استنبت شيء من الأشجار والنباتات الجديدة في محلات متفرقة من هذه البلدة الصغيرة التي لا تفارقها اللطافة والاعتدال. فكانت خضرة هذه الأشجار ونضارتها خير تسلية لطيفة للعتمة المطلقة في هذه الجهة. ويرى الناظر أن أهالي طول كرم ما بين صغير وكبير يذهبون ويجيئون مساء كل يوم على الطريق الممتد بأنحاء قليل إلى محطة السكة الحديدية. وهم يعتبرون صفير القطار مبشراً بقدومه أو معلناً لفراقه أفضل بشارة بالحياة. فبناء المحطة ومخزن الماء الكبير المدور الأسود في المحطة والعربات المنتظرة دائماً وراء بعضها.........بل الحالة المعدنية بأجمعها هي مغناطيس الحياة لطول كرم. ولقد افتتح فريق من الاشكنازيين[1] الذين جاؤوا من محلات مجهولة أما من روسيا أو من رومانيا عدة ملاه بارات صغيرة بشكل أكواخ وهم يجذبون إليها روح الشباب في طول كرم. فإذا كانت الليلة مقمرة

---

(1) الأشكنازيين: اصطلاح يعني اليهود من شرق أوروبا (روسيا وبولندا) وكانوا يتحدثوا اليديشية.

وأخذت ترسل النجوم على الأرض أشعة[1] الماسية من القبة الزرقــاء يصبـح السير على طريق المحطة والنظر إلى محاسن طول كرم الصدفية ويشاهد بيوتها المشرقة – من ألطف حالت الذوق الجميلة.

وأن الخط الحديدي من أهم العوامل التي حفظ[2] الحركة الدائمـة فـي طول كرم بل هو العامل الوحيد فيها. وأن الدخان الذي يخرج من مدخنة القطار يجعل أحياناً فوق هذه الباحة سحابة سوداء هو بخور السعادة لقصبة طول كـوم. بل تلك المدخنة الثمينة التي لا نظير لها. وأن طول كرم مديونة للقطـار بمـا حدث فيها من التجدد بنسبة القرى المماثلة لها وبما تجدد فيها من آثار العمـوان. ومع هذا فإن طول كرم ذات طالع حسن فقد كان لها نصيب الحصول على عـدة أيد عاملة أوجدت فيها محركاً بخارياً يخرج دائماً إلى قصبة طول كرم ماءً براقاً لطيفاً ومدت فيها أقنية معدنية امتدت في أنحاء مختلفة من القصبـة ... أليسـت هذه الآثار دليلاً صريحاً على تلك الهمم؟

ومن آثار تلك الأيدي الفعّالة في القصبة: المعمل الوطني لصنع السجاد. ومستشفى البلدية والمكتب الزراعي الذي ينشأ فيها. ومكتب النمونـه للذكـور. ومكتب الإناث.

تأخذ الدور التي تنشأ من جديد في طول كرم أشكالاً طريفة ولطيفة. وأن الحركة التي ظهرت في القصبة تعدل الأذواق فيها تدريجاً. وبهذا الاعتبار فـإن طول كرم سترتقي في مدة قريبة درجات عديدة فوق جاراتها من القرى. بـلى أن طول كرم تشبه ابنة ماهرة ذات حركة دائمة قد جلست في حضن والدتها نـابلس ويقرأ الناظر في عينيها منذ الآن عدم الطاعة والانقياد بعد سنين قليلة لوالدتـها الطاعنة في السن وكأنها تقول لها منذ الآن إنني في حاجـة لخمـس سـنين أو

---

[1] أشعتها.

[2] حفظت.

عشرة حتى أصل لدرجة أنسى فيها نابلس الاختيارة التي مضى عليـــها ألـــوف السنين.

٢- الأحوال العمومية

١- موقع قضاء بني صعب وحدوده

يقوم قضاء بني صعب في الجهة الجنوبية الغربية من مركـــز اللـــواء ويحده شمالاً قضاء حيفا وجنوباً القدس وشرقاً قضاء جنين وناحيـــة جمـــاعين وغرباً البحر الابيض.

ويقدرون نفوس القضاء ما بين ذكور وإناث بـــ(٣٩٠٢٨) منهم أربعون شخصاً ما بين سامري ومسيحي والباقي مسلمون. والثلث من أراضي القضـــاء جبلية مشغولة بأشجار الزيتون والثلثان الباقيان سهول منبسطة صالحة لزراعـــة الحبوب. ومركز القضاء قصبة طول كرم المرتفعة عن سطح البحر مائة مـــتر. البعيدة عن نابلس مركز اللواء من الجهة الغربية ٢٧ كيلو متراً. وتقـــوم هـــذه القصبة على طريق نابلس ويافا المعبدة وتبعد عن يافا ٢٦ كيلو متراً.

٢- النفوس:

تعتبر النفوس العمومية في قضاء بني صعب على الوجه الآتي:

الناحية	اناث	ذكور
ناحية وادي الشعير[1]	٥٢١٤	٥٤٨٨
ناحية بني صعب[2]	٦٦٨٣	٦٥٠٣
ناحية الشعراوية[3]	٦١١٠	٥٩٠١
المجموع	١٨٠٠٧	١٧٨٩٢

---

[1] ناحية وادي الشعير: احدى النواحي الادارية التي كانت تتبع قضاء طولكرم في العصر العثماني.

[2] ناحية بني صعب: احدى نواحي قضاء طول كرم والتي كان يتبع لها ٣٤ قريـــة. معجـــم بلـــدان فلســـطين، ص٧٠-٧١.

[3] ناحية الشعراوية: احدى نواحي التي تتبع كانت قضاء جنين وكانت تضم ١٥ قرية. معجم بلـــدان فلســـطين، ص٧٩-٨٠.

وإذا نظرنا للنسبة بين الوفيات والمواليد نجد أن نفوس القضاء تتزايد شيئاً قليلاً فكانت المواليد ٣٠٠ عام ١٣٣٠هـ/ (١٩١٢م) مقابل ١٦٠ وفيات وكانت المواليد ١٢٠٧ عام ١٣٣١هـ / (١٩١٣م) مقابل ١٩٩ وفاة. وعموم سكان القضاء مسلمون ما عدا عدداً قليلاً لا يتجاوز الخمسة والعشرين.

٣- أمور البلدية:

توجد تشكيلات للبلدية في هذا القضاء الذي تشكل منذ عشرين سنة تقريباً وتتراوح وارداتها السنوية منذ خمس سنين ما بين ١٠٠ و ١٢٠ ألف غرش. وأهم الموارد المذكورة في ميزانية البلدية ما يأتي:

غروش	في عام ١٣٣١ / (١٩١٣م)
٢٥٠٠٠	رسوم السوق في الأساكل[١]
٢٠٠٠٠	واردات بيع الماء وقيمة الاشتراكات
١٠٠٠٠	الأسواق العمومية ورسوم الأرضية
١٤٠٠٠	رسوم الحيوانات والباج
٦٩٠٠٠	المجموع

وقد جاء في قسم المصرف[٢] من ميزانية عام ١٣٣١هـ(١٩١٣م) أنه خصص ربع واردات البلدية لرواتب مأموريها وخصص الربع الآخر للتنظيف والتنوير وافتتاح الطرق وتعميرها واشتراء العقاقير الطبية ورش الطرق بالماء.

---

(١) الموانئ.

(٢) يقصد النفقات.

أما الربعان الباقيان فقد خصصا لمصارف جزئية ولإمحاء[1] القرض الذي عقـد في حينه وللمظاهرات الرسمية ولمعاونة الفقراء.

وقد توفقت البلدية في طول كرم للقيام قبل ست سنين بأعمال وخدمـات مهمة جدير بالذكر والشكر:

فقد كان أهالي القصبة يلاقون صعوبات ومشاكل عظيمة بتدارك المـاء واستحضاره إذ لم يكن في القصبة سوى مياه الآبار وكان استخراج المياه مـن الآبار مشغلة دائمة لمن يحتاج إليه فكنت ترى الأهلين مزدحمين حـول النبـع للاستقاء منه بداعي أن ماءه جيد وبسبب الازدحام والجلبة تتكون ثمت أوسـاخ وأقذار. وكان ثمن الماء يزداد بنسبة الرغبة فيه. "فكانت الجرة تباع ببشـلك[2] أحياناً". وقبل ست سنين نجحت البلدية بفكرة استخراج ماء النبع وتوزيعه علـى البلدة صافياً نظيفاً خالياً من الشوائب والأوساخ فاستحضرت محركاً بخارياً بقوة عشرة أحصنة وأخرجت ماء النبع إلى حوض كبير مصنوع من الحديد. ويبلـغ اتساع الحوض ٤٠ متراً مكعباً ويستوعب ٢٦٠٠ تنكه وتتوزع المياه المتجمعـة في الحوض إلى الدور بقساطل[3] حديدية. ويؤخذ من الدار التي تصرف يوميـاً

---

[1] امحاء القرض: سداد القرض.

[2] البشلك، عملة فضية ضربت أيام السلطان سـليمان الثـاني (١٠٩٦هـ-١١٠٢هـ/ ١٦٨٧م-١٦٩١) ومعنى البشلك خمس وتساوي قيمته خمس قروش ولكن قيمته انخفضت عن ذلك لتساوي أربعة قروش ثم ثلاثة قروش. زهير غنايم، لواء عكا،ص٥٩٣؛ العلاف، دمشق في مطلع العشرين، ص٢٦٨؛ الجالودي، قضاء عجلـون،ص٤١٨-٤١٩، دروزه، الحركة العربية، ص٢١٠-٢١١.

[3] أنابيب.

أربع تنكات نصف مجيدي[1] ومن الدار التي تصرف ثماني تنكات ثلاثة أربـاع المجيدي. ولقد صرفت البلدية على هذا الأمر (٨٠٠) ليرة[2] ولكنـها جمعـت أمثالها حتى الآن. فبهمة قائمقام همام ورئيس بلدية غيور أنقذت صحة القصبـة وأزيل احتياجها للماء بصرف جزئي لا أهمية له.

٤- المعارف:

أحرز قضاء بني صعب في مسئلة المعارف مركزاً ممتازاً بين سـائر القصبة. فأهالي القضاء ميالون جداً للمعارف ويبلغ عدد الطلبة المداومين علـى مكتب النمونه للذكور في طول كرم ٢٥٠ طالباً. وأكثر هؤلاء الطلاب من أبنـاء القرى المجاورة حتى أن خمسين أو ستين طفلاً منهم يبيتون في الحوانيت القائمة تحت بناء المكتب ويحضرون إلى المكتب نهاراً.

وأجرة كل حانوت من ١٠٠ إلى ١٢٠ غرشاً ويبيت في الحانوت الواحد خمسـة أو سبعة. والسبب الذي يدعو أبناء القرى لتحمل هذه المشاق ورغبتهم باكمـال التحصيل الرشدي. فظهر من هذا أن الحالة تستلفت النظر وتسـتحق التحسـين

---

[1] المجيدي: عملة من الذهب عرفت بالمجيدي نسبة إلى السلطان عبد المجيد الذي أمر بسكها عام ١٨٤٤، وكانت قيمة المجيدي ٢٠ قرشاً والنقود المجيدية نوعان رسمي معروف لدى الحكومة باسم صاغ بمعنى صحيح أو سليم وتجاري يسمى الشورك (الشرك) أي معطوب وغير سليم وكان يستخدمه التجار وتختلف قيمته من مدينة إلى أخرى. هند أبـو الشـعر، اربد وجوارها،ص٤٤٢، زهير غنايم، لواء عكا، ص٥١٠-٥٢١؛ دروزة، نشأة الحركـة العربية، ص٢١٠، الجالودي، قضاء عجلون، ص٤١٨.

[2] الليرة العثمانية، وحدة النقد الرئيسية في الدولة العثمانية واستخدمت في عـهد السـلطان محمود الثاني منذ عام١٢٦٠هـ/١٨٤٢م وتساوي ١٠٠قرش أو خمس مجيديات، وكـانت قيمة الليرة العثمانية تختلف من مدينة إلى أخرى حتى فـي الولايـة الواحـدة. انسـتاس الكرملي، النقود العربية،ص٩٤، ١٧٧، ١٧٨،١٨٤؛ زهير غنايم لواء عكـا، ص٥١٠-٥٢١؛ العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، ص٢٦٨.

والتقدير. ولما كان رئيس البلدية الحالي وهو العامل المؤثرة في حياة القضـــاء العمومية يتكلم عن لزوم انتشار المعارف وقد سمع انتقادي على مبيت الطلبة في الحوانيت القذرة التي ليس فيها شيء من شروط الصحة أجابني بقولـــه: "إننـــا عارفون بمضرة ذلك. ولقد كنا أنشأنا من أموال المعارف المحلية محلاً يستوعب ٣٠ سريراً وكنا عازمين على إسكان الطلبة القرويين في هذا المحل مقابل أجرة جزئية ولكن لما ضمت الواردات المحلية إلى المحاسبة الخصوصية ولم تبق لنـا صلاحية للعمل وقف هذا العمل المجيد دون أن يتم كما وقف غيره من المساعي والأعمال. وهذا هو أمامكم البناء الذي كان يشاد ليكون منزلاً لهم وهؤلاء الطلبة لا يزالون يبيتون في الحوانيت المضرة بالصحة فإذا أسعفتمونا على إتمام هـــذا التشبث المفيد تصنعون جيداً".

المكتب الزراعي:

وهذا البناء الذي أمامكم هو مكتب الزراعة في القضاء فقد ظهر لعـــالم الوجود بعد أن صرفنا عليه ألف ليرة تقريباً. وابتعنا له في جانبه أرضـــاً تبلـــغ مساحتها خمسمائة دونم لتكون نموذجاً زراعياً. ولقد كان بالإمكـــان إدارة هـــذا المكتب على قدر الاستطاعة بواردات المعارف المحلية التي كانت تبلـــغ ١٦٠ ألف غرش. ومنذ وضعت المحاسبة الخصوصية يدها على هذه الـــواردات لـــم يمكن إخراج هذا العمل إلى حيز الفعل مطلقاً ومن الضروري إيجاد طريقة لحل هذه المعضلة.

مكتب السجاد:

افتتح هذا المكتب قبل سنتين فيمكن لكل ابنة تبلغ السابعة من العمـــر أن تدخل هذا المكتب. ومعلمته امرأة مسلمة من ازمير[1] ومعاشـــها ٥٠٠ غــرش ويقوم زوجها مجاناً بوظيفة الرسم والصباغ في المكتب. وفي المكتب معاونـــة براتب ٢٠٠ غرش وخادمة براتب ١٠٠ غرش. وقد صنع المكتب حتـــى الآن ٣٠ سجادة وهذه السجادة الكبيرة المبسوطة أمامكم قد ابتيعت منه بثلاث لـيرات. وقد كان ربح المكتب منها ليرة واحدة قيدت في واردات المكتــب. وتســتحضر المواد الابتدائية للعمل من الأرباح التي تحصل.

وينحصر الميل للمعارف بمركز القضاء. ومع هذا فإن القرويين يدخلون بشوق في المكاتب الابتدائية المفتتحة في أنحاء القضاء ويبلــغ عددهــا خمســة وعشرين وهي لا تزال على غاية من البساطة والابتداء. حتى أن مكتب قريـــة عنبتا الذي لا يتجاوز الاستفادة منه درجة البساطة الزائدة ترى بين جدرانه أكثر من تسعين صبياً. وقد خرج من قرية كفر اللبن التي لا يتجاوز عـــدد نفوســها الستمائة وأربعين ٥٠ رجلاً أكملوا تحصيلهم الديني والشرعي في مصر والشــام ونابلس ونالوا الإجازات العالية. ويقوم مكتبها الابتدائي في غرفة الجامع وهـــي غرفة ضيقة وغير موافقة للصحة. ويبلغ عدد طلابه من ٣٠ إلى ٣٥ . أما قرية دنابه[2] التي يبلغ عدد نفوسها الستمائة فإن الطلبة المداومين على مكتبها يبلغــون الأربعين. وفي مكتب قرية بيت لد[3] الابتدائي ١٥٠ طالباً. والحاصل أن الرغبة

---

[1] أزمير: مدينة تركية.

[2] ذنابه: قرية تقع شرق مدينة طولكرم وشمال غرب مدينة نابلس. معجم بلـــدان فلســطين، ص٣٩٩-٤٠٠، قسطندي أبوحمود، المواقع الجغرافية، ص٩٣.

[3] بيت لد (بيت ليد): قرية تقع شمال غرب نابلس وعلى بعد ١٨كم إلى الجنوب الشرقي مــن مدينة طولكرم. معجم بلدان فلسطين، ص٢٠٣؛ قسطندي أبو حمود، المواقع الجغرافيـــة، ص٣٦.

والميل للمعارف ظاهران على قدر الاستطاعة في كل قرية من القضاء فيجب تنمية هذا الميل وإسعاف هذه الرغبة الظاهرين من نفسهما. بل من الضروري اتباع سياسة علمية سالمة في المكاتب الابتدائية القائمة في هذا المحيط الذي يظهر استعداداً كبيراً للتعلم والتحصيل. ويحتاج أهالي مركز القضاء الغيورين والميالين للمعارف إلى مكتب نمونه ليلي يسلم لأيد قديرة ذات نشاط وعمل جدي.

٥- الأحوال الزراعية والمحاصيل:

لا يوجد الماء بكثرة ويا للأسف في أراضي هذا القضاء القوية الإنبات. وخصوصاً في الجهة الشمالية فإن الماء مفقود منها تقريباً. فإذا حصل هجوم لا سمح الله في هذه الحرب العامة من جهة الساحل واضطرت الهيئة الملكية والعسكرية والأهالي للانسحاب إلى تلك الجهات تظهر حينئذ بشدة المحاذير التي تحصل من فقدان الماء. ولإزالة المحاذير المذكورة ارتأوا أن يستحضروا إلى هنا بقساطل حديدية ما يحتاجون إليه من الماء من قرية سباستيه البعيدة عن قصبة طول كرم ١٧ كيلومتراً والغزيرة المياه. وقد أعرضوا الأمر في العام الماضي لحضرة القائد العام فاستصوب ذلك جداً حتى أنه استصنع كشف الطريق لمهندس ألماني.

وفضلاً عن عدم وجود القساطل الحديدية الكافية فإن الأهلين الذين أصبحوا فقر ء عجزوا عن جمع إعانة من بينهم بقيمة ألفي ليرة فبقي هنا التشبث النافع في حيز القوة.

وهذا هو الإحصاء الزراعي لعام ١٣٣١

جنس المزروعات	الأراضي التي زرعت بحساب الدونم	البذار الذي زرع بحساب الكيله	الموسم الذي خرج بحساب الكيله
القمح	٢٥٠٠٠	١٥٠٠٠	١٢٠٠٠٠
باقية	؟	؟	٠٥٠٠٠
شعير	١٢٠٠٠	٦٠٠٠	٦٠٠٠٠
شعير أسود	١٠٠٠	٦٠٠٠	٤٨٠٠٠
أرز	١٥٠٠٠٠	؟	؟
ذرة بيضاء	٢٤٠٠٠	٤٠٠	٤٠٠٠٠
فول	١٦٠٠	١٢٠٠	١٢٠٠٠
عدس	؟	؟	؟
زيتون	٤٠٠٠		٦٠٠٠٠٠[1]
برتقال وليمون حامض ومندالينه	٦٠٠		٦٢٥٠٠٠ واحدة
سمم وقطن	؟	؟	؟

ويخرج في هذا القضاء بطيخ وقاوون بمبالغ جسيمة تقدر من ٦٠ إلى ٨٠ ألـف ليرة.

---

[1] ويستخرجون من هذا المقدار ٨٢٥٠٠ أوقية من الزيت.

٣-الأحوال الاجتماعية

١- طبقات الأهالي. طرز المعيشة والحياة العمومية

تظهر قصبة طول كرم بشكلها الخارجي غضة الشباب ولكن لا يُنكر أن تحت ستار الشباب والقوة روحاً شائخة وربما كانت مختفية الآن حتى إذا قطعت أدوار الاستحالة وانتقلت إلى دور التكامل اندفعت إلى عالم الظهور بعزم وقوة. على أن الهيئة الاجتماعية في نابلس قد أحدثت تأثيراً شديداً في كافة القطعة السامرية حتى النقاط المجهولة منها. ولهذا لا يمكن أن نجد شيئاً خلاف هذا في مركز قضاء بني صعب. وبهذا الاعتبار فإن أهالي طول كرم هم جزء من كل في المحيط.

نرى في أكثر سكان القصبة عدا غير المسلمين الذين هم عبارة عن أفراد قلائل – تعصباً عميقاً......ظلمة فكرية متكاثفة......حباً للذات......حرصاً وطمعاً يؤديان إلى شيء من الرياء والكذب وربما يوصلان إلى شيء من الفساد والتزوير......لماذا لا يتألم الإنسان على ذلك الذكاء والاستعداد اللذين يذهبان هباء؟ إذا نظر الإنسان في حالة الستين أو السبعين شاباً الذين جاءوا من قرى بني صعب إلى طول كرم وافتكر بحياتهم التي يمضونها في تلك الحوانيت الرطبة العفنة التي لا ترى ضوء الشمس – لا تطاوعه نفسه إلا أن ينحني حرمة وتقديساً أمام هذه الروح الممتازة في هؤلاء الصبية. ولكن من الغريب أن هاته القافلة من الشبان المعصومين تتبدل حالتهم تبدلاً عجيباً بعد اختلاطهم بهذا المحيط......ولا يمكن للباحث أن يجد نظيراً للقابلية التمثيلية التي يجدها في مقاطعة (شوميرائيم). فتنقضي السنون وتتوالى الأيام ويكبر الصغار ولا تزال سيول الأطماع والحرص مستولية على هذه الأقاليم وتراهم يتراكضون أمام

منافعهم الشخصية التي تتجلى فيهم وتتقاطر منهم. ولا عجب إذا بقيت هذه الحالة مستولية على البلاد وسكانها.

يمكننا تشبيه قصبة طول كرم التي لا تزيد دورها على ثلاثمائة ونفوسها على ألفين أو ثلاثة آلاف بشكل دار تضم أسرة واحدة. ففي ذلك البنـــاء السـيد وصاحب الملك والعملة. ولكن حياتهم ومعيشتهم لا تختلف كثيراً عن بعضـــهم. فقسم منهم صاحب ثروة. والأقسام الآخرون فاقدون للثروة.......يقربـون مـن بعضهم جداً بلباسهم وطعامهم. أما من جهة الفكر والشعور والروح فواحد. وإذا أردت الاستثناء فيمكننا أن نخرج طبقة المأمورين أبناء طول كـرم مـن هـذا الاعتبار. ولا ننسى أنه توجد طبقات في هذه القصبة. وأكثرها رعاية للخـاطر هم الموظفون الوطنيون ولا يتجاوز عددهم مرتبة الآحـاد. وهـؤلاء يشـكلون الطبقة الأولى. ويخالفون بملابسهم أهالي طول كرم فيكتسون البزات الرسـمية. أكثر هؤلاء من أرباب الثروة وهم يعتبرون من الواقفين على اللسان الرسـمي ولو كان تحصيلهم التالي جزئياً جداً. ولا يمكن للموظف الذي يحضر إلى طـول كرم ولا يكون واقفاً على اللسان المحلي أن يختلط بأحد سـوى هـذه الطبقـة. فيصبح هؤلاء واسطة وملجأ وحيداً لكافة أهالي القصبة حتـى ولكافـة أهـالي القضاء في جميع أمورهم. فالنفوذ والصلاحية وكل شيء خاص بهؤلاء. وهـم والون شكاياتهم بحق المأمور الذي ينفرون منه بحق المسألة التي يريدونها مـن المقامات العالية ولا ينفكون عن ذلك حتى ينالوا رغائبهم. وهذا هو السبب الـذي يدعو المنسوبين لهذه الطبقة لقبول وظيفة صغيرة بمعاش جزئي فـي القضـاء وينسيهم هذا النفوذ ما يتحملونه من المشاق والمتاعب العظيمة في هذا السـبيل. ولا عجب إذا وجدنا بعد ذلك أن الموظف من أصحاب الأملاك تزيـد وارداتـه السنوية ضعفين أو ثلاثة على واردات مماثلة في الثروة والعقـار مـن غـير الموظفين. ويرى في كافة المثريين من أبناء القصبة ميـل للانتسـاب لـهؤلاء الموظفين وفي نتيجة الأمر فإن هؤلاء يجرون على الخطة المتبعة فـي نـابلس

فيخطون لأنفسهم دوائر نفوذ في القرى وتنحصر بهم الاستفادة والاستثمار من الذين يقعون في تلك الدوائر.

والأعضاء العاملون في دوائر النفوذ هذه هم أصحاب الثروة الذين تتألف منهم الطبقة الثانية في طول كرم. ويوجد بين هؤلاء من يملك مزارع وأملاكاً بقيمة عشرين أو ثلاثين أو أربعين ألف ليرة ومن يكون دخله السنوي ألفاً أو ألفين أو أربعة أو خمسة آلاف ليرة. ولما كان قضاء بني صعب مرتبطاً بأموره الرسمية بنابلس فإن هؤلاء لا يحبون أن تقف أشغالهم هناك فيتخذون أناساً يدافعون عنهم في اللواء ويحافظون على دوائر نفوذهم. وبهذا الاعتبار فإن طول كرم شعبة من نابلس. فيستبيح هؤلاء كل اعتساف بداعي أنه حق طبيعي ومقرر لهم. وربما تتآكل هذه الأفواه التي لا تعرف الشبع. ويوجد هنا كما هي الحالة في نابلس جناحان يمين ويسارو هما مرتبطان بأجنحة نابلس المعروفة. فما أعظم الثمرات المفيدة التي كانت تحصل لو لم يضن على البلاد بهذا الاستعداد المصروف في سبيل المنفعة الشخصية؟ ولا ريب أن فقدان العوامل التي تأتي بمثل هذا الترقي من أشد الحالات المؤلمة.

إن أكثر أفراد هذه الطبقة المثرية أميون. وقد اندسوا حسب التقاليد في دائرة محدودة ومعينة فيوجد منهم من لا يعرف غير القرية أو المزرعة أو القروي أو المزارع أو أنه لا يعرف غير طول كوم أو نابلس ومنهم من لم يرى محلاً مطلقاً.

ويظهر الانتظام والظرف خارجاً على دور طول كرم ولكنها ثقيلة وغير مرتبة من داخلها. ولا تختلف داخلية الدور في طول كرم عن داخلية الدور في نابلس بغير دخول الهواء والنور إليها. فالتقسيمات الداخلية والمفروشات وأصول البناء واحدة. وفي سكنة هذه الدور روح النابلسيين وآمالهم تماماً فالطمع والتعصب وعدم الامتزاج في الأسر وتعدد الزوجات سائد تماماً ولكن أهالي

طول كرم يختلفون عن النابلسيين بأنهم يجعلون لكل امرأة يتزوجونها داراً على حده.

ويرى في بعض المنسوبين لهذه الطبقة انتباه غريب فلا يستطيعون الصبر على التأخر بتعليم أولادهم. ويوجد عدة شبان أكملوا تحصيلهم التالي. ولكن هؤلاء اقتدوا بالشبان النابلسيين فتراهم يخافون من العودة إلى طول كرم. وربما أن الغنباز الطويل والجبة الطويلة والعمامة الأغبانية أو العقال التي يكتسيها آباؤهم لا تروق للأولاد. ولكن عليهم أن ينسوا أن عودتهم هي حياة لبلدتهم الممتازة. ويظهر على وجوه آباءهم شيء من الشكاية من هذه الحالة.

لا تنهض حياة المرأة في طول كرم بالثروة. فالنساء هنا أكثرهن من القرويات. فتطوف هذه النسوة اللواتي كان لهن نصيب من حرية الحياة القروية - مكشوفات ويعشن أحراراً. على أن الألبسة (الهدوم) التي يستترن بها هي عبارة عن غنباز حريري مشقوق من أمام وغطاء رأس حريري يسمى (شمبر) وزنار (حزام) حريري يشددن به أوساطهن فوق الغنباز. وعلى هذا الشكل يطفن ويمشين. ولا يظهرن احتياجهن للباس غير هذا. غير أن أسر المأمورين من أبناء طول كرم يحتجبن ويلبسن "الإزار". ولكن لا يظن أن للنساء أقل موقع اجتماعي في طول كرم فإذا أرادوا في بعض القرى أن يذكروا اسم المرأة يقرنون معها كلمة (أجلك الله). فبعد هذا يا ترى حاجة للتكلم عن حياة المرأة في هذا المحيط. ولكننا نتذكر مصراعاً قاله المرحوم "فكرت" وهو:

لا ريب أن البشر يسقطون إذا كانت حياة المرأة ساقطة

ولكن درجة السفالة الحياتية في هذا المحيط هي أوسع دائرة. وبعد أن يكون معنى الحياة مجهولاً غير معروف فما أهمية الأراضي التي لا تنتهي والمزروعات التي لا تحد. بل ما هي أهمية صفائح الفضة والذهب؟

إن الفن والصنعة لم يطأ هذه الديار، أواه على هذه الطبقة الجليلة التي يكفيها شيء من النفوذ الموهوم والسلطة الكاذبة.

وتأتي بعد هذه الطبقة في طول كرم الطبقة الثالثة من الأهالي وهي مؤلفة من الزراع وأصحاب الثروات الصغيرة الذين يشتغلون بأعمالهم. وثروة أفراد هذه الطبقة تتراوح من ألف إلى خمسة الآف ليرة ودخلهم السنوي يتراوح من مائة ليره إلى عدة مئات ويعيش هؤلاء ببساطة تامة والغالب أن يكون هؤلاء بمثابة الآت متحركة لنفوذ الطبقة العالية. غير أن وقوف هؤلاء على اللسان العربي وإحرازهم نصيباً من العلم يفوق كثيرين من أرباب الثروة العظيمة.

الطبقة الرابعة– وهم القرويون (الفلاحون) الذين تتألف منهم الأكثرية. فليس لهؤلاء أموال ولا أملاك. يشتغلون بالأجرة وينقادون تمام الانقياد لأفراد الطبقات الأخرى. يشتغلون لحساب هؤلاء حتى أن الدور والأكواخ التي يقطنونها ليست ملكاً لهم. ويكتفون في آخر السنة بما أكلوا ولا يمكن أن يحرزوا ثروة مطلقاً. ورغماً عن أن الأيدي العاملة تماماً في القضاء هي أيدي هؤلاء فإنهم أقل الأهلين نصيباً من الحياة والمدنية فليس لهم علاقة مع الدنيا بغير معدهم. ويحافظون على عقالاتهم السوداء وجبيهم (بشت) وأحذيتهم (المداسات) سنين طويلة. فالمرأة والرجل والولد والطفل والكبير والصغير يعملون بأيديهم. ولكن لا يزالون مساكين تعساء. ولا يهمل شأن أحد سوى هؤلاء.

ولا ننسى أن لهذه الطبقات التي أتينا على وصفها بشكل عمومي أوصافاً مميزة في حياتها. فبعض أفراد من أبناء الطبقتين الأولى والثانية مشتركون ببعض الصحف المعروفة في سورية. فيجلس هؤلاء في الدواوين صباحاً ومساءاً ويجمعون حولهم أتباعهم والمنسوبين إليهم ويبثون عليهم شيئاً مما عرفوه عن أحوال العالم. وإذا كان بينهم رجل معروف بوقوفه على العلوم الشرقية يلقون السمع إلى ما يفوه به من الإيضاحات عن حكايات تاريخية أو حقيقية دينية. غير أن حياة الديوان أخذت بالانطفاء منذ مدة في طول كرم. ويمضي كافة شبان القصبة وخصوصاً أصحاب الأملاك منهم أكثر أوقاتهم في القهوات الثلاثة التي افتتحت في محلات مختلفة من القصبة. وأن محل البارك

الذي افتتح في المحطة يلعب دوراً مهماً في هذه المسألة. وبسبب اختلاط نســاء هذه الطبقة بنساء المأمورين فقد أخذ أولئك يشـعرن بحاجتـهن إلـى المـودة. يستصنعون ألبسة النساء في طول كرم وهي المسماة (سترى) أما في يافا أو في نابلس. وتتزين نساء الأسر الغنية بالحلي التي يصنعنـها فـي دمشـق أو فـي بيروت. أما الطبقات الأخرى المنحطة فإنها لم تألف بعد قراءة الصحـف ولـم تشعر بأمثال ذلك من الحاجيات المدنية. حتى أنه لا يجـول بخاطرهـا قـراءة الحكايات العامية ولا الأقاصيص المعتادة. ويصعب علينا أن نعثر فـي أذهـان أفرادها على مصراع أو بيت شعر. لا يعرف القرويون الجلوس في القهوات ولا اللعب بالملاهي. لا يجيئون من القرية إلى طول كرم إلا إذا أرادوا ابتياع شـيء فيسرعون تواً إلى الحانوت فيجلسون على الأرض ويرسـلون نظرهـم إلـى الأطراف والأكتاف نظرات لا تدل على ذكاء أو معرفة. أما القرويات فيحضرن إلى القصبة وعلى رؤوسهن عرقيه ذات ألوان وقد أسدلن على وجوهـهن مـن جهة الجبين قسماً من القماش المتدلي فوق الأنف وقد علقت في طرفيه دراهـم وبذلك يسترن وجههن شبه ستر. ويعلقن في آذانهن حلقـاً بزنجـير وحلقـات ويسمونها تراجه. وقد أصبحت الحلي العتيقة المعتبرة في القسم الجنوبـي مـن نابلس قديمة في هذه الأنحاء. تسلم النسوة التي يأتين بهذه الزينة والحلي جميع ما في أيديهن أو ما يحضرنه معهن إلى صاحب الحانوت. ولا يخرجن من طـول كرم إلا مديونات. وحينما تكون المرأة عائدة إلى قريتها وقد كشفت عن ساعديها وتركتهما تهتزان يظهر الوشم تمام الظهور على أيديهن ومعاصمهن ووجوهـهن وشفاههن العليا والسفلى وعلى جباههن. ومن الغريب اعتياد القرويات هنا علـى الوشم فينقشن على أيديهن علامة الضرب ومن حولها نقط ثم أعمدة قائمة علـى خط مستقيم ثم دوائر صغيرة. وينقش على الشفة العليا ثلاثة نجوم بشكل مثلـث وعلى الشفة السفلى قوساً وعدة خطوط. ومن العادة بين الرجـال أن يرسـموا بالوشم على أيديهم صورة سيف وأن يكتبوا أسماءهم أيضاً.

متى جاءت أفراد هذه الطبقة إلى دور ساداتهم الأفندية يسهل عليك أن تعرف مقدار نصيب هؤلاء من الحياة وذلك بانتظارهم في محل خارج دائرة الدار. وبعدم السماح لهم بالكلام أمام سيدهم إذ ليس لهم الحق بذلك. ولكن أليست السعادة نسبية؟ فإن قليلاً من البرغل وحبات من القمح أو الشعير تنهض بهؤلاء إلى أوج السعادة في اعتقادهم فماذا بعد هذا؟ وأي فائدة لهم من أن يذوقوا سائر ملاذ الحياة ويتنعموا بجميع خيراتها؟

يبقى لديهم كل شيء مجهولاً. فيكفيهم أن يعرفوا الدنيا كما هم عرفوها. فإن هذه الكتلة البشرية لا يحبون تعكير أذهانهم بشيء. ولكن ما هي درجة السذاجة التي يجب أن يتصف بها الإنسان حتى يرضى بهذه الحالة؟

١- العاديات الاجتماعية والأدبيات في طول كرم

لا ريب أن العاديات الاجتماعية والأدبية في طول كرم هي موحاة إليها من الجوار وخصوصاً من نابلس. فجميع أبناء الطبقات العالية يحبون أن يقلدوا النابلسيين بدعواتهم ومآدبهم وختان أطفالهم وحفلات الزواج ومراسم الولادة حتى أنهم يقلدون بالجنائز. ولهذا لا نرى خصوصية لأهل طول كرم لا في ألعاب الأطفال ولا في ملاهي الكبار ولا في الحياة البيتية على وجه العموم. غير أنه توجد أوصاف خصوصية للقرويين فإن مسألة الزواج في قرى بني صعب وبين طبقة من بني صعب غريبة تستجلب الأنظار. فإذا أراد أحد القرويين أن يتزوج فإن أول قدم تسعى باسم الراغب بالزواج هي قدم المختار المحلة أو القرية لا قدم وليه أو والده؟ وللمختار صلاحية واسعة بمخابرة أبوي البنت. والغالب أنهم يتبعون الشروط التي يستنسب المختار وضعها فيقرر المختار المهر (قيد. صداق. رقبه) من خمس ليرات إلى مائة ليرة حسب الحالة المالية. ويستنسب أن يشتري العريس أربعة ألبسة (هدوم) أو (هدوم اللفيه) أي الألبسة الثمينة. وهذه الألبسة الثمينة ترسل لوالد البنت أو لوليها.

وتتبع حالاً الشروط التي يرتأيها المختار ويدفعون مقداراً مناسباً من المهر إلى ولي البنت ولكن الولي لا يصرف شيئاً من ذلك على الابنة. وعقب ذلك يجري النكاح (الكتاب) ثم يبدأ الزوج باستحضار الجهاز ولا ريب أن هذه الاستحضارات تتم بذهاب المنسوبين للزوج مع أهل العروس إلى نابلس فتشتري اللوازم بالاشتراك بالرأي. وحينما يتم استحضار الثياب تجتمع النساء من قبل الزوج ويضعن الثياب بالأصونه. وهناك تجري مراسم التشييع فيصرخ قسم من النسوة بلسان واحد قائلات:

(خطاباً لرئيس العائلة)

ضفناك يا بني فلان

أطلع وحيي ضيوفك

فيجيبهن القسم الآخر بقولهن:

والله لا حيي ضيوفي

وأذبح اليوم خاروفي

وبعد أنغام وأناشيد تشبه ذلك يوصلن الثياب إلى دار العروس وبعد ثلاثة أو أربعة تفصل الثياب وتخاط. وبعد الانتهاء من ذلك تذهب عدة نسوة من دار العريس إلى دار العروسة فيخضبون أيديها بالحناء ويزينها. وبعد ختام هذه المراسم يركبن البنت على رأس من الخيل وتأخذ النسوة حينئذ بالنشيد والغناء بطرب وسرور قائلات.

جيبوا الفرس حنو الجرس قومي اركبي يازينة

بحيات أبوك وخالك قومي اركبي لحالك ....

وفي أثناء هذه الأهازيج والأناشيد تنهض العروس فتركب الفرس وحينئذ يقول حزب العريس بلسان واحد قائلين.

كثر الله خيركم ولا عجبنا في النساء غيركم

ويحيط بالعروس النساء. وينضم إليهن أثناء الطريق عدد كبـــير مـــن النسوة فتزداد القافلة ازدياداً كبيراً. حتى أن جميع اللواتـــي يعرفـــن العروســـة يتقدمن إلى الفرس التي تركبها ويربطن بها منديلاً. فتقبل العروسة دعوة اللواتي يتمكن من ربط المنديل ولا تزال العروسة تنتقل بين أمواج الدعوات والعزائـــم إلى أن تصل دار العريس فيحضرن لها حالاً الخميرة والماء فتصب الماء علـــى الخميرة حسب العادة وتلصقها فوق باب الدار. وبعد هذا يدخلون البنت إلى الدار محمولة على الأكف. وينشدن حين دخولها التأهيلات (القدوميات) الآتية:

(الفرحة فرحى. والبيوت بيوتي. الفرحة عندي يا صديقة فوتي. الفرحة عندي يا عدوة موتي. الفرحة فرحي والديار دياري. والفرح عندي يا صديقـــة تعالي. تعالو وهنوني ياكل أهلي.........).

وبعد دخول العروسة يدخل العريس إلى الـــدار. فتـــأخذ حينئـــذٍ كافـــة المدعوات من النساء عصياً بأيديهن ويهجمن على العريس وهو يقابلهن بمثـــل ذلك. ويسرع إلى جانب العروس وهو ممتن من الضربات التي نزلـــت عليـــه فيجلس العروسان على دكة ثم يضربان رأسيهما ببعضهما وكأنـــهما يضربـــان أقداحاً لشرب النخب. ويأخذ حينئذ الرقص دوره. ويضرب فريق مـــن النســـوة المدعوات زليطه على الدف. فتعلو أصوات النساء من جهة أخرى إلى الســـماء بنغم (لو.لو.لو.لو) ويأخذن برقصة الدبكة بالاشتراك. وحينما يتركن الزوجيـــن سواءُ يطلق السلاح. وتدوم الأفراح والمراقص سبعة أيـــام. ويكـــررن غنيـــات الجوار وينشدن الغزليات والموالية. ويأتي دار العريس الضيوف أفواجاً أفواجـاً. ويحضر الضيوف معهن هدايا قروية مثل الملح والسمن والأرز ويقضون عـــدة أيام بحياة اشتراكية مسعفة.

ولا يمكن أن يعثر على أثر يدل على حالة المحيط في القصبة أو علـــى روح صناعتها من بين أغاني الرقص العمومية التي تنشد أيام الأعـــراس فـــي

طول كرم أو في سائر أفراحهم وأوقات مسراتهم. ومع هـــذا فـــإن التـــهليلات الصغيرة تشير إلى الحالة الروحية الهادئة في نفس القروي منهم.

تهليله

بدو ينام ويتهنا　　　ياريتو ما يغيب عنا

بدو ينام نوم هنيه　　　نوم الحجاج في البريه

بدو ينام في سريره　　　يا الله يحفظوا يا لله يجيروا......الخ

وأن القلب ليرغب بأن يكون مدة النوم التي تستدعيها الأمهات لجفـــون أولادهن قصيرة ومحددة. ولكننا نرى ويا للأسف أن سبات هـــؤلاء الطـــاهرين سبات عميق وطويل. فحياتهم تذهب هباء وهم لا علم لهم بها. ينامون صـــابرين مستسلمين لا علم لهم بشيء. ينامون ولا يزالون نائمين.

٤- الأحوال الصحية في طول كرم:

أظن أنني ذكرت حين الكلام عن موقع القصبة أن دورها مضيئة بالنسبة لدور الجوار. وأن القصبة مطلة على صحراء فسيحة تمتد عدة ســـاعات. وأن القصبة بهذا الاعتبار ذات هواء جيد. وأن القسم الأعظم من أبنية طـــول كـــرم منشأة على طرز يوافق حفظ الصحة تماماً. ورغماً عن أن هواءها راطب نوعاً ما فإنه ليس في درجة يشتكي منه.

يعتدل الهواء في أكثر الأوقات. وأن ماء طول كـــرم المحفـــوظ مـــاء حيواني يذكرنا بالأساطير الايرانية بالنسبة لهذه القصبة. ويذكرون أن طول كرم كانت تعاني المشاق والآلام بسبب الماء فكانوا يجمعون الأمـــواه[١] فـــي حفـــر مبعثرة في أنحاء القصبة ويشربون ما يتجمع فيها من المياه بقذرها وعكرهـــا.

---

[١] المياه.

ورغماً عن زوال هذه الصعوبات فإن الأهلين لا يزالون يتململون من قلته. ومع هذا فإن القصبة بحسن مائها وانتظام نباتها وجودة هوائها لم تمكن الأمراض السارية مثل الهواء الأصفر[١] والتيفوس من إجراء حكمها بشدة في قصبة طول كرم بنسبة القرى المجاورة لها. وإن يكن حدثت فيها عدة إصابات بالتيفوس ولكن وقوع مثل هذا القدر من إصابات التيفوس في قصبة تمر فيها يوماً القطارات الحديدية لا يحسب شيئاً بسبب ما يحدث من اختلاطات الألوف من البشر. ومع هذا فإن المرض اطفئت ثورته حالاً. أما الهواء الأصفر فلم يصادف وقوعه فيها. مع أنه كان يخشى من وقوع إصابات بسبب كثرة ثمر الصبار والبطيخ. وبناء على هذا فإن قصبة طول كرم سعيدة بنجاتها من هاتين العلتين الفتاكتين.

غير أنه توجد أسباب موضعية تهدد الصحة في قصبة طول كرم بصورة دائمة فيجب أن نشير إليها: فيوجد على بعد ساعتين من طول كرم مستنقعان باتساع كيلو مترين أحدهما يسمى قطورية والثاني بصه ومستنقع آخر بسعة كيلو متر يسمى بركة عطا وهذه المستنقعات الثلاثة تسبب حدوث الحمى المرزغية بصورة دائمة في قصبة طول كرم وفتي القرى المجاورة لها. وتكثر الإصابات بالحمى المرزغية في القرى المجاورة للمستنقعات مثل جليل[٢] وحرم[٣] وقلنسوه[٤] وجت[٥]

---

[١] الهواء الأصفراء (الكوليرا).

[٢] جليل، من قرى قضاء يافا بلغ سكانها ١٥٤ نسمة عام ١٩٢٢. روحي حسين، المختصر، ص٩٨.

[٣] الحرم (سيدنا علي) قرية تقع شمال يافا وغرب قلقيلية على البحر المتوسط، قسطندي أبو حمود، المواقع الجغرافية، ص٦٨.

[٤] قلنسوه: قرية تقع جنوب غرب مدينة طولكرم، بلغ سكانها عام ١٩٢٢ حوالي ٨٧١ نسمة،قسطندي أبو خمار، المواقع الجغرافية، ص١٧٠.

[٥] جت: قرية شمال طولكرم بين قريتي زيتا وباقا الغربية وبلغ سكانها عام ١٩٢٢ حوالي ٦٨٠ نسمة، قسطندي أبو خمار، المواقع الجغرافية، ص٦٠.

وقاقون[١] وزيته[٢] وعتيل[٣] وباقا[٤] حتى يبلغ عدد الإصابات فيها الألوف في العام ويقدرون عدد الوفيات فيها بعشرة في المئة. ويؤخذ من إفادة طبيب القضاء أن كثرة المواد العضوية في طول كرم وجوارها تساعد الحمى المرزغية على الزيادة والانتشار.

ومع هذا فإن في القصبة مرضاً أشد إيلاماً من هذا المرض وهو ناشئ عن تسيب الأهلين وإهمالهم مباشرة. ونعيد هنا ما قلناه قبلاً من أن الهيئة الخارجية للبلدة جميلة جداً. وبهذه الدرجة فإنها قذرة وثقيلة من داخلها. ولا نعجب إذا سمعنا أنه تمضي الأيام ولا يغسل أهل طول كرم وخصوصاً أبناء القرى عيونهم ووجوههم وأيديهم وأنه لا يوجد في القصبة حمام. حتى أن بعض أرباب الذوق منهم يختارون السفر خمس ساعات إلى نابلس ليغتسلوا بحماماتها. وتوجب قلة المياه من جهة أخرى زيادة الأوساخ وإذا انضمت إلى جميع هذه الأسباب حرارة الأقاليم وما يجئ به أهوية الصحراء المكشوفة من حبات الرمل والتراب تتضح لنا حالاً حقيقة المرض الذي نتكلم عنه:

---

[١] قاقون: قرية تقع في الشمال الغربي من طولكرم على مسافة ٧كم منها بلغ عدد سكانها عام ١٩٢٢م حوالي ١٦٢٩ نسمة، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص٣٣٩-٣٤٠.

[٢] زيته (زيتا): قرية تقع إلى الشمال الشرقي من طولكرم على بعد ١٤كم منها وبلغ عدد سكانها عام ١٩٢٢م حوالي ١٠٨٧ نسمة، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص٣٣٠-٣٣٥.

[٣] عتيل: قرية تقع شمال غرب مدينة نابلس وشمال شرق مدينة طولكرم. قسطندي أبو حمود، المواقع الجغرافية، ص١٣٨؛ محمد شراب، معجم بلدان فلسطين، ص٥١٩.

[٤] باقه: باقة الغربية تقع إلى الشمال الشرقي من طولكرم على بعد ١٨كم منها علماً بأن هناك قرية أخرى باسم باقة الشرقية إلى الجنوب الشرقي من طولكرم، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص٣٥٠.

نعم إن الرمد الصديدي يضر أضراراً عظيمة جداً في هذه القصبــة. ولا ريبة أن خمسين في المئة من كافة أهالي القضاء أصيبوا بهذه العلة. ويوجد اليوم عشرة في المئة من هؤلاء عمياناً. ونشعر بوجود العمى في هذه البلــــدة لأقــل ملاحظة. فقف في إحدى الطرق الموصلة إلـــى القــرى وعـــاين الحـــاضرين والذاهبين تقف حالاً على حقيقة ما قلته.

وعلاوة على هذا وذاك فإنه توجد بعض الأمراض المستولية على نابلس وملحقاتها وعلى غيرها من المحلات. ويطول بنا البحث إذا تكلمنا عن الزيـــادة في وفيات الأطفال بنسبة زيادة الزواج والمواليد وعن ضعف بنية الأطفال الذين يولدون وعن العنانه التي تحصل مع الرجال في مقتبل عمرهم وعن فقر الــــدم الموجود في النساء والرجال. ولكنا نشير هنا إلى أن الأمراض التـــي نســميها كثيرة مثل سل الرئة وأمراض القلب والإفرنجي قليلة في هذا المحل.

ولقد تبين من هذه الملاحظات أن الحالة الصحية في طول كـــرم غــير موجبة للممنونية ولكنها لا تستوجب الخوف والاضطراب. ويمكنني أن أقول أن التوسل بشيء قليل من التدابير المعلومة التي وجدت ذكرها من الزوائد هو كاف لإزالة العوارض الصحية الموجودة هنا. وربما أن كثيرين منا قد افتكروا بمثــل هذه الأمور وعرفوا ضرورتها ولكنهم لم يفوزوا منها بنتيجة مرضية فما أغرب هذه الحالات؟ تمضي السنون والحال على ما هـــي عليـــه. فــالمرض مــرض وعوامل المرض باقية تتكرر بذاتها نرى هذا ونشعر به. ومع هذا فـــلا نعمــل شيئاً....لا ريب أن هذه الحالة هي أكبر مرض فينا.

٩- طريق طول كرم – ملبس[1]

١- نحو قلقيليه[2]

انقضت علينا عيشة النزل في طول كرم بصورة لا تحتمل فقد كـانت أجسامنا منهوكة من قلة النوم وصرنا في أشد الحاجة للاستراحة من هذا العناء. كانت الشمس لا تزال بعيدة عن أبواب الظهور وكنا نستنشق من النافذة المفتتحة رائحة الليل في أرض فلسطين الهادئة ذات الخفايا. وكانت نغمات اسحق تـرن في تلك الفيافي فتحدث تموجات غير متناهية في بحار عنبريه قاتمه ثم تتحفنـا من أقصى أفاقها بنسمات منعشة فتذهب ما بنا. انقضى على ذلك زمن غير قليل ....وكانت أخريات النجوم لا تزال تلمع متلألاة في السماء. وحينمـا بـدأ الشيب في أفق عنبته ضرب الباب وقائل يقول (مركبتكم مهيئة) فأسرعنا بـدون توقف. ولا ننكر أننا حينما ارتمينا في العربة الشبيهة بالهيكل العظمـي كـانت رؤوسنا جميعاً في دوار.

اتبعت العربة طريق المحطة. وحينما كنا نقطع موقف الخط الحديـدي بعد عدة دقائق أخذت الشمس تفرش أشعتها الضاحكة في طريقنا. وكانت طريق

---

(١) ملبس: (بتاح تكفا)مستوطنة أسسها اليهود على أراضي قرية ملبس العربية عـام ١٨٧٨م على بعد ١١كم شمال يافا وأسست المستعمرة بمساعدة البارون روتشيلد. روحي حسـين، المختصر ص٩٨-٩٩؛ أنيس الصايغ، بلدانية فلسطين، ص٤٩.

(٢) قلقيليه: من قرى قضاء بني صعب الذي يتبع لواء نابلس، وقد أخـذت القريـة بـالتطور والانتعاش بعد أن هاجرت إليها عائلات من قوصين وباقة الشرقية المجاورتين ومن إحدى قرى غزة وذلك في حدود عام ١٢٠٢هـ/١٨٨٢م ثم أصبحت القرية مركزاً لناحية الحرم التابع لقضاء بني صعب وبعد مرور الخط الحديدي بالقرب منها إلى الغرب حيث أقيمـت فيها محطة للسكة الحديد. بلغ سكانها ٢٨٠٣ نسمة عام ١٩٢٢م، القطناني، قلقيليه ص١-٤٧؛ روحي حسين، المختصر، ص٧٩.

يافا الحمراء تمتد فتسد معها المسافات وتتوالى فيها المنحنيات الطويلة. وكانت مركبتنا تسير ولا صوت لسيرها. ولقد كنا نطل من أطراف العربة فنستقبل ونشيع بأعيننا أولئك الراكضين إلى طول كرم. فنرى القرويات يمشين تعبات منهوكات وقد ربطن ذيول ألبستهن بخصورهن وتركن أيديهن تروح وتجئ وعلى رؤوسهن أطباق اللبن أو الخضرة أو الحبوب أو مثل ذلك من الأشياء. وربما كانت المرأة تسير وراء زوجها الممتطي حماراً وعلى رأسها أيضاً شيء من الأحمال فكنا نحزن لهذه المنظرة ونقول ما أعظم قسوة الرجل وما أكثر خشونة الطبع فيه؟

تركنا على يميننا قريتي ارتاح[1] و قلنسوه وعلى يسارنا قريتي فرعون[2] و طيبه[3] وتقدمنا بسرعة زائدة نحو الجنوب ثم قطعنا عن بعد قرية طيرة[4] من الجهة اليمنى وقرية المجدل[5] من الجهة اليسرى. وكان انقضى على سفرنا ساعتان فوصلنا إلى مركز الناحية قلقيليه فنزلنا من العربة أمام دار الحكومة. بنيت دار الحكومة والمكتب الابتدائي في محل كثير الهواء خارجاً عن القصبة التي تبلغ نفوسها الأربعة آلاف.

---

(١) ارتاح: قرية تقع على بعد ٢,٥ كم إلى الجنوب من طولكرم وبلغ سكانها حوالي ٩٥٠ نسمة عام ١٩٢٢م الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص٣٥٨-٣٦٠.

(٢) فرعون: قرية تقع على بعد نحو ١,٥ كم جنوب طولكرم وبلغ سكانها عام ١٩٢٢م حوالي ٣٤١ نسمة. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص٣٦١-٣٦٢.

(٣) الطيبه: قرية تقع على بعد ٥كم غرب طولكرم وبلغ سكانها عام ١٩٢٢م حوالي ٢٣٥٠ نسمة، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص٣٦٦-٣٧٠.

(٤) الطيره: تقع إلى الغرب من قلقيليه على بعد ٨كم منها وبلغ عدد سكانها عام ١٩٢٢م حوالي ١٥٨٨ نسمة، الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص٣٨١-٣٨٣.

(٥) المجدل: قرية في قضاء طولكرم وكان يطلق عليها خربة المجدل وتقع شمال غرب طولكرم. معجم بلدان فلسطين، ص٦٤٥.

تظهر دور القصبة عن بعد كأنها كومات سوداء مربعات الزوايا مصنوعة من تراب. وقد أرونا بناية جديدة تقوم وراء القصبة عن بعد وقالوا لنا هذه المحطة. نعم أن القطار الحديدي يمر من هنا ولكن آثار الحياة والعمران قليلة جداً فيها. وأن واردت البلدية[1] التي تشكلت حديثاً تكاد أن لا تكفي راتب مأمور أو مأمورين. ويظهر بوضوح تام أن سكان قلقيلية منهمكون بمسائل الفساد والتزوير أكثر من مجاوريهم ولهذه الأسباب فإنهم لم يجدوا وقتاً للإفتكار ببلدتهم. ويقال أن ألف شخص منهم اجتمعوا على الشهادة الكاذبة في دعوى بهتانية. ولذلك فإنهم يقولون أن قلقيلية حائزة على الدرجة الأولى بالفساد والتزوير.

٢- الأحوال العمومية في قلقيلية

إن قلقيلية هي مركز ناحية الحرم ويسكنها أربعة آلاف شخص. ويوجد اليوم منهم تحت السلاح ٦٠٠ أو ٦٥٠ شخصاً. ومن بينهم مائة شخص فراريون[2]. ولقد سطت على هذه القصبة العلل والأمراض التي ظهرت منذ إعلان النفير العام فتوفى بالتيفوس ٧٠ شخصاً وبالملاريا والحمى الراجعة ٣٠٠ شخص. وقد كانت الشيوخ والنساء أقل الأجسام مقاومة لجراثيم الأمراض. ويرتبط بالناحية سبع قرى ومزرعة وينقص مجموع نفوسها عن قلقيلية شيئاً قليلاً. وفي الوقت الحاضر تزيد الوفيات عن المواليد. وفي أهالي مركز الناحية المشهورين بالفساد والتزوير ميل للمعارف كما هي الحالة في سائر قرى بني

---

[1] تأسست البلدية في قلقيلية سنة ١٣٢٩هـ/١٩١١م، القطناني، قلقيلية،ص٩.

[2] فراريون: هاربون من الخدمة العسكرية.

صعب. وقد انشئ المكتب الابتدائي[1] فيها على شكل جميل يجـــدر أن يكـــون نموذجاً لما يبنى بعده من المكاتب الابتدائية في سائر القرى. وفي المكتـب ١٥٠ أو ١٦٠ طالباً. ويقدرون أن عدد الذين يقرؤون ويكتبون في القرية يتراوح مـن ٤٠٠- ٥٠٠ شخص. وأما الفحش والسكر فقليل فيها جداً. كانت واردات البلدية التي أحدثت منذ سنتين ٢٥٠٠ غرش في العام الماضي فأصبحت اليوم ١٢ ألف غرشاً. وقد خصص ثلاثة آلاف غـرش تقريبـاً لرواتـب الرئيـس والكـاتب والجاويش. ولم أتفقد الطريقة التي صرفت فيها المبالغ الباقية. وأرى من العبـث وإضاعة الوقت البحث والتنقيب عن أعمال البلدية في قلقيلية التي هي عبارة عن أكواخ مظلمة قذرة لا تعرف معنى للصحة. ولنا وطيد الأمل بأن رئيس البلديـة المثري والذي لا يحتاج لراتب (١٥٠) غرشاً في الشهر يقـوم فـي المسـتقبل بوظيفته مجاناً ويعمل بكل نشاط وهمة فيرينا آثاراً جدية حسنة.

إن الموسم الأصلي في الناحية هو الذرة البيضـاء وتقـدر حاصلاتـها السنوية بعشرة آلاف كيلة. وعلاوة على ذلك فـإن فـي الناحيـة ١٤ بسـتاناً للبورتقال يخرج منها في السنة خمسة آلاف صندوق من الجنس المذكور وترسل جميعها إلى يافا.

احيطت قرية قلقيلية من أطرافها الأربعة بمراقد ومقامات الأنبياء الكرام والأولياء المحترمين ففي شرقيها مقام النبي الياس[2] وفي غربيها مقـام النبـي بنيامين من أولاد حضرة يعقوب ومقام سراقة أحد الصحابة الكرام. وفي قريـة

---

(١) تأسست المدرسة (المكتب) في قلقيليه في سنة ١٣٣٠هـ/١٩١١م محمد صالح الخطيـب القطناني، قلقيليه، ص٩.

(٢) مقام النبي الياس: قرية صغيرة تقع شرق قلقيليه في منتصف الطريق بين قريـة عـزون وقلقيليه حول مقام النبي الياس، معجم بلدان فلسطين، ج٣، ق٢، ص٣٩١-٣٩٢.

ارتاح شمالي قرية قلقيلية مقام اثنتي عشرة مخدرة من بنات يعقوب عليه السلام. وفي جنوبي القرية مقام طلحة(1) والزبير(2) رضي الله عنهما.

ويوجد في قرية جلجولية(3) من قضاء بني صعب جامع ودار وهما من الآثار القديمة وفي كل من قرية قاقون وبرج العطوعة وقلنسوة – قلعة. وفي قرية قلنسوة حوض جسيم جداً من آثار الدولة الأيوبية.

ولقد كان ساحل القضاء معموراً جداً في أيام الفينيكيين. حتى أنه لا تزال باقية خرابة بلدة ارسوف(4) التي اشتهرت بالوقائع المهمة في أيام الصليبيين والتي كانت تسمى ابولونيا في أيام اليونانيين. وبعد أن كسر المجاهد صلاح الدين الأيوبي شوكة الصليبيين في واقعة أجراها هنا وهزمهم شر هزيمة أمر بهدم المدينة اسقاطاً لأهميتها الحربية.

وفي منتهى السهل المنبت الذي تطل عليه قصبة طول كرم تقوم اسكلة أبو زابوره(5) البعيدة عن المركز ثلاث ساعات. وفي الاسكلة المذكورة مرفأ طبيعي مصان جداً. فإذا اهتم به قليلاً وطهر حسب الاحتياج حتى يصلح أن يكون مرفأ للتجارة البحرية يستفيد القضاء منه ولا ريب فائدة كبرى جداً.

---

(1) طلحه: طلحه بن عبيد الله أحد الصحابة والعشرة المبشرين بالجنة.

(2) الزبير: الزبير بن العوام أحد الصحابة والعشرة المبشرين بالجنة.

(3) جلجولية: تقع على بعد ٥كم جنوب قلقيلية وبلغ عدد سكانها عام ١٩٢٢م حوالي ١٢٣ نسمة.الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣،ق٢،ص٤٠١-٤٠٢.

(4) ارسوف: قرية تقع شمال يافا وأقام اليهود على أراضيها وأراضي قرية الحرم ضاحية رشف أحد ضواحي مستعمرة هرتسليا. أنيس صايغ، بلدانية فلسطين المحتلة، ص١٦٢-١٦٣؛ قسطنطين خمار، أسماء المواقع والمعالم، ص٢٢.

(5) ابو زابوره: ميناء صغير يقع شمال قرية أم خالد، وكان يصدر منه البطيخ الذي يزرع بكثرة في سهول طولكرم إلى مصر ولبنان. شراب، معجم بلدان فلسطين، ص١١٦.

٣- نحو ملبس

كانت دموعنا تتساكب ونحن مشعرون بضرورة الابتعاد قبل وقت عـن قلقيلية. ولم يمض زمن حتى تبدل المحيط تماماً فكنا نسير هنا على طريق رملية تقوم على أطرافها أشجار الصبار ولا نرى في أوجه الـذي صادفنـاهم علـى الطريق سوى العمي أو الرمد. وكانت الشمس الحادة تحرق ما تصيبـه. وكنـا نرى أحياناً على الطريق أرضٍ زرعت بطيخاً وسمسماً.

مضت علينا ساعتان على هذا الوجه فبلغنا أقصى نقطة مـن جنوبـي ولاية بيروت. وننتقل بعد قليل إلى أراضي لواء القدس. فبدأنـا نـرى تبـدلاً محسوساً في زراعة الأراضي فكنا نبحث في ذهننا عن الأسباب والعوامل إلـى أن نبهنا أحد الرفقاء بقوله ألسنا قادمين على مستعمرات اليهود؟ فايقظتنـا هـذه الكلمة من سباتنا. نعم إننا كنا ذاهبين إلى ملبس (Moulabbis) نحن على أحـر من الجمر نرى عن قرب همة اليهود ومهارتهم. وكان يتجلى لنا تماماً أن يـداً فعاله تشتغل في هذه الأنحاء. وبدون أن نسأل أخذ حوذينا الصغـير يقـدم لنـا الإيضاحات الكافية فيقول:

كانت جميع هذه الأراضي للمسلمين ولكنها لم تكن منتظمة علـى هـذا الشكل. وقد انتقلت اليوم لأيدي اليهود فانظروا إلى ما صارت إليه من الجمال.

ثم تأوه وتنفس الصعداء من أعماق قلبه وقال:

إن اليهود سيبتاعون هذه الأراضي تدريجاً ويطردون المسلمين منـها. وأنهم قد طردوهم حتى الآن ولكن الشيخ رباح لم يترك لهم أراضيه. وأشار بيده قائلاً: هذه الجنينة الكبيرة التي ترى عن بعد والأراضي الواسعة والقصر الكبـير هو له وأن ملبس وراء ذلك.

إن كلمات الحوذى الصغيرة الخارجة بطبيعتها هي أعظم شكاية واستصراخ. أما هو فإنه كان يقول لنا ذلك على سبيل الحكاية غير عالم بأن كلماته كانت جارحة لقلوبنا.

-وهل تريدون أن آخذكم إلى الشيخ رباح؟

فوافقنا جميعاً على اقتراحه بدون افتكار. فدخلنا طريقاً ذات ظل ورائحة جميلة وقد ازدانت من طرفيها بشجرة الصفصاف والحسامة. ثم نزلنا إلى ضفة جدول كبير من الماء البراق الذي يجري بين أشجار البورتقال واللوز والنخيل فتتكون من سيره شلالات لطيفة. فظهر لنا من هناك القصر.

طفنا كافة أنحاء القصر والجنينة والطاحونة وكأنها محلات مهملة. وبعد انتهائنا جاء الناطور فلم يعمل شيئاً سوى وداعنا. وإنني اعترف بأنه لا يمكن العثور في كافة القطعة السورية على مثل هذا الممر المنتظم.

- ١٠ -

ملبس

١- أثناء الدخول إلى ملبس

امتد مدخل ملبس ساعة من الزمن. وكان ينبسط أحياناً ويتثنى أخرى حتى يشبه الأعشاش المخفية. ومن المحال أن تجد حجراً ولو صغيراً في الطريق. وكانت دواليب العربة تسبح فوق أكوام التراب وتتقدم إلى الأمام بلا حس ولا صوت. وكنا نشعر بأننا في أعظم محل ممتاز من أرض فلسطين. وكانت أشجار الصنوبر الطرية الخضراء الضاحكة على طرفي الطريق. وجنائن البورتقال والليمون (البيارات) تستجلب الأنظار بانتظامها. فما أعظم الآمال وأكثر العرق الذي يتصبب من أجبن العاملين في هذه المحلات. وكنا

نرى تعادلاً وتوازناً وتناسباً تاماً بين جميع الأشجار القائمة على الطريق مثل الحسامة وشجر الكيناء والصنوبر وغيرها من الأشجار الصغيرة واللطيفة وبين أشجار الجنائن جميعها حتى أصغر شجر الماندارينة (يوسف أفندي) فكان الطريق جميعه أشبه بجنينة خضراء. وقد فصلت حدود الجنائن بشريط معدني أقيم بعناية واهتمام زائدين. حتى أن داخل الجنائن يرى تماماً من هذه المنافذ الطبيعية. ويغلب أن يكون في مدخل الجنينة طريق طويل مفروش بالحصى الصغيرة حتى ينتهي ببناية من الخشب صغيرة سوداء ولكنها لطيفة. وفي جانبها قن للدجاج ومحرك بخاري يشتغل بإخراج الماء وترى في أطراف الجنينة قساطل ثخينة من المعدن. مضت ساعتان بعد الظهر وقد سلطت الشمس أشعتها المحرقة على هذه الرمال التي كانت تحمر أحياناً وتصفر أخرى فتنتشر منها روائح الرمل والغبار فتمتزج بالروائح الصنوبرية المنتشرة من تلك الغرائس القائمة فتتكون من ذلك رؤيا شعرية خلابة للألباب.

لم نصادف أحداً فكنا بانتظار زائد كي نرى أحد الأيدي العاملة التي قامت بهذه الأعمال الممتازة في جهة أحياناً شخصاً تفيأ ظل شجرة من البورتقال وقد ستر رأسه بقبعة كبيرة ولبس قميص فاعل وبنطلون فقير ورجلاه عاريتان وهو بقيافة قروي تماماً. ثم رأينا في جهة أخرى شابة بشعرها الذهبي ووجهها القرمزي وصدارتها البيضاء. وهناك عدة أولاد صحتهم جيدة وثيابهم نقية ووجوههم بيضاء مشربة بحمرة. وهؤلاء جميعهم قرويون ... ولقد كنا في حيرة ونحن مسرحون النظر في صفحات هذه الأسر. فماذا صار بأولئك البشر التي ألفت عيوننا أن تراهم؟ أين تلك الكتل البشرية البريئة التي تودع الحياة وسط مصائب الفقر والفاقة؟ كنا ننظر إلى بعضنا. وفي غضون نظراتنا استفهامات واستطلاعات عميقة: ألم تكن هذه الأراضي لنا؟ أما كانوا يحسبون هذه المحلات من ترابنا ...؟ وكانت عربتنا لا تزال سائرة إلى الأمام. إلى أن ظهرت أمامنا أشجار الكيناء (اوقاليبتوس) فامتلأت صدورنا بهواء خالص لطيف. وبعد باحة

رملية عريضة ظهرت لنا غابة صنوبرية لطيفة. وقد قامت البيوت الحمراء على طرفي الطريق. فهذه ملبس ...

٢- موقع ملبس. منظرتها. داخليتها

وقفت المركبة بنا أمام باب لطيف كتب عليه بالعبرانية. فنزلنا منها ودخلنا حسب العادة من طريق ضيقة ذات ظل ظليل قامت على طرفيه غرائس الورود والصنوبر والياسمين وعلته الأزهار والأوراق اللطيفة حتى انتهينا إلى بناء لطيف جداً قد ازدان من أطرافه بأشجار البورتقال والليمون. فنظرنا إلى زلنا الجديد الهادئ نظر الإعجاب فقابلنا صاحب النزل وهو شيخ موسوي بابتسامة. فأزلنا قسماً كبيراً من عنائنا ومشاقنا حول الخوان القائم في البهو والمغطي بستار أبيض نظيف. وعلى كل فإن النزل بديع جداً يطل من جميع نوافذه على مناظر خضراء لطيفة......فما أجمل هذه البلدة الخضراء الظريفة. ومع هذا فقد كان بيننا وبين القاطنين في هذه المحلات كثير من المبعدات. لأن كل واحد منهم كان ينظر إلينا نظر الغريب. ونحن ننظر إليهم مثل ذلك. وأول شيء تعلمناه في ملبس كلمة السلام (شالوم). ولقد كانت طريقة سلامهم هذه مع انحناء رأس خفيف يرافقها تستوجب انبساطنا قليلاً. وكنا نشعر بشدة ميلنا إلى الطواف في القصبة والاختلاط مع الأهلين كثيراً. غير أننا لم نجسر على ذلك من حرارة الشمس الشديدة. وعند الأصيل بدأنا بتطواف القصبة بمساعدة المختار.

تقوم القصبة بشكل أفقي مستو. ويمكننا تلخيص حالة البلدة ببضع كلمات: طرق رملية. وبيوت ظريفة ملونة قائمة بين أشجار خضراء طرية.

وعلى كل حال فإن (في) هذه القرية أثر من صناعة يد ماهرة. وكــــان يظهر لنا أن الاحاطة بالقصبة في مدة جزئية أمر غير ممكن. فاتبعنـــا طريقـاً طويلاً فصادفنا طرقاً عامودية قائمة على هذه الطريق ففهمنا من هذا أن للقصبة خطة هندسية قد قسمتها إلى خطوط عمودية ومتوازنة وإلى مربعـــات. ليســت البيوت في ملبس عديمة المنافذ لا هواء يدخل إليها ولا نوراً يطهرها فلا تشـــبه ركام الأوحال الرطبة القذرة. وما أعظم مهارة هذه اليد المقتصدة التي بنت هـذه الدور الصغيرة النصف خشبية. الحمراء بأجرها والتي يوجد فيها أحياناً غرفتان أو ثلاثة أو أكثر. تلك الدور لطيفة حتى أن نوافذها تستلفت النظـــر بآجورهـا الظريف وبألوانها البديعة وبستائرها البسيطة واللطيفة. بل ما أعظـم الانتظـام والتناسب في طرز البناء؟......طاق[1] على الطراز العربي. وســقف يذكرنـا بدور (الهند الصينيه) وجبهة جمعت في غضونها أعظم تزينات الغرب. جميـع ذلك بسيط وجميع ذلك لطيف.......

صبغت كافة هذه البيوت الصغيرة بألوان لطيفة ومتناســـبة. وتنفصـل الدور عن بعضها بأشجار مقطوعة مـــن الصفصـــاف أو بشـــجر الكينـــاء (أو قاليبتوس) أو بشريط حديدي. وأحياناً لا يوجد شيء يفصل الدور والمساكن عـن بعضها حتى أنه لا يوجد أثر للأقفال في النوافذ والأبواب. أواه ما أعظم الأمنيـة المتبادلة بين الساكنين في هذا المكان!

ولكل مأوى حديقة خاصة يغرسونها أزهاراً مختلفـــة ونباتـــات لطيفـــة وأشجاراً مثمرة وبين الجنائن أقفاس صغيرة للدجاج.....ودجاج يقفز......

وقد أقيمت في أنحاء مختلفة من المدينة محلات للنزهة وفـــي وســطها مواقع للموسيقى رفعوا حولها حواجز ملونة لطيفة.

---

[1] طاق (طاقة): نافذه صغيرة احدى جدران البناء.

وفي أثناء تطوافنا هذه البلدة الخضراء رأينا بناية كبيرة وقد كتب كثير من الجمل العبرانية على لوح من التوتيا معلق على بابها وسمعنا من داخل البناية جلبة وضوضاء. وبين ذلك عبارات الترتيل فأخبرنا المختار أن الأهلين يؤدون فريضتهم الدينية بمناسبة يوم السبت. قطعنا هذه البناية الكبيرة والكنيس المنتظمة ولا تزال مناظر الخضارة متوالية. والانتظام والترتيب والتناسب في كافة الأشياء لا يفقد من العينين.

وقد أرانا المختار كثيراً من الدور المغلقة وقال لنا إن هذه حوانيت القصبة ولكنها مغلقة اليوم فما الطف هذه الحوانيت وما أسعد الساكنين هنا! وما أهنأ الأسر الجالسة أمام دورها أو السائرة على الطرق الظليلة. وخصوصاً أولئك الأطفال بنظافتهم التامة وصداراتهم المنتظمة وثيابهم البيضاء.........كانت الأشغال عموماً معطلة تماماً في القصبة. وملبس في عيد عمومي. وبمناسبة السبت فقد اكتسى الصغير والكبير ثياباً نظيفة. وبعد مدة انتهت صلاتهم العمومية فأخذ الأهلون عموماً يدوسون تلك الرمال النظيفة مارين في الطريق. وعلى كل واحد آثار اللين والاحترام فلا تسمع غير كلمة شالوم يمر أمامك ناسك بقبعته الكبيرة وردائه القديم وشعره الطويل و التوراة أو التلمود بيده. ثم شاب آخر بقبعة وعلى جانبه أولاده النظفاء وزوجته الشفوقه.........ثم جمع من الصبيات اللواتي يتجاذبن أطراف الحديث اللطيف. أو جمع من أطفال لا تتجاوز أعمارهم الثامنة أو العاشرة وهم يضحكون ويتمازحون.........

كل شيء في ملبس خلاف ما ينتظر.........وكل شيء فوق التصور. فأخذ سؤالنا الأول شكلاً مؤلماً الآن.........هل كانت هذه القصبة لنا يا ترى؟؟

لا ترمي بنظرك إلى محل إلا وتهب عليك منه ريح عبرانية قوية ....كافة الإعلانات بالعبراني.........أسماء الأزمنة قد كتب عليها لوحات لطيفة بالعبراني.........لا يدور على الألسنة بعناد تام إلا كلمات عبرانية. حتى

أن الألواح التي تدل على جهات الدور كتبت بالعبرانية.........كافة الحلى التي تتزين بها صدور النساء كلمات عبرانية........فلا شيء في جميع الأطراف والأكناف غير العبرانية ....الأوجه جميعها عبرانية.........وكانت الشمس التي تزلق عن أشجار الأوقاليبتوس فتذهب هذه الدور والحدائق و الجنائن بخيوطها الذهبية تعلن نهاية يوم عيد شابوت[1] في تلك المستعمرة العبرانية.

ما أقبل المساء حتى تجددت الحياة في هذه القصبة. وارتفعت قهقهات السرور من حناجر اليهود الذين حافظوا على هدوءهم وسكونهم منذ أربع وعشرين ساعة. ففتحت الحوانيت. وانحنى الشيوخ أمام شموعهم ومصابيحهم يؤدون صلاتهم. وأخذت الشابات يعملن وخصوصاً بمسائل البيع. وقد امتدت هذه الحركة الجديدة تحت أشجار القصبة عدة ساعات. وحينما عدنا إلى المنزل كانت أصوات اللغة العبرانية لا تزال ترن في آذاننا. وجلسنا أمام الخوان الذي تهب منه روائح السيرج فأكلنا ما حضر رغماً عن استكراه معدتنا له.ولما استلقينا على الأسرة وألقينا برؤسنا على مخدة يهودية تكاد تكون نصف فراش كنا نبحث على نوم هادئ يزيل ما بنا من التعب والعناء المتراكم علينا منذ عدة أيام.

ولما استيقظنا صباحاً كانت الشمس قد انتشرت منذ مدة فوق أشجار الكيناء في Batach-Tikva الأمل الموسوي أي ملبس. وقد اكتسى القرويون الماهرون ألبسة الفعلة واتجهوا نساء ورجالاً نحو بياراتهم ومزارعهم. ومنهم من كان يجر عربات طويلة. يتراكضون فتمتلأ بهم الطرق أحياناً وتفرغ أطواراً. وكانت أنوار المستقبل تلمع على وجوههم الضاحكة. فتقرأ في عيونهم أملهم المشترك العام........ويكرر لسان كل واحد منهم هذا الميل:

–لنحيا لبعضنا في هذه الأرض المقدسة وهكذا فلنعش.

---

[1] عيد شابوت: يوم السبت.

كانت هذه الجمل ترتلها ألسنة القاطنين في هذه القصبة المؤلفة من أربعمائة دار ومن غريب التصادف أن أحد الرفقاء كان يقلب في دفتر في جيبه فقال:

-أتعلمون أن هذا اليوم هو ١٠ تموز-؟

تتطلعنا إلى الخارج فلم نجد في سائر الأنحاء شيئاً يدل على لون أحمر. فتطأطأت حينئذ منا الرؤوس وكان سؤالنا ذاته يحرق منا الدماغ: هل كانت هذه البلاد لنا؟

وبعد قليل جاء المختار الموسوي فأخذ يتكلم أمامنا عن وطنيته وعن وطنية أهالي ملبس وعن ارتباطهم الوطني فهززنا الرأس وكنا نسمعه قولنا (أليس هذا طبيعي)؟

٣-الأحوال العمومية في ملبس

١- أهمية الموقعية

أشرنا في القسم العمومي من تقريرنا أنه أخذت جمعية (جويشن قولونيزه شين أسوسياسيون)[١] وسائر أغنياء اليهود باستعمار أرض فلسطين. وقد قرروا قسمة البلاد إلى أربع مناطق: حيفا- زمارين[٢]. يافا- الجوده[٣].

---

[١] جويشن قولونيزه شين اسوسياسيون: الجمعية الاستعمارية اليهودية.

[٢] زمارين:قرية عربية من قضاء حيفا تقع على بعد ٣٥كم جنوبي حيفا. أسس اليهود على أراض القرية مستعمرة زخرون يعقوب وهي من أقدم المستعمرات اليهودية في فلسطين. الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٥٦٣ – ٥٦٤، روحي حسين، المختصر، ص٤٨.

[٣] الجوده: يهوداء، تسمية يطلقها اليهود على جبال فلسطين الوسطى.

غاليله السفلى[1]– طبريا. غاليله العليا[2] أو جاعونه[3] – صفد. وقسموا كيفية الاستعمار وما يتعلق بذلك من الأشغال المالية والزراعية إلى ثلاث شعب فالشعبة الأولى مركزها حيفا والشعبة الثانية يافا والشعبة الثالثة قرية جاعونه في قضاء صفد. وأن ثلاثة من هذه المناطق داخلة في دائرة تدقيقاتنا وتتبعاتنا أي الموجودة في ولاية بيروت وأما منطقة يافا فغير داخلة في ذلك ولكننا نرى أن التدقيق والنظر في أحوال هذه المنطقة والتكلم عن مساعيها الزراعية والاستعمارية ولو بطريق الاختصار لا يخلو من فائدة: ولما كانت أكثر القرى عمراناً في هذه المنطقة هي قرية ريشون لوزيون[4] وقرية ملبس أو بتاش تيكوا

---

(1) غاليه السفلى: الجليل الأسفل: تقع بين جبال الجليل الأعلى شمالاً وسهل مرج بن عامر جنوباً وتتميز بانخفاض قممها وخصوبتها مقارنة مع جبال الجليل الأعلى، وتقسم إلى عدة سلاسل جبلية تفصل بينها الأودية منها جبال الشاغور جبال الناصرة وجبال طرعان، ومن أهم جبال الجليل الأسفل جبل السيخ (٥٧٣م) وجبل طرعان (٥٤٩م) وجبل الدوحي (٥١٥م). خمار، الموسوعة، ص٨٢–٩٢. Conder, Kitchener, Survery, Vol, I, Jalilee .P.262-263.

(2) غاليله العليا: الجليل الأعلى: وتمتد في المنطقة الشمالية من فلسطين على شكل هضبة ترتفع أكثر من ٨٠٠م وتأخذ شكلاً مستطيلاً من الغرب إلى الشرق وهي شديدة الانحدار من الغرب إلى الشرق ومن جبال الجليل الأعلى جبل الجرمق (١٢٠٨م) وجبل عروس (١٠٧١م)، وتفصل جبال الجليل الأعلى عن بعضها البعض مجموعة من الأودية منها وادي البصة والقرن والصواعق. النحال، جغرافية، ص٣٩؛ الموسوعة الفلسطينية، ص٣٨–٤٨.

(3) جاعونه: من قرى قضاء صفد معظم سكانها من الدروز، أقام عليها اليهود مستعمرة روش بينا عام ١٨٨٢م وبلغ عدد سكانها عام ١٩١٧ حوالي ٨٠٠ نسمة. زهير غنايم، لواء عكا، ص ١٨٥–١٨٦؛ أنيس الصايغ، بلدانية فلسطين، ص١٦٧، ١٦٨؛ جريس، تاريخ الصهيونية، ص١٤٠.

(4) ريشون لوزيون: (ريشون لتسيون) مستعمرة يهودية انشئت عام ١٨٨٢م في موقع قرية عيون قارة العربية. الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٤٩٤–٤٩٥.

"أي الأمل اليهودي" الواقعة على حدود قضاء بني صعب فقد رجحنا زيارة القصبة الأخيرة.

٢- تاريخها:

إن أكثر من نصف منطقة يافا- الجودة الاستعمارية مغروس بالأشجار المثمرة فكان في هذه المنطقة عام ١٩١٣م/ ٦٣٠ هكتاراً[١] من جنائن البورتقال و ١٦٠٠ هكتار من شجر اللوز و ٩٥٠ هكتاراً من الكرم و ٤٠٠ هكتار من الأشجار المتنوعة وقد صرفت جمعية الاستعمار اليهودية أكثر من عشرة ملايين فرنك- عدا عن أموال روتشيلد[٢]- في سبيل إنشاء هذه المستعمرات وايجادها. وقد جمعوا من منطقة يافا وجنائن زمارين وخضيرة[٣] أكثر من ٣٠٠ ألف صندوق من البورتقال عام ١٩١٢-١٩١٣. وقد بلغ عدد المستعمرين في هذه المنطقة ٢٦٥٤ شخصاً عام ١٩١٢. ولا يدخل في عدد هؤلاء اليهود الاحرار الذين لا يزارعون ولكنهم يشتغلون بتجارات مطلقة. وتتراوح المساحة السطحية لهذه المستعمرة من ٢٠٠ إلى ١٣٠ ألف دونم.

وقبل أن تأسست قصبة ملبس التي هي أهم المواقع في هذه المنطقة جاء فلسطين عشرة أشخاص من بولونيا مع باروح دينويس مختار القرية الذي أشرنا إليه قبلاً وذلك قبل ٣٥ سنة واستوطنوا قرية يهودية تبعد اليوم عن ملبس مقدار ساعة. فابتاع سالامان وقوبلمان ورجل آخر وجميعهم من يهود القدس أراضي ملبس اليوم باسم أربعين أو خمسين شخصاً من المستعمرين. وبدأوا يعملون مع إخوانهم لتجفيف المستنقعات التي كانت ثمت وجعلها صالحة للزراعة والسكن.

---

[١] الهكتار: ويساوي ١٠,٠٠٠م٢ أي عشرة دونمات.

[٢] البارون روتشيلد.

[٣] الخضيرة: مستعمرة يهودية على بعد ٤٩كم جنوبي حيفا وتأسست عام ١٨٩٠م من قبل اليهود المهاجرين من روسيا. الموسوعة الفلسطينية، ج٣، ص٣٤٦.

فابتدأوا أولاً بزراعة الكيناء في أنحاء مختلفة من تلك الأراضي ولما جف قسم من المستنقعات جاء المستعمرون اليهود قبل ٣٣ سنة وبدأوا بتأسيس قصبة ملبس. فرسم لهم رجل يهودي يسمى موسى سلوخ مصور[1] المدينة ففتح فيها سبع طرق يتراوح عرض الواحد منها من ١٠-١٢ متراً وثماني طرق عرض الواحد منها من ٦-٨ أمتار. ثم عدلوا خطة الطرق فقرروا أن لا يكون عرض الأزقة أقل من عشرة أمتار. ومنعوا إشادة دار خلاف الخطة و المصور وإذا أشيد بناء على خلاف ذلك فإن مجلس القصبة وهو المسمى قومبانيه يهدمه حالاً.

٣- صورة الإدارة:

يجتمع أصحاب الأملاك كل عام في مارت[2] وينتخبون مجلس البلدة ويضعون في ذلك مضبطة. ويتألف المجلس من سبعة أشخاص ويترأس المجلس أحدهم ويقوم بوظيفة الكتابة آخر منهم. وتوجد هذه التشكيلات الإدارية في أكثر القرى اليهودية. ووظيفة المجلس القيام بكافة احتياجات المدينة. ويتناول المختار وهو أحد أعضاء المجلس ١٥ ليرة عثمانية في الشهر وراتب الكاتب الأول ٦ ليرات والثاني ٣ ليرات وسكان ملبس ٤٠٠٠ وقد جئ بـ ١٣٢٤ منهم من أصحاب الأراضي وأرباب الاستعمار في أوربا[3] وأما الباقون فهم من أرباب الصنائع الحرة. واللغة العامة بين كافة الأهالي الأشكنازية اليهودية. وتجئ بعدها بالدرجة الثانية العربية . ويوجد في القرية من يتكلم بالألمانية والفرنساوية والإنكليزية. وجميع أصحاب الأملاك في القصبة عثمانيون ماعدا اثنين فهما نمساويان. ويوجد بينهم ١٠٠ شخص عادوا إلى روسيا بمناسبة الحرب. ومن

---

(١) مخطط.

(٢) مارت: شهر مارس/آذار.

(٣) أوروبا.

الأمور الجديرة بالذكر أنه بعد إعلان الحرب العامة أخذ هؤلاء اليهود يدخلون بالتابعية واحداً بعد آخر بعد أن كانوا جميعهم يدافعون بكل قواهم عن تابعيتهم الأجنبية. وبلغ عدد الذين رجحوا[1] التابعية العثمانية في ملبس فقط ٩٠٠ شخص وتتألف الأكثرية العظيمة بين سكان قصبة ملبس من اليهود الذين هاجروا من روسيا. ويوجد بينهم يهود جاءوا من ألمانيا والنمسا وأميركا. وبمناسبة إعلان الحلاب بارح ١٠٠ عامل منهم حافظوا على تابعيتهم الروسية- الأراضي العثمانية وهاجروا إلى أميركا.

كانت أراضي ملبس حين بنيت القصبة فيها وبيئة وبيله تنبعث منها الأمراض القتالة ولكن بفضل الملايين التي صرفت فيها انقلبت تلك المستنقعات الوبيئة القتالة إلى حدائق غناء ذات واردات و إلى مروج جميلة تنعش الأرواح وتعيد إلى الأجساد صحتها. حتى أن التيفوس والهواء الأصفر والملاريا وسائر الأمراض السارية التي انتشرت عام ١٣٣١هـ-١٣٣٢هـ / ١٩١٢م-١٩١٣م وفتكت فتكاً ذريعاً في هذه الأنحاء- لم تتعد عتبة ملبس. وأهالي القصبة يعتنون بنظافة أزقتهم. ويكفينا للدلالة على النظافة العامة في هذه القصبة مناظر البيوت الخارجية وقيامها متفرقة عن بعضها وسط الجنائن والحدائق. ويصرف الأهلون المبالغ التي يأخذونها من شركة الاستعمار ومن البارون روتشيلد وكذلك المبالغ الجزئية التي يجمعونها من بعضهم في سبيل تنظيف القصبة وتطهيرها وتنويرها. وكان يضيء الأزقة حتى إعلان الحرب ٣٠ مصباحاً من مصابيح "لوكس".

وقبل ست سنين أو سبعة حفروا بئراً كبيراً ووضعوا فوقها محركاً بخارياً يرسلون بقوته وبواسطة القساطل الحديدية مياه الشرب إلى الدور. وقد صرف على شراء المحرك وعلى إنشاء الحوض ٤٠٠ ليره. وتسير القصبة في

---

[1] فضلوا.

سبيل الترقي بسرعة زائدة فقد كان سكانها قبل ١٣ سنة لا يتجاوزون الستين فأصبحوا اليوم ٤٠٠٠ وكان ثمن الدونم من الأرض في تلك السنة لا يتجاوز بضع غروش فأصبحت قيمته اليوم ٢٥٠٠ فرنك[١].

٤- أمور المعارف

كل رجل وامرأة في ملبس يقرأ ويكتب. والتعليم الابتدائي إجباري ولا يمكن لأحد منهم أن يخلص نفسه من ذلك مطلقاً. وفي هذه القصبة مكتبان أحدهما علماني والثاني ديني. الأول مختلط والأجرة السنوية فيه من ٢٠ إلى ٨٠ فرنكاً. وعشرون في المئة من الطلبة يتعلمون مجاناً. ومدير المكتب من أسرة فاسية الأصل[٢] ولكن مسقط رأسه الشام. وبسبب قيامه بوظيفة المديرية منذ ١٢ سنة فإنه يستوفي اليوم (٢٥٠) فرنكاً راتباً شهرياً ويقطن داراً مفروشة فرشاً جميلاً بلا أجرة. وهو مأذون من دار المعلمين في اوتوى من أعمال فرنسا ويستخدم سبعة أساتذة اثنين منهم تعلما في ألمانيا. وأقل الرواتب التي يتقاضاها المعلمون تتراوح ما بين ٧٠ – ٨٠ فرنكاً. ويبلغ عدد الطلاب الذين يداومون على المكتبين الديني والعلماني (٧٠٠). أما طلاب المكتب العلماني فالثلثان من البنات والثلث من الذكور ورغماً عن وجود فرق في الغاية التعليمية التي يسعى وراءها المكتبان فإن المؤسستين العلميتين يتسابقان[٣] بتعليم اللغة العبرانية وتقويتها وانتشارها.

---

[١] الفرنك: عملة فرنسية انتشر استخدامها في بلاد الشام في القرن التاسع عشر الميلادي وعرفت محلياً باسم الليرة الفرنسية وكانت رسمياً تساوي ٨٧,٥ قرش، ولكن سعرها في المعاملات التجارية بين السكان كان يزيد عن ذلك بل ويتفاوت من مدينة وأخرى. زهير غنايم، لواء عكا، ص٥٢١-٥٢٩.

[٢] فاس: مدينة مغربية.

[٣] تتسابقان.

٤- الأحوال الاجتماعية في ملبس

١- أقسام اليهود. لسانهم. شخصيتهم

ينقسم اليهود إلى ثلاثة أقسام الأول اشكنازيم Ashkenazeim أي يهود الشمال وهؤلاء سكان ألمانيا وروسيا وبولونيا ورومانيا ولسانهم الأصلي الألمانية ومع هذا فقد خالط لسانهم شيء من لغة البلاد التي يسكنونها مع شيء قليل من العبرانية. ويدعي المتنورون من الموسويين أن عدد الاشكنازيين يبلغ ١٣ مليوناً وهم كالتالي:

في روسيا	٧,٠٩٠٠٠٠
في أميركا	٢٠٠٠,٠٠٠
في النمسا والمجر	٢,٥٠٠٠٠٠
في ألمانيا	٦٢٠٠٠٠
في تركيا	١٠٠,٠٠٠
في رومانيا	٢٨٠,٠٠٠
في بريطانيا	٢٥٠,٠٠٠
في فرنسا	١٠٠,٠٠٠
في الفلمنك[١]	٦٠,٠٠٠
في الأرجنتين	٤٠,٠٠٠
في كندا	٧٠,٠٠٠
في إيطاليا	١٠,٠٠٠
في البلغار	١٠,٠٠٠
في مصر	٥٠,٠٠
في أفريقيا الجنوبية	٤٠,٠٠٠

[١] الفلمنك: الدول الاسكندنافية، النرويج والسويد.

في سويسره	١٨٠٠٠
في أستراليا	٢٠٠٠٠
في بلجيكا	١٥٠٠٠
	١٣,٢٢٨٠٠٠

وأما القسم الثاني من اليهود فهم سه فارديم Séphardim وهم الموسويون الذين كانوا مستوطنين إسبانيا. ولغة السه فارديم الأصلية هي الإسبانيولية ولكنها اختلطت بعد هذا بغيرها من الألسنة.

والقسم الثالث من اليهود (المغاربة) وهؤلاء هم اليهود الذيـــن ســكنوا أفريقيا الشمالية وسورية ولغتهم العربية. ويعتبر بعــض المؤلفيــن أن اليــهود (اليمنيين) والأعجام (الفارسيين) وكذلك (المغاربة) هم شعبة كبيرة مــن (الســه فارديم) ويتجاوز عدد السه فارديم جميعاً المليون ونصف وهم كما يأتي:

في أميركا	٣٠٠,٠٠٠
في النمسا والمجر	١٠٠,٠٠٠
في تركيا	٣٠٠,٠٠٠
في بريطانيا	٥٠,٠٠٠
في رومانيا	٢٠,٠٠٠
في فرنسا	٢٠,٠٠٠
في الفلمنك	٦٠,٠٠٠
في فاس	١١٠,٠٠٠
في اليونان	٩٥,٠٠٠
في الأرجنتين	٥٠,٠٠٠
في كندا	١٠,٠٠٠

في الجزائر	٧٠,٠٠٠
في تونس	٦٥٠٠
في إيطاليا	٥٠,٠٠٠
في الحبشه	٥٠,٠٠٠
في البلغار	٤٠,٠٠٠
في مصر	٤٥,٠٠٠
في أفريقيا الجنوبية	١٠,٠٠٠
في إيران	٤٠,٠٠٠
في الهند	٢٠,٠٠٠
في السويسرا	٢,٠٠٠
في الصرب	٢٠,٠٠٠
في بلجيكا	١٥,٠٠٠
في الأفغان	٢٠,٠٠٠
في المحلات الأخرى	٥٠,٠٠٠
	١٦١٢٠٠٠

ويقول الذين نقبوا لغة الاشكناز أن عمر هذه اللغة ستمائة سنة. وليس لهذه اللغة نحو وصرف والسبب في ذلك أنها لغة لا يتكلم بها غير العوام. ورغماً من اجتهاد فريق من أرباب اللغة المشتغلين بتقدم اللغة العبرانية قبل بضع سنين- بارجاع اللغة الاشكنازية إلى شكل علمي فإنهم لم يوفقوا لذلك ولم يعملوا شيئاً سوى الحكم على هذه اللغة بالإهمال الأبدي. والسبب في ذلك إضاعة هذه اللغة ماهيتها على فرض ارجاعها إلى أصل مستقل. ويمكننا الإشارة إلى فريق من الذين اشتغلوا بذلك وهم في روسيا "ديك" و "مه نده ل موخه رسه فارين" و "رابينوويج" واسمه المستعار "شالوم آلوخه م" وكذلك "شالوم آش". أما لغة "سه فارد" فلا يتجاوز عمرها الأربعمائة وخمسين سنة.

وليس لها قواعد نحوية وصرفية مدونه. وللاشكناز والسه فارديم أدبيات تتناقلها الألسنة وهي مدونه بالعبرانية. ولا ريب إنها عبارة عن حكايات وأقاصيص ومنظومات عامية أو أغان وصلوات دينية. ويكثر في أغانيهم ذكر المهاجرة إلى فلسطين والشكاية مما لا قوة من الظلم والاعتساف. وللاشكنازيين صلوات مستعملة في عبادتهم مثل المنظومة الآتية:

طال ......ته ين له راتسيس آرتسوخ

سيشه بنو بروخو بيد يتسوخ

ريو دوغون ويسيره زبه آفريتسوخ

قويمه م ايربوخه فسوخ. طال........

برى اوره تسى له غووه ن اولسي فه ره س

ايرقا سسوقوته سه ره س

سيمو يبوتخو آته روس.........به طال......

وهم يتلون هذه المنظومة حينما يطلبون المطر من الحق تعالى أثناء عيد الفطر. يتضرعون إليه تعالى بأن يفيض عليهم من نعمة فيحيي لهم الأرض. وقد كتبت مقطعات كثيرة مثل هذه يتلوها الأمام في الكنيسة ثم يرتلها المقتدون بالاشترك.

أما الشخصية الموسوية. فالاشكنازيون الساكنون في فلسطين وسورية هم أكثر انتباهاً وقابلية من السه فارديين مع أن السه فارديين في أوروبا هم أكثر نباهة واستعداداً من الاشكنازيين هناك. والسبب في ذلك أن الاشكنازيين يشدد عليهم ويضايقون في أوربا[١].

ورغماً عن أن السه فارديين أكثر ذكاء فإنهم لم يعرفوا الطرق التي يحسنون بها استعمال ذكائهم. والاشكنازيون أكثر عناداً من السه فارديين ولكل

---

[١] أوروبا.

فريق منهم مبدأ وغايات خصوصية. والاشكنازيون هم أكثر اهتماماً واعتناء بالأمور ومعرفة بوظائفهم. وهم دهاة جسورون. أما السه فارديين فهم أشد احتياطاً وملايمة. يكتفون بالعمل القليل. وبهذا الاعتبار يظهر أن الاشكنازيين أكثر اجتهاداً وعملاً. ومن العبث البحث عن مسألة النظافة بين جميع هؤلاء ما عدا الطبقة العالية وإننا نغض النظر عن ذكر ما اشتهر عن اليهود من الحوص والإمساك.

٢- الحياة في ملبس:

لما كان سكان ملبس جميعهم من الاشكنازيين فهم قريبون من بعضهم من حيث الاجتهاد والعمل. ويمكننا اعتبار الأربعة آلاف شخص سكان ملبس كأنهم كتلة واحدة. ومع هذا فإنه يمكننا تفريقهم إلى قسمين باعتبار طرز معيشتهم ورفاهيتهم ومدنيتهم فإن الفرق ظاهر بين معيشة المثرين وأصحاب الأراضي وبين معيشة الفعلة.فالمثرون يقضون حياة لطيفة (Hiat life) في هذه البلدة اللطيفة. فقد زينت دورهم بأجمل زينة داخلاً وخارجاً وفرشت على الطراز الأوروبي. وإن يكن صاحب الدار يشتغل في بياراته فهو إما أن يكون آغرونوم أو أنه أحرز تحصيلاً عالياً وفهم معنى الحياة. ولا تخلو بيارة في ملبس من محركات بخارية وأحواض وقساطل ماء. ولا يزال تراب هذه القصبة بكراً ونظيفاً وقد أنبت عدة آلاف من أشجار البورتقال التي تأتي بألوف من الليرات ايراداً سنوياً. وتقوم في أطراف البيارات أشجار التفاح والإجاص واللوز والدراقن ومن وراء ذلك أشجار الكيناء التي تنقي الهواء فملبس مصيف دائم. وأن الدماغ المتفكر الذي هيأ جميع هذه الوسائط والأسباب وأوجد المحرك البخاري ونظم الترتيبات الزراعية هو ذلك المثرى. فبعد أن يكمل ذلك المثرى عمله وينزع عن جسده قميص الشغل يستلقي على كرسي طويل في داره فيقرأ ما جاء من البرقيات من جميع أنحاء العالم أو أنه يأخذ كتاباً من مكتبته التي

تضم بين دفتيها مئات من الكتب. وهو مشترك ولا ريب بعدة جرائد أوروبية وعلى الخصوص بجريدة موسوية مثل آحه روت أو هاوور وربما يكتب فصولا زراعية فيتحف بها جريدة (هاق لاري) الزراعية ولا شبهة أنه واقف على عدة ألسنة.

ويلقى أحيانا في النوادي محاضرات ضمن دائرة اختصاصه. وحينما يشتغل برياضة فكره وهو في داره تكون امرأته أو ابنته أو طفله يعمل أيضا عملا فكريا. وإذا أحب الاستراحةأحيانا يعزف هو أو ابنته على البيانو ويذهب أحيانا إلى الكنيسة لأداء فريضته الدينية فيركع أمام الأوامر العشرة وأمام ألواح كه سه تيرو [illegible] المعلقة في أعلى نقطة من صدر الكنيسة والمزينة برسوم الهدد والسباع. وحين خروجه من الكنيسة يقابله الموجودون بكل احترام واكرام. ويقيم في داره أحيانا مسامرات لطيفة فيدعو إليها سائر أبناء (حاي لايف حياة). هكذا تعيش هذه المدينة عيشة مدنية وإنسانية مثل أرقى البلاد. وهكذا يقضي جميع المثرين حياتهم ومعيشتهم. ولهؤلاء غاية كمالية وأمل واحد يقرأه الناظر إليهم في أعينهم. وهم يلهجون به بتأثر وتهيج وهو:

"أواه أيتها الأرض المقدسة........."

ولا تدور هذه الألفاظ على ألسنتهم حتى يتوجهوا إلى رب الكليم ويضرعوا إليه أو يتوجهوا إلى رسوم الأعاظم الموسويين مثل هرتسل(١) وماقس نورداو(٢) والبارون روتشيلد وكأنهم يكرون هذه الأدعية بالإشتراك مع أولئك.

إن هؤلاء هم أعظم العوامل القوية في الأرض المقدسة. أما الطبقة الأخرى من اليهود فهم فعلة وباعه. وليس لهم ثروة مطلقا وعيشتهم مضطربة.

---

(١) تيودور هرتزل:(١٨٦٠هـ-١٩٠٤م) مؤسس الحركة الصهيونية وواضع كتاب الدولة اليهودية، الموسوعة السياسية، ج٧، ص١٠٧.

(٢) ماكس نوردو: زعيم الحركة الصهيونية بعد وفاة هرتزل حتى انعقاد المؤتمر الصهيوني السابع.

والقسم الأعظم من أهالي ملبس على هذا الشكل. والباعة يبيعون ويشترون في غرف خارجية عن دورهم يخصصونها لذلك. ولهذا ترى كافة الحوانيت في ملبس لاصقة بالبيوت وهي على شكل كوخ ومأوى صغير. أما الفعلة الذين يعملون في البيارات فإنهم لا يعودون إلى دورهم الأصلية. وقد تمسك أبناء هذه الطبقة بالدين أكثر من غيرهم ولذلك تراهم يحرمون أنفسهم من كثير من لذائذ الحياة وأذواقها. ويهتمون جداً بمسألة القاشر والطارف[1] ولهذا لا تنفك رائحة السيرج واللحم من دورهم التي تراها وسخة جداً لا تفارقها صنوف صديقاتها من الذباب. والحاصل أن هؤلاء هم اليهود العوام بكل معنى الكلمة. ومع هذا فإن لهؤلاء موقفاً خاصاً سواء كان في ملبس أو في سائر المستعمرات فإنهم الطبقة العاملة وهم واسطة الراحة والرفاهية للاريستوقراطيين. ورغماً عن ذلك فإن هؤلاء أرقى من القرويين عندنا فكراً ومدنية بدرجة لا تقبل القياس. فالباعة مثلاً يبيعون كافة اللوازم المدنية في حوانيتهم. والمزارعون يعيشون بهناء وسعادة في بيوتهم وبين أفراد عائلتهم أكثر من قسم عظيم من أغواتنا المثرين.

٣- العادات الدينية والاجتماعية في ملبس:

لا فرق بين الاشكنازيين القاطنيين ملبس وبين سائر الموسويين والاسفارديين في المسائل الدينية. فيتوضأون وقت الصبح (شحريت) والعصر (منحا) والمغرب (عربيت) ويؤدون صلواتهم التي هي عبارة عن أربعة انحناآت وركوع أما صلاتهم يوم السبت (شابوت) فهي أكثر من هذا.

---

[1] القاشر والطارف: وتعني المناسب والملائم وهي مجموعة القوانين الخاصة بنظام الأكل وطريقة اعداده وطريقة الذبح عند اليهود. موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، ص٢٥٩.

ويصومون أربعاً وعشرين ساعة يوم العاشر من "تشرى" أحد الشهور الموسوية واليوم التاسع من آب. ويعطون عشرة في المئة من أموالهم على سبيل الزكاة ويختنون أولادهم في اليوم الثامن من ولادتهم. ولهؤلاء ثلاثة أعياد. الأول عيد الفطر "بيسح" وهو من خامس عشر نيسان اليهودي ويمتد ثمانية أيام. والثاني عيد التوراة "شابورات" وهو اليوم السادس من شهر سيون. والثالث عيد القصب "سوككوت" وهويبدأ من اليوم الخامس عشر في شهر تشرين ويمتد ثمانية أيام. وفي أيام هذا العيد يجلسون تحت المظال.

يراعي الاشكنازيون مسألة "القاشر" و "الطارف" ولا يعملون شيئاً مطلقاً يوم شابوت (السبت) فيسترحون[1] تمام الاستراحة وتنقطع كافة المعاملات في ذلك اليوم، والطلاق معروف في ديانتهم ولكن ضمن شروط معينة.

ظهر من هذا أن الاشكنازيين لا يختلفون عن السه فارديين في أحكام الديانة الموسوية العامة ولكنهم يخالفونهم في بعض الحالات الخصوصية فقد جاء في التوراة أنه إذا توفى الزوج وكان له أخ يجبر على التزوج بامرأة المتوفى التي لا يكون لها أولاد. غير أن المفسرين من اليهود في روسيا لم يوافقوا على هذا الحكم قبل ثلاثمائة سنة. ويتبع الاشكنازيون في مسائل قاشر وطريف[2] أقوال مفسرين آخرين غير الذين يتبعهم السه فارديون.وهم يخالفون بعضهم في مسائل الزواج.فالسه فارديون قد وافقوا على صحة الازدواج على المرأة التي لم تلد مع أن الاشكنازيين رفضوا هذا الجواز.

أما العادات الاجتماعية فإن الموسويين يحبون المحافظة في مراسم الختان والزواج على الموروثات القديمة المنتقلة إليهم منذ ألوف السنين. غير أن الاشكنازيين أضافوا على موروثاتهم القديمة عادات الأوروبيين أيضاً. ويتبع

---

(1) فيستريحون.

(2) الطارف.

الاشكنازيون عادة "مزوزا" و "تيسيتيت" فكل موسوي يكتب الكلمات العشرة في قسطل من خشب أو معدن ويلفها بورقة أو مشمع ويضعها في الجهة اليمنى من الدار ويسمون هذه العادة مه زوزا ويربط كل مديون خيطاً في قميصه الداخلي ويسمون ذلك "تيسيتيت" وهذا آخر تذكار بقي للموسويين من الماضي.

٥- الحالة الصحية في ملبس

في المستعمرات الموسوية تشكيلات صحية منتظمة. ففي كل مستعمرة طبيب سيار[١] وصيدلية تحوي جميع أنواع العلاجات. وفي الوقت ذاته فإن أبناء القصبات ومختاري المستعمرات يخبرون حالاً وفي الوقت المعين عن المواليد والوفيات وعن الأمراض ولهذا توجد إحصائيات منتظمة جداً عن العلل التي تظهر في القصبة وعن مقادير الأضرار التي تحدثها. وتحفظ هذه الإحصائيات في مراكز الشعب ولا ريب أنها حائزة على كافة شروط الوثوق والاعتماد. ولذلك فإنه لا يظهر أحياناً في كافة المستعمرات أثر الأمراض وأبسطها والسبب في ذلك الاهتمام بالأمر منذ أول ظهوره والتوسل بالتدابير الواقية. وقد فتكت الحمى بالموسويين فتكاً ذريعاً في أول تأسيس المستعمرات. غير أنه بعد تطهير المستنقعات وتجفيفها وزراعة شجر الكيناء (الاقاليبتوس) وتوزيع الكيناء بكثرة ومراعاة كافة التدابير الصحية في داخل المستعمرات وحصر المياه وحفظها .

زالت هذه العلة حتى أنه تمضي الأشهر ولا تقع إصابة بالحمى. ولما استولت التيفوس والهواء الأصفر في الأيام الأخيرة على كافة القطعة السورية وفتكت بها ذلك الفتك الذريع لم تدخل القرى اليهودية. وإذا ظهر المرض فإنه يزال حالاً بالسرعة التامة. ولهذا لا ترى في القرى اليهودية أثر للأمراض التي تهلك قرانا الأخرى كالحمى المرزغيه والرمد الصديدي والروماتيزمه والسل

---

[١] متنقل.

الارثي وفقر الدم. ولا تحصل وفيات بين الأطفال الذين يكونون ثمرات الزواج الصحي. ولما كانت الأسر تتألف ضمن شروط معقولة فإن الأطفال ينمون ويشبون ضمن بحبوحة من الحياة. ولهذا أخذ المستوطنون هنا يصرفون نظرهم منذ سنين عن المهاجرة إلى الخارج والالتحاق بغير هذه البلاد. ولا ريب أن استنارة الفكر تعاون على جريان الأمور الصحية ضمن دائرة المحور المطلوب. ومن المحال أن تجد واحداً في كافة المستعمرات اليهودية لا يقرأ ولا يكتب. وإنك لتجد في ملبس وحدها مكتبين أحدهما يسمى "طالما طوره"[1] وهو ديني خاص بالذكور والثاني يسمى "بيساسيفه ر" وهو مشترك بين الذكور والاناث وفي المكتبين ٧٠٠ طالب وطالبة. وأن رشيم النور الذي يتلقاه هؤلاء من المكاتب ينمو ويكبر في الحياة العائلية. بل يزيد بسكون وهدوء في آفاق الأرض المقدسة الشبيهة بالجنان.

٦-اللسان العبراني والأدبيات العبرانية

تكلمت حين البحث عن أقسام الموسويين عن لغتي الاشكنازين والسفاردين وعن أسس أدبياتهم. وإنني أنتقل بالقارئ هنا إلى الكلام عن العبرانية وهي اللسان الأدبي العام والقديم للأمة اليهودية. ولقد قلنا قبلاً أن اللسان العبراني هو شعبة كبيرة من شعبة الألسنة السامية مثل الأرامية. ولا ريب أن هذه اللغة التي نزل بها أقدم كتاب سماوي وهو التوراة قيمة دينية ومزية عظيمة تاريخية.

---

[1] طالما طوره: لعله يقصد مدارس تلمود توراه: وهي مدارس أقامها اليهود في أماكن تواجدهم وكانت واللغة العبرية هي لغة التدريس فقد أنشئ اليهود مثل هذه المدارس في صفد وطبريا. زهير غنايم، لواء عكا، ص٣٣٨. Hennnittaszold, Recent Jewish, P. 134.

ولا شبهة أن الدين أولاً واللغة ثانياً هما من جملة العوامل التي توجـــد الوحدة العمومية بين أفواج الموسويين الذين يهاجرون زرافات زرافـــات إلـى الأرض المقدسة منذ عشرين أو ثلاثين سنة وكل فريق منهم آت من جهة. وكـل حزب منهم يتكلم بلغة. ولما لم يكن من اختلاف ديني بين الاشكنازيين والســـه فارديين ولا توجد بينهم مشاكل دينية لا تقبل الحل فقد أصبحت الرابطة الوحيـدة العظيمة التي تربط الموسويين ببعضهم هي رابطة اللسان. ولم يغفل القـــائمون بهذه الحركة الاجتماعية عن هذا المؤثر الثمين فاهتموا قبل كل شـــيء بتعميـم انتشار اللسان العبراني وجعلوا لغة التعليم والتدريس في المكاتب هـــي اللســان العبراني. ولم ينفكوا دقيقة عن الاجتهاد والغيرة.

في سبيل إكمال نواقص الاصطلاحات الفنية حتى تمكنوا أخـــيراً مـن تدريس جميع العلوم والفنون بلغتهم العبرانية. وبفضل المطابع العبرانيـــة التـي أوجدوها امتلأت ساحة المطبوعات بالمؤلفات الوافرة التي تهديها إليه. ولقد أخـذ اللسان العبراني بأشعاره وأدبياته وعلومه وفنونه وتاريخـــه وبتوراتـــه – دوراً عظيماً في الألسنة أكثر مما كان عليه قبلاً. وذلك بعد أن كاد يتلاشى ويندثر من بين الألسنة والأفكار. وقد أصبح اليوم حياً في كافة زوايا الأرواح وخباياها.

لا ريب أن اللسان العبراني الجديد يخالف جداً من جهة اللهجة اللســـان القديم الذي مضت سنين عديدة على كتابة التوراة والتلمود به. ولكن الأحرف لم تختلف فقد ظل على أربعة وعشرين حرفاً كما كان قبلاً.

وقد وضع صرف اللسان العبراني ونحوه بصورة منتظمة المسيحي كـه ز نيوس الجرماني وذلك قبل مائتي سنة. فألف هذا الرجل قواعد (غرامر) فـــي أربعمائة صحيفة وقد تكرر طبع هذا الكتاب ثلاثين مرة حتى الآن وفي كل مـرة منها يدخلون عليه شيئاً من الاصلاح. وقد طبع غرامر كه زنيوس لآخر مرة في ألمانيا قبل أربع سنين أو خمسة. ويعتبرون شته ينـــبرغ الموســوي ولوتســاتو الجرماني من كبار المؤلفين بعد كه زنيوس.

وللسان العبراني أدبيات قديمة غنية يمكن أن تكتب عنها مجلدات عديدة. ومع هذا فإننا سنعتمد هنا على أراء المتنورين من اليهود ببيان الأدوار الأدبيـة الأصلية التي مرت على اللسان العبراني مع الحركة الأدبية التي طرأت عليـها أخيراً.

إذا نظرنا إلى تاريخ الأدبيات العبرانية بالعين التي ننظر بها في تـاريخ التصورات العبرانية يتسع نطاق البحث معنا تمام الاتساع.

إن أقدم دور للأدبيات العبرانية هو دور طاناخ وهو دور الكتاب المقدس ومدته من خمس مئة سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام إلى ما فوق ولا يوجـد لهذا الدور أثر عظيم سوى الكتاب المقدس. غير أن كتاب داود ومزاميره هـي من المحصولات الفكرية في هذا الدور. وينتهي هذا الدور في الوقت الذي هـدم فيه بيت المقدس الأول وأنشئ بيت المقدس الثاني.

وأما دور الأدبيات العبرانية الثاني فهو دور التلمود ويمتـد مـن قبـل الميلاد العيسوي بمائتي سنة إلى ما بعد الميلاد بخمسمائة سنة. ومع ذلك فإنـهم يقولون بوجود دور أدبي امتد من العام ٥٠٠ إلى ٢٠٠ قبل الميـلاد ويسـمونه دور آبوقره يتيم غير أن آثار هذا الدور قد ضاعت بين أيدي النسيان. ويقـال أن العلماء العبرانيين يشتغلون اليوم للحصول على آثار هذا الدور الأدبي.

إن الآثار التي وضعت في الدور التلمودي هي القوانيـن وأقـاصيص الأقدمين. والتلمود أثر منثور وهو يتضمن تفسيرات وإيضاحات جيدة ويعتبر من أهم الآثار في هذا الدور.

وأما الدور العبراني الثالث فهو الدور المسمى عصر غاؤنيم ورابـانيم الحاخامين. وقد امتد هذا الدور ثلاثمائة عام فاشتغل رجالـه بتفسـير الكتـاب المقدس ووضعوا كثيراً من المؤلفات الحكيمة والفلسفية.

أما الدور الرابع فهو دور السه فارديين وقد كان مبدأه من العصر الثامن الميلادي. وامتد من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ عام. وقد اشتغل رجال هذا العصر بشـرح

التوراة أيضاً وتقدموا شيئاً قليلاً في الشعر والفلسفة. ونبغ بينهم شعراء مثل ابين كه بيرن ورابيو ويهود اله وي ومايمونيت وجميع هؤلاء الشعراء في إسبانيا. وفي نهاية هذا الدور بدأ دور الاشكنازيم فجاءت الأثار الأدبية التي وضعوها وخصوصاً الأشعار الدينية التي كتبت في ألمانيا- فائقة جداً على آثار السه فاردين.

ويسمون الدور الأخير في عالم الأدبيات العبرانية دور (ماهاسفيم) وقد بدأ هذا الدور قبل ١٥٠ سنة ولا يزال حتى الآن وأن الشعر والصحافة والتتبعات اللسانية هي من آثار هذا الدور. ظهر هذا الدور في ألمانيا ولكنه استتب في روسيا.

قبل العبرانيون في أيامهم الأخيرة الأدبيات الألمانية ثم الأدبيات الروسية. ويدعون أن حركتهم الأدبية العبرانية الحاضرة هي من آثار الصناعة الشخصية بل هي محصلة الاندفاع العنصري العام. وقد ألف الشاعر العبراني الروسي الكبير بياليق وهو أحد الشعراء المتأخرين ديواناً شعرياً نشره قبل خمس وعشرين سنة جارى فيه الشاعر القديم يهود اله وي. ويقال أن مؤلفات الشعراء الذين يقيمون في روسيا مثل جرنيخوسكي ويعقوب قاهن وشنه يه ر نفيسة جداً.

وتحتاج الأدبيات العبرانية شيء قليل من الصبر والتأني حتى تصبح عصرية تماماً. ويظهر عليها شيء من الاحتياج للوقت حتى تتكامل في حالتها الروائية والتمثيلية. ورغماً عن وجود بضع مؤلفات للشاعر به رتس ولكن ذلك لا يكفي بحكم الضرورة. وقد أخذوا أخيراً يصنعون في الأدبيات العبرانية الجديدة حكايات وأقاصيص تشبه أقاصيص (Les fables de la Fontaine) .

ويضعون كثيراً من المؤلفات الجديدة للنهوض بتربية النسل الجديد وتكامله الفكري ومن هذا القبيل مؤلفات (نوواخ بنيه س) وخصوصاً كتابه المدعو حازامير أي البلبل فقد وضعه في مجلدين جمع فيهما شيئاً كثيراً من آثار شبان الشعراء المتأخرين. وهذا الرجل يهودي روسي وهو من أشهر الوطنيين

الروسيين وقد نشر في حازامير آثار ثمينة جداً للنسل اليهودي الآتي ومما هـــو جدير بالذكر الأشعار التي نظمت بفكرة انقلابية. وقد نشر فـــي آخـــر الكتـــاب منظومة لشاعر أميركي يسمى ايمبر تحت عنوان حاتيقوا أي الرجاء وهي:

حاتيقوا

قول اوط باله واو بئيما

نه فش يهودي هومى يا

اوله فا آله ميزراه قادبا

آيين له تسيون تسو فبا

اوطه لو آوداتيكو اته نو

حاتيقوا انو شانار

لا شوف له ئه ره تس آووته نو

له يير باد اويد خانا........الخ

(ترجمتها) (ايمبر)

الرجاء- متى كانت في نفوس اليهود حياة. إن اليهودي شاخص دائماً بعينــه إلى سيون وإلى الشرق و إلى القدس. إن أملنا لم يفقد بعد تماماً. إن أملنـــا هـــو أمل قديم ألا وهو الرجوع إلى الأرض المقدسة. إننا سنذهب إلى البلـــدة التـــي عاش فيها حضرة داوود.

ولا تزال الأشعار والآثار الحماسية التي تشبه أشعار ايمـــبر تظـــهر لعـــالم الوجود وتتناقلها الأيدي وتلوكها الألسن. ويمكننا أن نذكر عدة آثار ظهرت على هذه الخطة وهي:

كتاب شيرم المطبوع قبل سبع سنين وهو تأليف الشاعر بياليق. كتاب شـيرم اوبوئه موت تأليف شنه يور الذي جمع فيه أشعاره المنظومة من عـــام ١٩٠٠ إلى ١٩١٣ وقد طبعه في اوده سا. كتاب سه يفه راشيريم المطبوع عـلم ١٩٠٤ وهو تأليف يعقوب الكاهن.

وقد ظهر في المدة الأخيرة عدة شبان في يافا لا ينفكون عن التأليف فالشبان باراش وكيبنيس ينظمان المقطعات. والشاب بره ته ر يضع الروايات. والشاب ياقوت شته ينبرغ ينثر والشاب ياقوت رابينوويج ويكتب المقالات الصحافية. والشاب يهوداغراز وفسكي يضع الكتب المدرسية. وقد فتح هؤلاء الشبان بعلمهم هذا مهايع عظيمة للغة العبرانية. وأن درس الأدبيات العبرانية التي تلقى في مكاتب ره ال جينماز تؤيد هذه الخطة الأدبية وتزيد بتقويتها.

١١- من ملبس إلى جنين

إن ملبس مصيف لطيف حوت جميع بدائع الصنع. ولا ريب أن الإنسان لا يسأم الإقامة فيها لمدة طويلة ولكن البقاء هناك يقضي على المرء بالإنزواء الدائمي فقد كنا نحسب أنه مهما أطال المرء إقامته في هذه البلدة الخضراء اللطيفة ذات الروائح البديعة فهو لا يتمكن من الإختلاط والإمتزاج مع الاشكنازيين. وأن أقل طواف في القصبة يجرح الفؤاد ويسمم الأعصاب. فلا شيء محسوساً في ملبس أكثر من ابتعادها عنا بكل معنى الكلمة. فلا يمكن أن ترى طربوشاً وطاقية (قالباق) فكل شيء في يد المختار (السبره سلاوي). ولا ريب أن المختار لا يتحرك من مكانه مقابل الخمس عشرة ليرة التي يتقاضاها شهرياً. وله الصلاحية التامة بأن يطرد الفلاحين الذي[1] يقضى عليهم بالمجئ إلى ملبس بل ربما يضربهم. وهو لا يرضى بأقل وسيلة أو سبب يخل بالشكل العبراني في ملبس فهو الحاكم والآمر والمالك الوحيد لهذه القصبة تحت اسم مستعار. ويتعذر على أي شخص غريب كان أن يعيش أو يتحرك في القصبة ما لم يكن بإذن المختار وعلى علم به. وليست هذه الحالة خاصة بملبس وحدها بل هي عامة في جميع المستعمرات اليهودية. وما دامت الحالة كذلك فإن مفارقتنا

---

(١) الذين.

لملبس لا يمكن إلا باسعاف تمثال القوة هذا. ولكنه لم يسعفنا في هذه المرة بـــل هو يعتقد أنه لم يمكنه اسعافنا. فلم نجد واسطة نقل إلى محطة "رأس العيـــن"[1] التي تبعد ساعة ونصف ساعة شرقي ملبس. فاضطررنا لقطع هذه المسافة على أقدامنا. وقد مضت عدة ساعات بعد الظهر. ولم يكن مـــن مصلحتنـــا إضاعـــة القطار الذي بلغنا أنه سيسافر مساءاً. فارقنا القصبة من جانب الســـاقية القائمـــة شرقي القصبة والحزن آخذ منا مأخذه. وكانت الشمس تلفحنا. فأشار دليلنا إلـــى محل بعيد يشبه جنينه وقال لنا "هناك رأس العين ويرى في جانبها شيء يشـــبه الخرابة وقد اعتقدنا لأول الأمر بقصر المسافة ولكن تخميننا لم يكن تاماً. وبعـــد أن سرنا مسافة ساعة ونصف وصلنا إلى منبع ماء كبير ومن حولـــه غرائـــس القصب. ثم ظهرت أمامنا الخطوط الحديدية والمحطة الصغيرة. وهـــذا المحـــل يسمى محطة رأس العين. وقد ركزت خيمة عسكرية لإعاشة الضباط والأنفـــار الذين يذهبون من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب على الشمال. وعلى بعد من هذه الخيمة عدة أنفار مع عدة خيم.

سألنا عن زمن مجيء القطار فأجابنا مأمور المحطة بدون احتياط بأنـــه سيجيء بعد عدة ساعات فرضينا بهذه المهلة وقلنا أنها بضع ســـاعات تنقضـــي وأخذنا نطوف في المحطة وقد أخذت الشمس تميل إلى الغروب فتلامس أراضي ملبس الزمردية مودعة ثم تغيب. وكانت أراضي سَلْفيت في الناحيـــة الشـــرقية ترى كأنها دخان.

---

[1] راس العين: قرية تقع شمال الرملة بين الرملة ويافا وتقع على مسافة ١٤,٥ كم شرق يافا. أقام العثمانيون بالقرب منها محطة للسكك الحديدية التي أنشأوها فـــي فلســـطين، وتكـــثر بالقرب منها عيون المياه والتي تغذي نهر العوجا بالمياه. قسطندي أبو حمـــود، المواقـــع الجغرافية، ص٩٦؛ الموسوعة الفلسطينية، ج٢، ص٤٤٧-٤٤٨.

اشتدت حلكة الظلام وارسلت السماء بأشعتها الليلية. وكنا نشعر بحاجتنا للإبتعاد قبل زمن عن هذا المكان المرزغي فأعدنا السؤال عن القطـــار فكـــان الجواب هذه المرة غير معلوم وزادوا على ذلك بلا مبالاه قولهم:

-ربما يأتي نصف الليل.

لم نكن هيأنا ما نحتاج إليه حين خروجنا من ملبس. ولم نكن نتصـــور وقوعنا بمثل هذه الحالات غير العادية. فكان عشاؤنا هذه الليلة جرعة كبيرة من الكيناء ثم بكسماداً جافاً ثم ماء عكراً وكمية كبرى مـــن الأسـيدلاكتيك **(Acide Lactique)** ونصبنا أسرة السفر في ناحية من الخيمة واستلقينا عليها. ولقد كنـــا نجمع أسرتنا أحياناً منتظرين مجيء القطار ثم نعيدها ونستلقي عليها.

ولما حان نصف الليل قابل أحدنا مأمور المحطة. وسأله وهـــو يفـرك عينيه الممتلأتين بالنوم أ إلى جنين؟ فكان جواب المأمور ألغي ذلك القطار منــذ مدة.........

-وماذا العمل إذن؟

فأجابنا المأمور على حالتنا التي كان يفهم منها هذا السؤال بقوله ربمـــا غداً صباحاً...... فقضينا هذه الليلة بعذاب الانتظار وكنا ننتظر الصباح بفـــارغ الصبر. أشرق الصباح ولم يكن من أثر للقطار. وكان التعب من جهة والجـــوع من جهة أخرى يشتدان علينا. رضينا أن نعاني مشقة الانتظار أيضاً حتى ظـــهر اليوم. وقبل الظهر صادفنا ضابطاً قديماً من أصدقائنا فانشرحت صدورنا بلقيـــاه فأسعفنا المومى إليه قليلاً بمسألة الغذاء.

وفي أثناء الطعام سمعنا صفير القطار فتركنا الأكل قبل أن نتم غذاءنـــا وركضنا. فركبنا مركبة بضاعة تحمل عدة براميل وصناديق فارغة. وبعد مـــدة سار القطار. فوقفنا على أرجلنا وأخذنا نسرح النظر يمنة ويسرة في تلك الفيافي الصغيرة وتلال الرمل المحمرة.

وبعد نصف ساعة أو أقل وصلنا إلى محطة قلقيلية وبعد ثلاثة أرباع الساعة وصلنا إلى محطة طول كرم. فبدلنا المركبة. خشينا ركوب مركبة تنقل أناساً مصابين بالتيفوس فركبنا مركبة مفتوحة مقطرنة تحمل المواشي. وبتنا ننتظر قيام القطار. ولا أعرف أي شيء تعطل في القاطرة حتى اضطررنا للانتظار هنا عدة ساعات وفي النهاية فارقنا طول كرم وقد كانت الشمس تحرق أدمغتنا وكانت درجة الحرارة ٥٨ ولكن الضرورة تقضي علينا بالإنتظار والصبر ساعة أو ساعتين أيضاً فقطعنا بالترتيب المحطات الآتية: "عنبته" "مسعوديه" "رامين" "سيله" "عرابه"(١) ثم جئنا إلى واد طويل. وكان هذا الوادي يمثل استطالة جبال جماعين. وبعد أن سار القطار في منحنيات وتعارج في الوادي والتوى التوآت كثيرة واستعجل في سيره وصلنا إلى جنين عقب الغروب. وكانت دور جنين شبه ظل مرئي.

١٢-جنين

١- موضع جنين. منظرتها. داخلها.

إن هذه القصبة التي تقوم في الجهة الشرقية منها تلة صغيرة يبلغ ارتفاعها ١٥٧ متراً وهي تلة عز الدين- تنفتح أمامها من الجهتين الغربية والشمالية الغربية صحراء مرج بني عامر Esdrelon. وفي الجهة الجنوبية منها تنتهي الجبال والوديان التي تبدأ من جماعين ونابلس وسباستيه. وفي الجهة الجنوبية من الوادي تقوم ربوة المنازل.

---

(١) عرابة: من قرى ناحية الشعراوية ومركز هذه الناحية في نهاية العصر العثماني وتقع على مسافة ١٣كم جنوب غربي جنين وبلغ سكانها عام ١٩٢٢م حوالي ٢١٩٦. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ص٧١-٨٢؛ معجم بلدان فلسطين، ص٥٢٢.

تقوم كافة دور القصبة على تلة عز الدين. وجميعها متوجهة نحو الصحراء والشرق وتمتد الجنائن الخضراء وأشجار الصبار والنخيل على مجرى ماء (عين جنين) التي تخرج من أمام القصبة في الجهة الشرقية وتسيل خارجها. وكذلك ترى أشجار النخيل في الجهة الغربية من المجرى أيضاً.

وترى من هذه الصحراء محطة الخط الحديدي على بعد عشر دقائق تقريباً. أما وراء المحطة فاتساع لا نهاية له ولا يمكن للنظر أن يحده.

ويمكن للناظر في قصبة جنين الصغيرة التي لا تزيد نفوسها على ألفي شخص أن يحيط لأول نظرة بتلك الأبنية القائمة في سفح الجبل فيراها قصبة صغيرة ذات دور مبنية من الطين وكأنها أفران سوداء بلا نوافذ. ويظهر وسط الركام من الأحجار والطين النزل الكبير لشركة Hambourg Amérika-Linie القائم في مدخل البلدة ومأذنة جامع القلعة البيضاء المرتفعة قليلاً عن يسار المدخل. وفوق ذلك بناء أسرة (عبد الهادي) الرفيعة وعدة أبنية أخرى اشيدت منذ مدة قريبة. فإذا أضفنا إلى مجموع ذلك إلى المقبرة القائمة في الطرف الأيسر من القصبة نتمكن حينئذ على قدر الإمكان من تصور وضعية جنين ومنظرتها.

إن داخل القصبة قذر ورديء مثل أكثر المدن الأخرى. وليس فيه ممر يسمى طريقاً. وحين الدخول إلى القصبة تجد عن يمينك مزبلة كبيرة هي أشبه بالأصطبل من الخان وعن يمينك باحة صغيرة هي عبارة عن خرابة قبة أو قبتين وعن كومات من التراب ونحاتة من الأحجار. وفي وسط هذه الباحة يجري ماء القصبة وهو عين جنين وبذلك أصبح هذا المكان محل الأوحال والعفونة والمستنقعات. يملأون الدلاء للشرب في جهة من هذا المجرى وفي الجهة الأخرى منه يغسلون أقدامهم القذرة. وتأتي الحمير والبغال وسائر ما يدخل إلى القصبة من الحيوانات فتشرب من هذا المجرى أيضاً. ولقد يظن الإنسان حين دخوله إلى جنين أنه في سوق حيوانات. ولا يمكن أن يوجد نظير

للوسخ والعفونة التي إمتلأت بهما الأرض هنا. ترى في الجهة الأخـــرى مـــن الباحة الأطفال القذرين الوسخين المصابين بالرمد جالسين أو مســـتلقين. ولقــد ابتلى أكثرهم بالجرب فلا ينفكون عن حك أجسادهم. ينغمسون في مجرى المــاء ويخرجون إلى الأزقة لينشفوا أجسادهم أو لتنقية ما عليهم. وفي الوقت ذاته فــإن هذه الباحة سوق البيع والشراء. فقد اعتادوا أن يطرحوا على أوساخها كافة مـــا يرد إلى القصبة من الخضرة والفاكهة والبطيخ. يأكلون هنا كل شيء فتـــتراكم فيها الأوساخ والفضلات. تأكل الأبقار والجمال والحمير وسائر ما تجده في تلك الباحه من البقايا وتبعثر في أطرافها ما يفضل عنها فيعفن. تخرج فضلة الميـــاه في جنين إلى ظاهرها فتحدث بين الجنائن مستنقعات تنتشر منها روائح عفنـــــة كريهة تنضم إلى الروائح العفنة التي تقادم عليها العهد في هذه الباحة. وتـــــرى أمواجاً من الذباب تطير في فضاء هذه الباحة كأنها بحر زاخر.

إن الطرق التي تتفرع يمنة وشمالاً من هذا الموقع هي أشبه شيء بطرق الماعز. ويحسبون أن الطريق الآخذة إلى الشمال مبلطة. وفي كل خطوتين منها منعطف وتمتد إلى دار الحكومة وإلى شعبة البريد وتنتهي بدار عبـــد الـــهادي. وبالقرب من دار الحكومة حديقة البلدية وقد زرعت اليـــوم باذنجانـــاً. وجـــامع شريف صغير قد طلي بالكلس ويقال أنه محول عن كنيسة.

ولا ننسى أنه في الجهة المرتفعة وراء بناء المكتب عدة حوانيت قديمـــة قريبة من دار الحكومة. أما الطريق الممتدة إلى الجهة اليمنى فإنـــها لا تـــزال تضيق وتتلاصق حتى تنتهي بين كومات من الوحل والأحجار.

٢- الاحوال العمومية

١ـ موقع القضاء. نفوسة. مساحته :

يشغل قضاء جنين الجهة الشمالية الشرقية من لواء نابلس ويحده شمالاً قضاء طبريا والناصرة وشرقاً نهر الشريعة[١] الذي يفصل اللواء عن ولاية سورية وجنوباً قضاء نابلس وغرباً قضاء بني صعب وحيفا. واراضية قسمان: قسم منها عبارة عن جبال صغيرة والقسم الآخر عبارة عن مرج بني عامر (جزرائيل)[٢] المشهور بقوته الانباتية وبلطافته الموقعية. وقد تغطت جبال القضاء باشجار الزيتون والبلوط وبامثالها من الاشجار المثمرة. اما صحراؤه فقد امتدت من حدود قضائي حيفا والناصرة حتى نهر الشريعة وهي بعيدة عن سطح البحر.

يقسم القضاء الى اربع نواح: بلاد حارثة[٣]، الشعراوية الشرقية[٤]. مشاريق الجرار[٥]، غور بيسان ولا توجد تشكيلات مديرية الا في الشعراوية

---

[١] نهر الشريعة: نهر الأردن.

[٢] جزرائيل (مرج بني عامر): وهو أكبر سهل داخلي في فلسطين تقدر مساحته بحوالي ٣٦٠كم٢ وتنتشر فيه العديد من القرى ويقع بين جبال الجليل الأدنى وجبال نابلس وتقع فيه قرى منها الفولة والعفولة وكان معبراً للقوافل التجارية بين حيفا ودمشق وللجيوش الغازية وعلى أرضه وقعت معركة مجدو وعين جالوت. الموسوعة الفلسطينية، ج٤، ص١٨٨-١٩٢.

[٣] بلاد حارثة: سميت بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة حارثة العربية تضم عدد من القرى منها اللجون وأم الفحم وعانين وعرقة والمنسي وتعنك والسيلة الحارثية. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص ١٥٨-٢٠٤؛ معجم بلدان فلسطين، ص١٦٤.

[٤] الشعراوية الشرقية: احدى المناطق الادارية والجغرافية التي كانت تتبع لواء نابلس وقد تـوزع النفوذ فيها ولا سيما في النصف الأول من القرن التاسع عشر بين عائلتي آل جرار وآل عبد الهادي وكانت تشمل ٥٨ قرية. رافق، فلسطين، ص٩٠٠،٩٠١.

[٥] مشاريق الجرار: منطقة جغرافية وادارية أطلقت في العصر العثماني على مجموعة من القرى مثل صانور والزاوية وجربا وميثلون وسيريس والجديدة وجبع والفندقمية وعنزه وصير وقباطية وغيرها من القرى. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص١١٧-١٥٨؛ محمد شراب، معجم بلدان فلسطين، ص٦٧٥.

الشرقية وفي غور بيسان. اما الناحيتان الآخريتان فملحقتان بمركـــز القضـــاء مباشرة. ولما كانت ناحية غور بيسان من الاراضي الســـلطانية الســنية فــان امورها الزراعية تابعة لمديرية الجفتلك الهمايوني[1] في بيسان وامـــا امورهـــا الملكية والعدلية فمحمولة للمدير ويؤخذ من القيود الرسمية أن مساحة القضـــاء - السطحية تبلغ (٧٥٢)[2] كيلو متراً وهي منقسمة على الوجه الآتي:

بحساب الكيلو متر	نوع الأرض
٤٥	أرض ذات أشجار صغيرة وذات أصول
٦٠	أرض ذات أشجار زيتون
٢٠	أرض ذات أشجار متنوعة
١٠٨٠	أرض خصصت للفلاحة والزراعة
٥٤٢	أرض حجرية وغير مزروعة
١٧٤٧	المجموع

وتبلغ نفوس القضاء ٤١٩١٥ منها ٣٩٤٧٣ اســـلام و٧٧٢ روم ٢٢٤ لاتين و٤٦ بروتستان[3] وفي القضاء ١٢٠ قرية ومركزه قصبة جنين.

---

[1] الجفتلك: كلمة تركية بمعنى مزرعة أطلقت على الأراضي العائدة للسلطان العثماني عبـــد الحميد والتي تركزت بشكل خاص في منطقة الأغوار، وقد استولت الحكومـــة العثمانيـــة على هذه الأراضي بعد انقلاب جمعية الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميـــد عـــام ١٩٠٨م وعرفت منذ ذلك الوقت باسم الأراضي المدورة. زهـــير غنـــايم، لـــواء عكـــا ص٣١١-٣١٣؛ معجم بلدان فلسطين، ص٢٦٠.

[2] المساحة السطحية للقضاء هي ١٧٤٧ كيلومتر وهي مجموع مساحة أراضي القضاء وليس ٧٥٢كم.

[3] ان جمع أعداد السكان تبين أن المجموع الصحيح هو ٤٠٥١٥ وليس ٤١٩١٥.

٢ ـ تاريخ القصبة:

كانوا يسمون هذه القصبة اولاً عين جنين (انجانين **Enjanin**) والسبب بتسميتها واضح ومعناها "عين الجنينة" ولقد كانت هذه البلدة في زمن يوشع عليه السلام.

ان هذه القصبة التي سميت اخيراً (**Djinea** جينة آ) هي الحد الفاصل بين صحراء (جزرائيل **EsdreIon**) وبين المقاطعة السامرية. وقد اراد ابناء الجليل الذهاب يوماً الى القدس فمروا من جنين. غير ان السامريين اوقعوا بهم القتل العام في هذه الجهة.

ويؤخذ من قول المؤرخين الموسويين ان المقاطعة السامرية التي كانت ملكاً لسبطي افرائيم وبنيامين قد كانت ممتدة من الشمال حتى قصبة جنين. وموقع هذه القصبة الوارد ذكرها في الكتب الموسوية هو اهم عند النصارى. فقد زار يسوع هذه القصبة مراراً حين ذهابه من الناصرة الى القدس. حتى انه شفى عشرة من الضعفاء فيها. وقد كان لهذه القصبة قلعة وسور. اما اليوم فلم يبق للقلعة اثر وقامت غرائس (الصبار) مقام السور ورغماً عن قابلية هذه القصبة لاحراز كثير من اسباب السعادة بسبب موقعها وما تتضمنه من التذكارات الماضية فانها لا تزال متأحرة كثيراً عما يماثلها من القرى. فما اعظم سوء الطالع المؤلم لهذه القصبة؟

٣ ـ الامور الادارية والبلدية:

ان نفوس هذه القصبة التي اتخذت مركزاً للقضاء منذ خمس وثلاثين سنة هي ١٤٠٠ شخص منهم ١٣٧٠ مسلمون والباقي ما بين روم وكاثوليك وان قصبة جنين التي يقيم فيها القائممقام بسبب توسطها في القضاء ليست اكثر قرى

القضاء نفوساً فان في كل واحدة من قرى ام الفحم[1] ويعبد[2] وعرابة التابعة لهذا القضاء اكثر من ٢٥٠٠ او ٣٠٠٠ شخص. وتطل قصبة جنين على مرج بني عامر الممتد نحو الشمال الغربي على طول ثمانية اميال. ورغماً عن وجود مستنقعات في بعض المحال من المرج فان درجة الانبات في تربته السوداء المؤلفة من الأراضي البركانية المتفتتة عظيمة جداً ويسقي نهر المقطع[3] الذي يصب في البحر الابيض هذه الصحراء المشرفة عليها قصبة جنين.

في قصبة جنين بلدية تبلغ ميزانيتها السنوية ٢٦٤٥٨ غرشاً. وقد تجلى هنا بحكم الطبع بعد هذه الدائرة عن المفهوم الحقيقي للبلديات بعد السماء عن الأرض. فقد خصص من وارداتها ١٤٢٧٨ غرشاً للرواتب و٦٨٣٤ غرشاً للتنظيف والتنوير والتبليط وجعل الباقي للهبات ولدفن الاموات ولمصارف الطرق وامثال ذلك. ومن الواجب قبل كل شيء باسم الصحة العمومية حل مسئلة توزيع الماء تلك المسئلة التي افتكرت بها البلدية كثيراً ولكنها لم تتمكن باي صورة كانت من اخراجها من حيز القوة الى حيز الفعل. تقوم (عين جنين) الكثيرة المياه والخارجة في الجهة الغربية من القصبة باحتياج الاهلين من الماء.

---

(1) أم الفحم: قرية تقع شمال غرب جنين وتبعد عنها ٢٥كم وبلغ عدد سكانها حوالي ٢١٩١ نسمة عام ١٩٢٢م. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص١٧٤-١٧٩؛ معجم بلدان فلسطين، ص١٢٩.

(2) يعبد: من قرى قضاء جنين وبلغ عدد سكانها ١٧٣٧ نسمة عام ١٩٢٢م. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ق٢، ص٩٨-١٠٥؛ معجم بلدان فلسطين، ص٧٣٢، ٧٣٣.

(3) نهر المقطع: يقع في الأطراف الجنوبية من لواء عكا ويشمل حوض النهر مساحة كبيرة من جبال الجليل الأدنى حيث يتزود بالمياه من العيون في المنطقة ويقطع سهل مرج بني عامر ليصب على بعد أربعة كيلو مترات شمالي حيفا لا يأخذ صفة النهر إلا بعد خروجه ن سهل مرج بني عامر بفضل العيون التي تغذيه بالمياه بشكل دائم. عادل، المياه، ص٢١٥، ٢١٦، طوطح وخوري، فلسطين، ص٦.

ورغماً عن ان ماء العين لذيذ وخفيف على المعدة فان بقـاءه مكشـوفاً يجعلـه عرضه للاوساخ والاقذار وهو من اهم الاسباب لانتشار الملاريا. وقد افتكـروا قبل سنة ونصف بتغطية المنبع وجر المياه بقساطل حديدية وتوزيعها حتـى ان البلدية صرفت في هذا السبيل سبعين ليرة تقريباً وابتاعت بثلاثين لـيرة منـها ترابه[1] افرنجية وغيرها المواد الابتدائية واهتمت باسـتقراض مبلـغ جزئـي للمباشرة بانشاأت[2] هذا العمل الصحي الاساسي ثم لم يتيسر لها اخـراج هـذا الامر الخيري من حيز القوة الى حيز الفعل. وان من الضروري جداً انجاز هذا العمل الصحي فان الحمى المالارية الناشئة عن بقاء الماء مكشوفاً قد اصبحـت مرضاً مستولياً في جنين وتتعدى اصاباتهـا (التسعين في المئة) بين الاهليـن. نعم ان السبب الاصلي لعلة الملاريا هي الجراثيم التي تتولد في المجرى غـير المنتظم (لعين جنين) القريب من البلدة ولكن اصلاح ماء عين جنين وتوزيعـه على الدور بصورة فنية هو من اهم الاسباب المتوجهة على البلدية.

٤ ـ امور المعارف:

في قصبة جنين مكتبان ابتدائيان احدهما للذكور والآخر للانـاث وفـي الأول اكثر من ٢٠٠ طالب وفي الثاني ٦٠ طالبة.

ان مكتب الذكور هو من درجة "نمونة"[3] اسماً ولكن استعداد الطـلاب وقابليتهم الفطرية موجبان للشكر والاعجاب غـير ان فقـر اوليـاء الاطفـال واحتياجتهم يحولان دون تمكينهم من اسعاف اولادهم بما يلزم لهم من اللـوازم التدريسية والتعليمية ولهذا السبب فان ٨٠ من تلامذة المكتب اضطروا لتركه منذ

---

[1] ترابه افرنجية: آلة لسحب المياه.

[2] انشاءات.

[3] نمومة: نموذجي.

اعلان النفير العام سعياً وراء استحصال مـــا تحتاجــه اســرهم مــن القــوت الضروري. وقد فهمنا من افادة المعلم الأول ان كافة ابناء القصبة تقريباً يقرأون ويكتبون وفضلاً عن ذلك فان الذين يقرأون ويكتبون بين الكبار هو بنسبة المئة. اما ميل الاهلين ورغبتهم بالعلم فلا بأس به وترى القسم الاعظم من الصبيـــان يداومون على المكتب دون ان يروا جبراً او شدة. وقد ادرك اهالي قرية "قباتية" التي تبلغ نفوسها الالفين انه لا يمكن ادارة مكتبهم بمعلم واحد فاستحضروا ثلاثة معلمين آخرين على حسابهم وهم يدفعون لكل معلم علاوة على مؤنته الســـنوية رواتب معينة فيدفعون ٣٠٠ غرش للمعلم الأول و٢٠٠ غرش لكل واحــد مــن المعلمين الآخرين. وفضلاً عن هذا فانهم جمعوا من بينهم البدل النقدي لاثنيـــن من معلمي المكتب الابتدائي. اما الثلاثون مكتباً المفتتحة في قضاء جنين فانـــها مسلمة لأيد سافلة حمقى جاهلة. ولقد بات من الواجب ازالة هــذه العلـــة التـــي اصبحت عامة واشادة مؤسسات علمية تقوم على قواعد متينة وثابتـــة. وانني اعتقد انه اذا اسس بالـــ (١٣٣٦٠٠) غرش التي تصرف على معارف القضـــاء ثلاثة مكاتب نمونة ابتدائية في جميع القضاء بشرط ان تكون ليلية وعهد بـــامر ادارتها لشبان نبهاء. منوري الافكار فان ذلك يكـــون اعظـــم خدمـــة حقيقيـــة للمعارف. اما المكاتب في الوقت الحاضر فليست سوى مساكن بلداء يأوون اليها لاستيفاء الرواتب.

٥ ـــ الامور الزراعية:

وضعت في ميزانية المحاسبة الخصوصية مخصصات معلم للزراعة في قضاء جنين الذي يضم بين جنبية مرج بني عامر الذي اشتهر في الافاق بقوتـــه الانباتية غير ان الحكومة المحلية لم تفتكر بامر الاستفادة من هـــذا ولـــم تـــهتم بالتحرى على متخصص زراعي وهو امر يستلفت النظر.

ان ثلثي القضاء تقريباً يحرث ويزرع. ويعطى القمح والشعير الواحد خمسة عشر بالحساب الوسطى اما بقية المحصولات فانها تعطي الواحد عشرة. والقسم الشمالي من القضاء هو اكثر الجهات انباتاً ويخمنون مواسم القضاء السنوية بعشرة ملايين كيلة[1] قمح وبثمانية ملايين كيلة شعير وبـ ٢٠٧٣٠٠ كيلة سمسم وعدس وفول وغيرها. وتبلغ الحصة العشرية[2] من الموسم الصيفي ٩٢٥٠٥٥ غرشاً ويستوفي ثلث هذا الرقم من الذرة والحمص والقطن والثلثان الاخران يستوفيان من السمسم فقط اما حصة الزيتون العشرية فهي ٤٣١٥٣٠ غرشاً. ولقد كان موسم الزيتون جيد جداً في هذا العام ولكن هجوم الحر دفعة واحدة احدث فيه نقصاً يقدر بثلاثين في المئة. ولم يلتفت لهذه الأفة السماوية حين التخمين في كثير من القرى بل صنع المأمورون ما يرونه بدون اهتمام او اكتراث.

وقد مرت في اراضي القضاء شعبتا الخط الحجازي المتدتان الى القدس وحيفا فاحدثت فيه خمس مواقف وهي شطه[3]. بيسان[4]. جسر المجامع[5].

---

[1] الكيلة: الوحدة المعيارية في الدولة العثمانية من سنة ١٨٤١م وتساوي الكيلة ٢٨,٥ رطل في كل من حيفا وعكا. شولش، تحولات، ص٩٧؛ بشارة دوماني، اعادة اكتشاف فلسطين، ص٢٩٨؛ روحي حسين، المختصر في جغرافية فلسطين، ص٣٥.

[2] الحصة العشرية: المقصود العشر الذي تجبيه الدولة عن المحاصيل الزراعية وهو عشر الانتاج الزراعي.

[3] شطة: قرية تقع على بعد ١٠كم شمال غرب بيسان وبلغ عدد سكانها حوالي ٢٨٠ نسمة عام ١٩٢٢م، معجم بلدان فلسطين، ص٤٦٨.

[4] من أقدم المدن الفلسطينية فتحها العرب عام ١٣هـ وتقع في سهل بيسان على بعد ٣٦كم شرق نابلس. معجم بلدان فلسطين، ص٢١٧.

[5] جسر المجامع: قرية تقع على طريق بيسان طبرية إلى الشمال الشرقي من بيسان، أقيمت على الضفة الغربية لنهر الأردن على جانب الجسر الذي أقيم فوق نهر الأردن لتسهيل العبور على جانبي النهر، معجم بلدان فلسطين، ص٢٥٨.

عفوله[1]. جنين وبذلك حصل رقي عمومي في احوال القضاء. ولما كانت طريق جنين هي واسطة الاتصال التجاري بين الشام ونابلس والقدس فقد ربح الاهلون في قضاء جنين ارباحاً طائلة.

٦ـ الآثار العتيقة:

ان مواقع قضاء جنين كانت قسماً من البلاد المعمورة في ارض فلسطين ولذلك فانه من المحتمل ان توجد فيها ايضاً آثار عتيقة مهمة جداً. ويزيد هذا الظن ما ظهر من الآثار النادرة اثناء الحفريات في تل المتسلم[2] وتل تعنك[3].

كان موقع المتسلم قبلاً خرابة بلاد كثيرة تعترف باسم ماجدو وهو بعيد عن قصبة جنين ثلاث ساعات وعن حيفا خمس ساعات. ويثبت التاريخ انه مضت ادوار اربعة على البلدة المعروفة من قبل الميلادي المسيحي بثمانمائة سنة. فالدور الأول ايام الاموريين وبتعبير آخر الكنعانيين الذين هاجروا من بادية الشام. والدور الثاني ايام المصريين. والدور الثالث أيام بني إسرائيل.

---

(1) العفولة: من قرى قضاء الناصرة تقع في جنوب مدينة الناصرة في منتصف سهل مرج بني عامر انتعشت القرية بعد أن أقام العثمانيون فيها محطة لسكة حديد حيفا – دمشق، وقد باعت الحكومة أراضي القرية مع مجموعة أخرى من أراضي قري القضاء إلى كل من حبيب بسترس ونقولا سرسق وجريس تويني من تجار بيروت عام ١٨٦٩م. أسعد منصور، تاريخ الناصرة، ص٩٨، ٩٩؛ قسطندي أبو حمود، المواقع الجغرافية، ١٤٦؛ معجم بلدان فلسطين، ص٥٣٦، ٥٣٧.

(2) تل المتسلم (مجدو): منطقة جغرافية في مرج بني عامر جنوب غرب الناصرة عثر فيها على آثار قديمة اشتهرت بوقوع عدد من المعارك الحربية فيها. انيس الصايغ، بلدانية فلسطين، ص٢٨٢، قسطندي أبو حمود، المواقع الجغرافية، ص١٨٨، الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٨٦.

(3) تل تعنك: من أقدم المدن في فلسطين وتعني كلمة تعنك الأرض الرملية وتقع على بعد ١٣ كم غرب جنين. معجم بلدان فلسطين، ص٢٢٦.

والدور الرابع ايام الرومانيين. ولا نزال نشاهد في خربة اللجون[1] البعيدة عن التل مقدار ربع ساعة انقاض آثار جسيمة باقية من الدور الرابع ايام الرومانيين. ومما يجدر ذكره السد الذي انشيء على طول نهر اللجون وقد سكن على التوالي ابناء الادوار الأربعة موقع ماجدو فقبضوا بذلك على طريق الشام – التيه[2] المعروف حتى الآن.

عهدت عام ١٩٠٢ شركة فلسطين الالمانية المؤسسة في لابيزيك الى الدكتور شوماخر **SCHUMACKER**)[3] المقيم في حيفا باجراء الحفريات في استحكامات ماجدو البالغ ارتفاعها ٢٥ متراً. وقد ظهرت في نتيجة الحفريات خرابات بلدان قديمة منشأة بفواصل تتروواح من ستة اعصر الى سبعة. وقد اثبتت الآثار التي ظهرت مثل قصر مستحكم انشيء تقريباً منذ ثلاثة الاف عام قبل المسيح وجدار خندق من الآجر بعرض ٨ امتار وامثالها من الآثار الكنعانية والاثورية والمصرية والاسرائيلية – ان مدينة ماجدو كانت قائمة على تل المتسلم اليوم. وظهر اثناء الحفر في الجهة الجنوبية من التل معبد قديم من بقايا الاسرائيلين ووجد خاتم "لى سمع عامل يوربعام" التي رسمت صورته عليه.

---

[1] اللجون: قرية تبعد عن جنين حوالي ١٨كم غرباً وكانت في بداية العصر العثماني مركزاً للواء اللجون الذي حكمته أسرة آل طراباي ولكن مكانة اللجون تدهورت بعد انتهاء حكم هذه الأسرة وبلغ عدد سكان القرية عام ١٩٢٢م حوالي ٤١٧ نسمة. الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٣، ص١٦٤-١٧٤؛ دفتر مفصل ناحية مرج بني عامر، ص٥؛ دفتر مفصل لواء اللجون، ص٢-٣.

[2] التيه: صحراء سيناء.

[3] شوماخر، غوتليب شوماخر، أحد الألمان المقيمين في المستعمرة الألمانية في حيفا، قام بدراسات أثرية لكل من حوران وشمال شرق الأردن وشمال فلسطين وله كتب ومقالات عديدة تتناول المنطقة منها كتاباً بعنوان الناصرة المعاصرة. المصدر: علي محافظة، العلاقات، ص٢٨.

وهذا الخاتم مصنوع من حجر" ياسبيس " الصلب جداً. وقد نقش ايضــــاً علــى الخاتم صورة سبع فغر فاهه ورفع ذنبه وقد كتب بسطرين على اطراف الرســم بالعبرانية هذه العبارة "لي شمع افت يروبعام" وتبين من الحساب ان تاريخ هــذا الخاتم يرتفع الى ٢٨٧٩ سنة. وقد نقش رسم السبع الذي هو من صناعة البابليين بغاية من الدقة وعلى شكل بديع جداً وظهرت بالقرب من المحل الذي وجد فيــه الخاتم قواعد بنايات. ويستدل من طرز بنائها انها من بقايا دور سـليمان عليــه السلام. والحاصل انه وجد في اثناء الحفريات كثير من الآثار القديمة والخواتــم والجرار والهياكل من بقايا عصور المصريين والبابليين والاسرائيليين.

واثبتت الحفريات التي اجريت لحساب شركة فلسطين الالمانية في تلــة تعنك القائمة على طريق جنين ــ حيفا والبعيد عن جنين ساعة ونصف ساعة ــ ان البلدة المذكورة كانت ذات اهمية قديمة. وقد وجد في اللحود التــي اكتشـفت جرار مملوءة بهياكل الاطفال العظيمة واباريق مصنوعة من الجبس وهــي مــن بقايا الادوار التاريخية القديمة جداً والواح حجرية مملوءة الوجه بالكتابة بـــالخط الكوفي مثل الآثار التي وجدت في تل عمارنا[1] في مصر. وتؤيد هذه الكتابــات درجة انتشار المدنية البابلية ونفوذها في ذلك الحين.

٣ ــ الحالة الاجتماعية في جنين :

ان الحالة الاجتماعية متأخرة جداً في اهالي قصبة جنيــن الذيــن يبلــغ عددهم تقريباً الالفين واكثرهم من المسلمين. ولا يمكن ان يكون فـــي القطعــة

---

[1] تل عمارنا (تل العمارنة): يطلق على مجموعة من الأطلال والقبور والواقعة علــى أحــد التلال جنوب القاهرة حوالي ٣٠٠كم حيث عثر فيها على ألواح من الطين كتبت بـــالخط المسماري وهي عبارة عن مجموعة من المراسلات الدبلوماسية التي كانت محفوظة فـــي الارشيف الملكي من عهد امنحتب الثالث وامنحتب الرابع. الموسوعة الفلســطينية، ج٣، ص٣١٥.

السامرية قصبة اكثر انحطاطاً من جنين فجميع الاهالي فلاحون مساكين ما عـدا اسرة او اسرتين. ومع علمنا بانه توجد في قرى رمانة [1] وام الفحم ويعبد اسـر غنية بالأراضي والأموال تعيش بثروة ورفاهية فاننا نقـول ان هـذا السـقوط الاجتماعي عام في جميع القصبة.

عيشة الاهلين هنا رديئة جداً. فدورهم كما قلنا قبلاً هي اشبه بـالكواخ او مرابط حيوانات ويغلب ان يكون الكوخ عبارة عن غرفة واحدة ليس لها سـوى نافذة صغيرة قريبة من قبة السقف وقد قسمت هذه الغرفة الى عدة اقسام فجهـة منها تسمى الموقدة وهي محل طبخ الطعام. وجهة منها تسمى راوية وهي اعلى من باقي الجهات وتجعل للنوم. وفي زاوية من زوايا الغرفة محل لربط الابقار. والقسم الاعظم من اهالي جنين يقضون القسم المهم مـن حياتـهم فـي هـذه المحلات. فينام صاحب الدار في طرف وتنام بقراته في طرف آخر من الغرفة. ويمكننا ان نقول ان عيشة الحيوانات مع الانسان هو آخر درجة مـن درجـات الانحطاط الانساني. يقيم في هذا المحل خمسة او عشرة ما بين كبار وصغـار واطفال وحينما يطبخون طعامهم تلقى حيواناتهم افرازتها. وتمتلأ الغرفة بالدخان فتعتل عيونهم جميعاً منذ نعومة اظفارهم. واذا اعتنيت وعاينت كافـة الاهليـن معاينة صحية لا تجد واحداً منهم خلواً من الروماتيزمة او من فقر الدم او مـن السل. اما الرمد والجرب وغير هذا من انواع الامراض فكانها مرسلة خاصـة لهذه الهياكل العظيمة من بني الانسان وان اليد العاملة في جنين بين جميع هـذه الطبقة من الاهالي هي يد المرأة اكثر من يد الرجل فالرجال امـا زراعـون او فعلة وعلى كل حال فانهم يعملون شهرين او ثلاثة في السنة وفي الاشهر التسعة الباقية يستلقون على ظهورهم يعضون انامل الفقر والفاقة. وعلـى المـرأة ان

---

[1] رمانة: قرية تقع على طرف سهل البطوف الجنوبي بين جنين والناصرة وتبعـد ١٠كـم شمال الناصرة و١٧كم شمال غرب جنين. معجم بلدان فلسطين، ص٤١٦.

تستحضر لهم جميع ما يحتاجونه في هذه المدة فتجهد نفسها وتسعى وتركض. فالنساء ترعى الابقار ويحلبنها ويصنعن اللبن والجبن. وهن يعيشن رجالهن بما يكتسبنه من هنا وهناك.

وليس من الممكن ان تجد في جنين شيئاً يقال له حرفة او صناعة ولو كانت عادية. ويقال انه كان في جنين محلٍ للدباغة يدبغون فيه جلود الماعز وان صناعة الفخار كانت رائجة هنا. اما اليوم فأنه لم يبق من اثر لا للاولى ولا للثانية. حتى انه لا يوجد في قصبة جنين رجل لتبييض ادوات الطبخ. وهم ينتظرون دائماً مجيء مبيض سيار من جبل لبنان. ولا عمل لاولئك الرجال الذين يجلسون في بلدتهم تسعة اشهر بلا شغل ولا صنعة ـ سوى الفساد والتزوير. وان اللصوصية منتشرة هنا اكثر من كل محل. وحينما يملأون الادمغة بما يستحضر اليهم من المسكرات من جهات الناصرة وعفوله لا يبقى عندهم اهتمام لا بولد ولا بزوجة ولا باسرة ولا بشيء مطلقاً. تضرب المرأ التي تعمل بلا انقطاع كافة السنة وربما تجرح. ومع ذلك فانها لا تنفك عن ان تعمل بلا انقطاع صابرة مستسلمة لتجد شيئاً يشبع زوجها.

تشبه العادات الاجتماعية في جنين بمقياسها الصغير مثلها من العادات في نابلس وفي طولكرم فقد استولت حسب العادة عدة اسر غنية على حياة القصبة باجمعها. وهي تستفيد من الظلام العمومي المستولى عليها. ولا هم لهؤلاء سوى اضافة كميات جديدة على رؤوس اموالهم. والحاصل ان الامور التي تستلفت الانظار هي: الوسخ، المرض، الانحطاط والتدني. عدم الفكر. الكسل. السفالة. الجهل والظلمة. الهم المديد. فجنين عبارة عن هذا.

ومن الغريب ان اهالي جنين عارفون بهذه الحالة فهم ينيمون اطفالهم وهم ينشدون هذه التهليلة

تهليلة

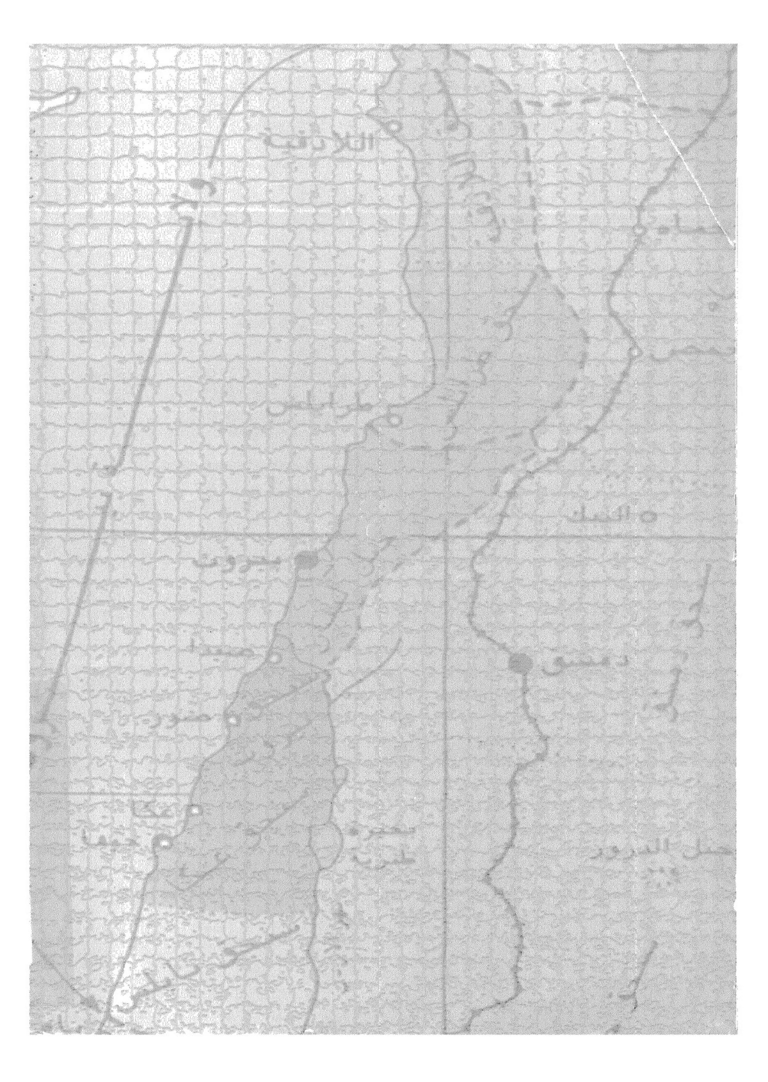
يا عين كوني على البلوى طويلة الروح

هذا المقدر يا عين وهذا اللى انكتب باللوح

يا عين كوني على البلوات صبورة

فما ابلغ هذه التسلية التي يألف اهالي جنين سماعها منذ طفوليتهم

المحتويات


اللاذقية
طرابلس
النبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا